" الرواية الحاصلة على خمس جوائز أدبية "




# التعساء

## ديميتري فيرهولست

ترجمة: ريم داوود

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# الثُعسَاء

## رواية من بلجيكا

## ديميتري فيرهولست

## ترجمة: ريم داوود

**الثُعساء**

تأليف: ديميتري فيرهولست

ترجمة: ريم داوود

تحرير ومراجعة: هدى فضل

**الطبعة الأولى: 2020**

رقم الإيداع: 2019/19716

الترقيم الدولي: 9789773195243

تصميم الغلاف: محمد محسن

262 دقيقة متبقية من «التعساء»

0%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60شارع قصر العيني 11451– القاهرة

ت 27954529 - 27921943 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

**De helaasheid der dingen © 2006 by Dimitri Verhulst**

**Originally published by Uitgeverij Atlas Contact, Amsterdam**

**First published as *De helaasheid der dingen* by Dimitri Verhulst, 2006.**

**“This book was published with the support of Flanders Literature (flandersliterature.be).”**

بطاقة فهرسة

فيرهولست، ديميتري.

التُعساء رواية من الأدب البلجيكي/ تأليف: ديميتري فيرهولست؛ ترجمة: ريم داوود.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2019.

ص؛ سم.

تدمك 9789773195243



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# الإهداء

إلى "ويندوب"،

وإلى ذكرى جَدَّتي،

التي لتجنِّب العار،

ماتت قبل إنهائي للصفحات الأخيرة من مُسوَّدَة هذا الكتاب.

**"أيُّ تشابهٍ بين ناسٍ في الواقع وشخصياتٍ من هذا العمل يعود السبب فيه إلى فهم الطبيعة البشرية."**

"لطالما دُهِشت من أولئك الذين يكرسون حياتهم لكل ما هو مزيف في الحياة. دائمًا ما تنتهي حياتهم تلك إلى الفشل. ولكن، وحتى عندما ينجح أحدهم فإن نجاحه لا يتعدى الشعرة. شعرةٌ واحدة تمثِّل ما لا يملكه شخصٌ وما لا يستطيع آخرُ الحصول عليه".

**بيير ميشون - سادةٌ وخَدَم**

"لماذا لم أعد أحلم بأمِّي؟ ربَّما لأنني كتبتُ الكثير عنها، ووضعتُ صورتها الجميلة على غلاف أحد الكتب. لكنني قمتُ بإبعادها، دون أن أقصد. أبعدتُ حضورها ووجودها. لم تكن أمِّي تزعجني. استعدتُ وجودها عَبر الكتابة عنها بكثرة، لكنني أظنُّ أنني حوَّلتها بذلك إلى شخصيةٍ أدبية. شخصيةٌ مركّبةٌ وفنّيةٌ ومعقّدة. وفقدتُ بذلك أمي الحقيقية. الأم المتوفاة. أنا يتيم، ماتت أمِّه، بسبب كتابته عنها بغزارة".

**فرانسيسكو أومبرال - كائن البُعد**



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 1- ابنة عمتي الجميلة

Download from
Dreamstime.com

شكّلت العودة المرتقبة لعمّتي "روزي" إلى "آرسينديجيم" مفاجأةً سارّةً في حياتنا، نحن، رجال هذه العائلة، الفاشلين. أمّا أنا، فأوشكتُ على بلوغ العُمر الذي يؤهلني للانضمام إليهم.

بدأ اليوم بتكرار اسمها.. "روزي"، حاملًا معه الأمل، فأحد أفراد هذه العائلة سيعود بعد مغادرته إيّاها. أحد الذين وُلِدوا هنا، ثم رحلوا عن المكان، سيعود مرّة أخرى! وذلك الشخص ليس سوى "روزي"! ذكّرنا رجوعها بعودة الابن الضّال في الإنجيل، وأثبتْ لنا بأنه حتى "آرسينديجيم" لا تزال تحتفظ ببعض مميزاتها، وأننا نحن أنفسنا لسنا عديمي القيمة كما يرانا الناس. اتصفت عمّتي "روزي" بجمالٍ متميز، وظلّ النوم معها في الفراش نفسه سببًا للفَخر والوجاهة.

رحّب جَدِّي - الذي لم يكن يحترم أيَّ شخصٍ لا يستطيع تحمل شرب الكثير من الخمر- بدعوة الشبَّان له للشرب في جولةٍ تِلْو أخرى، للفوز بلقب زوج ابنته الجميلة. في ذلك الوقت، كان مرض



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشـراب، بشـكلٍ متكرر، كـي يـذهب إلـى الحمَّام ويبصق دمًا. لم يعِش طويلًا ليرى ابنته المحبوبة، وهي تُزَفُّ إلى عريسها أخيرًا. سـتة أقـدامٍ، يبـدو أنـها المسـافة نفسـها التـي يـدفنون فيـها كل شخص، حتى ولو كان سِكّيرًا، في قلب الأرض الرحيمة. حرصت جدَّتي، قبل أن تمضي ما تبقى من أيامها في دارٍ للمسنِّين، على تلميع الشاهد الرخاميِّ حالك السواد لقبره أسبوعيًا. اعتبرتْ ذلك إحـدى مـهامها كأرملـة. عقـب جنـازة والـدها "الشَرِّيـب الأعظم"، زوَّجتْ عمّتي "روزي" نفسَها لرجلٍ لا نعرف عنه شيئًا، وانتقلت معه إلى عاصمتنا البعيدة، مخلّفةً بذلك الأسى في قلوب شباب بلدتنا، الذين اضطروا لتعزية أنفسهم بتحطيم حياة الفتيات الأقل جمالًا من عمَّتي؛ وهكذا تسببت "آرسينديجيم" مرةً أخرى في تحطيم كل ما هو جميل أو التسبب في رحيله.

تباعـدت عمّتـي "روزي" عن بلدتها، شيئًا فشيئًا. انتزعت نفسها منـها، بمساعدة رجلٍ (لم نكن متأكدين من اسمه، ولا من مدى قـدرته علـى شُرب كمّيـاتٍ كبيرةٍ من الخمور) شكّل بالنسبة لها وسيلة هروبٍ لا بأس بها، وكأنها كانت قاب قوسين أو أدنى من المـوت. خـلال مكالماتـها التليفونيـة النادرة، تحدَّثت عمَّتي عن تراكم الثروة، والحيوية التي تملأ المدينة، وتحويل سطح المنزل إلى حديقة، وحجرةٍ للتمتع بالساونا. حاولتْ الإبقاء على علاقةٍ تربطها بالبيت والعائلة، فأرسلت لنا كل صيفٍ بطاقاتٍ بريديةٍ لأماكن تقليدية، زوَّدتها بتحيّاتٍ مرحةٍ للجميع، من مناطق بعيدة، لم يهتم أيٌّ منّا بالبحث عنها في أطلس الخرائط. خلال زياراتها، الأكثـر نُدرةً مـن اتصـالاتها - توسـلنا لزوجـها كـي يـوقف سيَّارته باهظة الثمن بعيدًا عن بيتنا. نحن فقراء، ولطالما كُنّا كذلك، لكننا من النوع الذي يفتخر بفقره، ودون خجلٍ بتاتًا. إنّ وقوف سيارةٍ فاخرةٍ أمام المنزل، لهو موقفٌ مُهينٌ للغاية، كما أنَّ فكرة أن يظنَّ أحدٌ من "آرسينديجيم" بأن عائلة "فيرهولست" تمتلك شيئًا من الثروة هو أمرٌ معيب.

الوضـع كـالتالي: أمضـيتُ سـنواتي الأولـى مـع أبـوايَّ فـي شـارع "كـانتون"، نتشـارك سـاحة المـنزل الصـغيرة مـع سُكّان آخـرين،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونستخدم جميعًا طلمبة مياهٍ واحدة، ومرحاضًا واحدًا عبارةٌ عن فتحةٍ في لوحٍ خشبي فوق حوضٍ عَفِنٍ مباشرةً. امتلأت جدران غرفة المعيشة بماءٍ يتسرَّب تحت سطحها. كنَّا نكوِّر ورق الصحف ونسدُّ بها الفتحات التي خلّفها نخر السوس في خشب إطارات النوافذ، منعًا للهواء البارد. لطالما تحدَّث أبي عن مصاعب الحياة في هذا المسكن بفخرٍ وزهو، لأن التطلّع إلى حياةٍ سهلةٍ دليلٌ على افتقاد الرجولة. عندما انتقلنا للعيش في شارع "مير"، كان الوضع أكثر سوءًا وبؤسًا. الحمَّام في هذا المنزل فتحةٌ خشبيةٌ أيضًا، لكن تسرُّب الماء هنا ليس في الحوائط، وإنما في السقف. امتلأت أرضية المطبخ بالدِّلاء، لالتقاط المياه المتساقطة عبر السقف. كم من أمسياتٍ سعيدةٍ أمضيناها على الأريكة ونحن نصغي إلى أنغام تساقط الماء في الدِّلاء، محاولين تخمين تلك الألحان التي يعزفها لنا السقف الموشك على الانهيار. كنَّا نقوم يوميًا بإعادة ملء السلاطين المخصّصة لسمِّ الجرذان. بدلًا من القضاء عليها، أشعرتنا الجرذان بأننا نتولاها بالعناية والرعاية. تعلّقت مشاعرنا بالسُلَّم الذي يعلو القبو، والذي نما الفطر على درجاته. كان السُلَّم عبارةً عن فخٍّ للموت، وفق الطراز المعماري الخاص بالطبقة العاملة. كان أبي اشتراكيًا، وبذل مجهوداتٍ خارقةٍ كي يثبِّت ذلك. بالنسبة له، لم تكن الممتلكات سوى أشياءَ إضافيةٍ تستدعي مسح الغبار عنها، لا أكثر ولا أقل. أنت لا تمتلكها، بل هي التي تمتلكك. لو أننا بالغنا في اقتصاد نفقاتنا مرَّة، وعرَّضنا أنفسنا لخطر وجود فائضٍ من المال بحلول نهاية الشهر، كان يسارع بصرف المتبقي في حسابه المصرفي، ويحوله إلى خمرٍ يشربه، حمايةً لنا من إغراءات الرأسمالية. لسوء الحظ، أثبتت أمِّي مرَّةً تِلْو أخرى أنها بقرةٌ برجوازية: منعها غرورها الزائد من انتعال الأحذية القديمة، المتهالكة، فتقدّمت بطلبٍ للطلاق، بعد عشر سنواتٍ فقط من الزواج. حين غادرت، أخذت معها كل ما هو غير مثبَّتٍ بمسامير، ما منح أبي شعورًا بالسعادة القصوى. أخيرًا، لم تعد لديه أيَّة ممتلكات، لا زوجةٌ ولا أيّةُ قطعة أثاثٍ أخرى، وانتقل بعدها إلى بيت أمِّه العجوز، ثانيةً. الأمر الواضح، هو أننا نظرنا باستعلاءٍ إلى أفراد العائلة الذين يوقفون سياراتهم الفاخرة أمام المنزل، حين



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يزورونا في الإجازات، وهم يرتدون الملابس الغالية لدرجةٍ تثير الاشمئزاز.

انتقلت شائعة عودة "روزي" إلى "آرسينديجيم" - "يا للمعجزة!".. "يا للمعجزة!"- بسرعةٍ فائقة. أمضيتُ تلك الأيام تحاصرني أسئلة رجالٍ دبّث فيهم الحياة من جديد. أرادوا أن يعرفوا مني ما إذا كان كلام سكارى البلدة صحيحًا. كان كذلك بالفعل: فلدهشتنا، نحن أيضًا، رجعت عمَّتي "روزي" بعينين متورمتين يحيط بهما السواد، وبرأسٍ منكس، تسأل إن كان بإمكانها وابنتها الإقامة معنا لبعض الوقت.

"معنا" أي لدى جَدَّتي، التي دمَّر أربعةٌ من أولادها الخمسة - وأبي أحدهم - حياتهم العاطفية، وعادوا للإقامة مع أمِّهم. ولمّا كانت أمّي قد سئِمت حدَّ الموت، لا من أبي وحده، بل منِّي أنا أيضًا، فقد أخذتني جدّتي تحت جناحها. أمضيتُ أيَّامي الفاترة بصحبة أبي وأعمامي الثلاثة. الآن، سوف تنضمّ إلينا عمَّتي "روزي" وابنتها "سيلفي"، هربًا من رجلٍ يعذّبهما بالخيانة والعنف.

كنتُ ألتقي ابنة عمَّتي، القادمة من "بروكسل"، بشكلٍ متقطّع. غالبًا ما يحدث ذلك في الجنازات، أو في يوم رأس السنة، وعندها يشعر كلانا بأنه ينتمي لعالَمٍ مختلف، ولذلك يتجاهل أحدنا الآخر بحكمة. كان لديَّ اعتقادٌ بأنها تعزف على البيانو، وترقص الباليه مرتديةً تنورةً ورديةً منفوشة. كانت من ذلك النوع من الفتيات اللاتي يحسبن السُعرات الحرارية التي وفَّرنها يوميًا، واللاتي يؤمِنَّ بأن "بابا نويل" يمتلك حساباتٍ مصرفيةٍ ضخمة. الالتحاق بالجامعة أمر يقيني في سماء تطلعاتها. ولأنها ورثت الجمال عن أمها، فسرعان ما سوف تسلِّي نفسها بتشجيع الشبّان على إضاعة أوقاتهم في محاولة نَيل إعجابها. كانت تصغرني قليلًا، لكن ثقتها الزائدة بنفسها جعلتني أتراجع عن إظهار تفوقي عليها عُمريًا، أو في أيِّ مجال. لم يسعدني وصولها. تعايشتُ مع حصننا الذكوري على نحوٍ جيّدٍ قبل دخولها حياتنا. أزعجتنا التربية المحترمة لـ"سيلفي"، وأثارت أعصابنا. رأينا حالتنا المُزرية منعكسةً في عينيها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اعتاد أبي أن يتغوَّط فاتحًا الباب. تنبعث من فضلاته رائحة جبن تشيدر ريفيةٍ، ونفّاذةٍ لدرجة أنها تبدو من خارج هذا العالَم. يقف في الصالة، بعضوٍ متدلٍ، بعيدًا عن المرحاض بستَّة أقدام، ولذلك لم يكن في إمكاني الادّعاء بأنني لا أسمعه حين يصيح مناديًا إيَّاي لجلب بَكَرة مناديل حمَّامٍ جديدة، وبقية صفحات الجريدة. لطالما فعل ذلك لسنوات، وناسبنا هذا النظام بشكلٍ مثالي: يحصل على بكرة مناديل الحمام الورقية، وشيءٍ يقرأه. لكن الآن، مع مراقبة "سيلفي" لنا، بدا وكأننا احتجنا فجأةً للاعتذار عمَّا اعتدنا على فعله. أحسسنا بالحَرَج من نزولنا إلى الطابق السفلي صباحًا، ونحن نرتدي ملابسنا الداخلية ذاتَ الفتحات الأمامية، وقد دسسنا أيدينا تحت الـ"آستك" لنتمكن من الحَكّ جيدًا. غمرنا الحرج كذلك من طريقتنا في الاستلقاء أمام شاشة التليفزيون، ونحن ندخن، رافعين أقدامنا التي تنبعث منها رائحة العرق فوق المنضدة. شعرنا بالحرج من أرطال اللحم المفروم، التي نستهلكها لرخص ثمنها، ونأكلها نيّةً لأن ذلك أسهل. شعرنا بالحرج من طريقتنا في مدِّ أصابعنا لأخذ حفنات من اللحم ووضعها داخل أفواهنا، قبل أن نسكب وراءها رشفاتٍ من بقايا القهوة الباردة، التي ظلت في أكوابها الكبيرة منذ اليوم السابق. شعرنا بالحرج من الديدان التي عانينا منها داخل أجسادنا، بسبب اللحم النِيِّء، دون أن نفكِّر في علاج المسألة. شعرنا بالحرج من طريقتنا في إطلاق الغازات، وكأننا قادة فرقةٍ موسيقية. شعرنا بالحرج من تجشُّؤنا، دون محاولة السيطرة على ذلك. شعرنا بالحرج من أشياءَ كثيرةٍ: من سبابنا الدائم، وشعر العانة المتساقط فوق المرحاض، وأظافر أقدامنا التي نقطعها بأصابعنا ونتركها مُلقاةً على السجادة لأشهرٍ كاملة. شعرنا بالحرج من السجائر المتدلية من أفواهنا، حين يهاجمنا النعاس ونحن في مقاعدنا؛ ومن أسناننا التي تغطِّيها بقع النيكوتين، ورائحة البيرة التي تنبعث منَّا. شعرنا بالحرج من العاهرات اللاتي تُفاجَأ جدَّتي بوجودهن صباحًا، واضطرارها الدائم لسؤالهن عن أسمائهن. شعرنا بالحرج من طريقتنا في الغناء عندما نثْمل، ولغتنا البذيئة، وقيئنا، والزيارات المتزايدة من رجال الشُرطة والمُحْضِرَين. شعرنا بالحرج، لكننا لم



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفعل شيئًا حيال أيٍّ من ذلك.

مـرَّت ثلاثـة أسـابيع قبـل أن يظـهر العَمُّ "روبـرت"، زوج عمَّتـي "روزي"، على بابنا، وهو يسأل:

- هل "روزي" هنا؟

أجبناه:

- "روزي"؟ كلَّا. هل يفترَض بها أن تكون هنا؟

اقتحم المنزل بكتفيه العريضين، وجَرَّ عمّتي "روزي" من شعرها، وركلها ليدخلها سيارته. ركبت ابنة عمَّتي السيارة، وجلست في المقعد الخلفي وهي تبكي، واختفت من حياتي حتى الجنازة التالية. كنَّا سندمِّر العمَّ "روبرت"، لا شكَّ في ذلك. يُفضَّل أن يتم ذلك ببطءٍ شديد، مستخدمين سكِّينًا. أقسمنا أن أول من سيصاب منَّا بمرض السرطان، هو الذي سيحظى بهذا الشرف، ذلك أن السرطان يكمن في انتظارنا جميعًا. كان "الشَرِّيب الأعظم" قد قدَّم لنا نموذجًا للرحيل بأناقة. اجتمعت آراؤنا على أن بلوغ سن الستين دليلٌ على البرجوازية. ولكن إن كنَّا سنتحدَّث بصراحةٍ، فإنّ علينا الاعتراف بأننا أحسسنا بالارتياح لمغادرة عمَّتي "روزي" وابنتها "سيلفي" للبيت، أخيرًا. كان وجودهما مزعجًا للغاية.

لا ينبغي أن يكون الوجود التَعِس معقَّدًا. شاهدتْ "سيلفي" أبي وأعمامي على مائدة الإفطار، وقت الظهيرة، بعد انتهائهم من تدخين سجائرهم. يلتهمون اللحم المفروم والسردين المعلَّب، لإزالة آثار السُكْر المتبقية من الليلة الماضية. يتساقط الزيت اللَّزج، الذي كان السردين يعوم فيه، فوق ذقونهم، إلى أن يمسحونه بأكمام كنزاتهم الصوفية المهترئة، هذا إن كان لديهم طاقةٌ لفعل ذلك. بعدها، يختفون من المنزل، ويعودون إليه سُكَارى عقب ساعاتٍ طويلة. يصف البعض هذا الوضع بـ"الحلزونيّ"، لكننا كُنَّا نراه "دورة".

كي تتجنَّب والدها، تغيبت "سيلفي" عن المدرسة طوال الأسابيع الثلاثة التي قضتها عندنا. راقبتني وأنا أدرس وأكتب بفتور، فوق



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منضدة المطبخ القذرة، بينما راحت تقرأ كتبًا تجعلها أكثر ذكاءً وفصاحة، وتسهم تدريجيًا في اتساع الهوة بينها وبقية أفراد العائلة. في السرير، كنتُ أشعر بما تفكّر فيه، وهي تستلقي إلى جواري، مستيقظةً، تحدّق في السقف، وتستمع إلى شخير أبي، الذي كان يغطُّ في النوم إثر شُربه، فاتحًا فمه، وهو لا يزال مرتديًا جوربيه. إمَّا ذلك، وإمَّا أن تستمع إلى عمّي "جيردر" وهو يكزُّ على أسنانه. كيف لها أن تشعر بشيءٍ سوى الاشمئزاز، وهي ترى ثيابنا المكوَّمة على الأرض، في انتظار أن تجمعها جَدَّتي لتغسلها؟ لا أدري ما الذي كانت تجده الأسوأ: الأعقاب البُنِّية للسجائر في المطفأة المجاورة للسرير، أم بُقَع العَرَق على الملاءات، أم جوارب أبي؟ لم تقل كلمة. وددتُ لو أنها تحدّثت معي بشأن معيشتنا. أن تنتحي بي جانبًا، لنتكلم كأبناء عمومة. لم تقل كلمة، ونظرت إلينا باستعلاء.

- هل بإمكانك يا صغيري أن تصطحب "سيلفي" للتمشية في أيِّ وقت؟ لقد صارت شديدة الشحوب لجلوسها بالداخل طوال الوقت.

أين يفترض بي أن آخذها؟ كانت ترفض التحدُّث معي، وتنظر إليَّ باحتقارٍ حين أنظّف أذنيَّ من الشَّمع العالق بداخلهما، مستخدمًا طرف قلمي الحبر الجافِّ، بقوّةٍ وبعنف. ربَّما كانوا يستخدمون أعواد القطن الخاصَّة بتنظيف الآذان في "بروكسل". ما أهمية ذلك؟ لو سألتموني، لقلتُ بأنه توجَّب عليها إظهار بعض الامتنان تجاه حفاوتنا. على كل حال، ليس في بلدتنا ما يسلِّي بنتًا مدللةً مثلها. ربَّما كانت ستستمتع باهتمام أصدقائي في فترات استراحتهم من تسخين الدراجات البخارية المسروقة، لكن ذلك ما كان سيعجب عمَّتي "روزي". أصدقائي منحرفون. ستتيح لي إعارتهم ابنة عمَّتي سببًا كافيًا لابتزازهم لاحقًا، لكنني كنتُ شريفًا أكثر من اللازم. سأفخر بهذه الفتاة الصامتة، المتكبرة، ما إن أخطو خارج باب المنزل معها. سوف أهتمُّ بها. على الناس أن يفكِّروا جيّدًا قبل أن يتفوهوا بتعليقٍ ساخرٍ على تصرفاتها المتحفظة. ولكن ما الذي ينبغي عليَّ فعله معها؟ هل أصحبها



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للتمشية؟ وهكذا يمكننا التحدُّث معًا أثناء سيرنا عن الأشياء التي نرغب في تحقيقها خلال حياتنا. أو عن الهوايات التي نمارسها. كيف هي أوضاعنا في المدرسة؟

اقتـرح أبـي اصـطحاب "سيلفي" إلـى الحانـة. وقوبـل اقتراحـه بـاعتراضٍ مـن عمَّتـي "روزي". لكنـها عنـدما لاحظـت أن شحوب ابنتها آخذ في الازدياد، سألته:

- إلى أيِّ حانةٍ ستأخذها؟

- "نُوك" أو "سوشال".. أيّ شيء.

- هل سيكون "آندريه" هناك؟

- كيف لي أن أعلم إن كان "آندريه" سيكون موجودًا هناك؟

أضاف متهكمًا:

- هل شاهدتيني أستخدم بلُّورتي السِحرية أخيرًا ؟

- ستكون حَذِرًا، أليس كذلك؟ ولن تتأخر كثيرًا؟

- ما رأيكِ يا "سيلفي"؟ هل ترغبين في الخروج مع الخال "بيير" من باب التغيير؟

ضـايقني أننـا حـين نتحـدّث إلى البنت، نحـاول فجأةً أن نصبح محترمين. أنا أيضًا كنت أفعل ذلك. هناك شيءٌ ما في نظراتها، يدفعك لذلك.

أومأت "سيلفي" برأسها، وارتدت معطفها.

- "روزي"، لمَ لا تأتين معنا يا حلوة؟ أعرف بعض الناس الذين سيسعدون لرؤيتك. سيفيدكِ بعض الهواء الطلق.

لكن عمَّتي "روزي" لم تكن ترغب في ذلك.

- ماذا عنكَ يا "جيردر"؟ هل ستأتي لبعض البيرة؟

قال "جيرردر"



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- "إسحق نيوتن"!

- ماذا؟

- "إسحق، ابن الحرام، نيوتن". أؤكّد لك.

كان "جيردر" مستلقيًا، رافعًا قدميه، وهو يتابع برنامج مسابقات.

"أعتذر عن اضطراري لتصحيح خطئك، سيِّد" بيترز"، لكن الإجابة الصحيحة على هذا السؤال هي إسحق نيوتن".

- يا للمفاجأة؟ أنتَ حقًا لستَ بالغباء الذي يوحي به شكلك!

- الحلقة مُعادة، يا أحمق. انتظر. سآتي معكم.

لم يكن لدينا سببٌ معيّنٌ يجعلنا نختار "نُوك"، تلك الليلة، فالحانات في بلدتنا متشابهة. المقاعد والمناضد فيها جميعًا رخيصةٌ وبسيطة التصميم، لأنها ستتحطّم خلال الشجارات التي تبدأ لسببٍ ينساه الجميع على الفور، وتنتهي قبل أن يفيق طرفا المشاجرة من سَكرتهم. لجميع الحانات جهاز موسيقى بأسطواناتٍ تجلب الدموع لأعيننا، رغم أن أحدًا لا يشغلها عدا هذه الأماكن. "روي أوربيسون" هو أعظم مغني في التاريخ. ليس في الماضي والحاضر فقط، وإنما في المستقبل كذلك. المستقبل الذي لا يحمل لنا شيئًا جيدًا، على الأغلب. ليس هناك أجمل من بكائك وأنت تشرب البيرة الأخيرة لتلك الليلة، بينما تكنس صاحبة الحانة الزجاج المكسور، وتجمعه في الجاروف، فيما ينبعث من جهاز الموسيقى صوت "روي أوربيسون". بعدها، تتوسل لصاحبة المكان كي تعطيك بيرةً إضافية. الأخيرة. الأخيرة حقًّا. بعدها سنغادر إلى المنزل ونتركها في سلام، لتغلق أبوابها. سنكون أول من يحضر في اليوم التالي.

الفرق بين الحانات يكمن في تفاصيل صغيرةٍ للغاية؛ والأمر الذي يتحكم في اختياراتنا بينها، عادةً، هو كَمُّ ديوننا فيها والفواتير غير المدفوعة لأصحابها، والذين كنّا نخشى مواجهتهم، فنضطر إلى الاقتصاد وادِّخار ما يكفي لتسوية ديوننا معهم. ومن بيننا



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميعًا، كان أبي هو الوحيد الذي يمتلك وظيفةً ثابتة، حيث يعمل في مكتب البريد. لكنه كان، هو أيضًا، يتعرَّض لمشكلات تسديد فواتير الحانات، التي تصل قيمة بعضها لما يساوي أجره لعدَّة أسابيع.

تدير حانة "نُوك" امرأةٌ لديها توأم من الأقزام، اختفى أبوهما سريعًا، عقب ولادتهما، ولم يسمع أحدٌ عنه أيَّ خبرٍ منذ ذلك الوقت. امرأةٌ بمفردها، لديها توأمٌ متطابق. ابنتان مشوَّهتان. تعاني من وطأة ديونٍ عديدة بعدما وضعتْ مالًا كثيرًا لتأسيس حانتها. يشرب الناس كثيرًا، وذلك مصدرٌ مضمونٌ للدخل على الأقل. حين التحقت القَزَمَتان بالمدرسة، وازدادت مصروفاتهما بشدَّة، لجأتْ إلى كسب مالٍ إضافيٍ عن طريق الوسائل التي تمتلكها النساء. لسوء الحظ، أدَّى ذلك إلى تلطيخ سُمعة حانتها، وبدأت الزوجات في التشاجر مع أزواجهن عند عودتهم من "نُوك". كبرت البنتان داخل الحانة. تلعبان بالدمى تحت منضدة البلياردو، وصنعتا دُكَّانًا تبيعان فيه قواعد أكواب البيرة، بالإضافة إلى الفاكهة البلاستيكية التي تظهر على الواجهة الزجاجية للعبة الـ"فليبر". كانتا ترهنان دُماهما لدى الزبائن الطيِّبين لأمهما. تعلمتا اللغة البذيئة التي يستخدمها الرجال الذين يمضون لياليهم هناك. ببلوغهما سِن العاشرة، صار كلامهما أكثر فُحشًا، وأصبحتا ترددان النكت الإباحية، لتسلية الزبائن. ببلوغهما الثانية عشرة - حين توقف نموهما - واجهتا مشكلة إدمان الكحوليات الناتجة عن اعتيادهما شُرب بقايا الكؤوس، للتخفيف من عبء غسلها عن أمّهما.

في تلك الأيام، وفي بلدةٍ مجاورة، كانت هناك حانةٌ شهيرةٌ تُسمَّى "جوت" أو الماعز، لامتلاك صاحبها تيسًا مُسِنًّا. ومقابل مبلغٍ ماليٍ مرتفع، ولبهجة الزبائن الذين يكادون يموتون من كثرة الضحك، يتمُّ إحضار التيس من الحظيرة، وجعله يشرب بيرةً قوية، إلى أن يشعر بالغضب والانزعاج، ويبدأ في الترنُّح وإسقاط المقاعد، في محاولاته للعودة إلى فراش القش اللبِّن داخل الحظيرة للنوم. من المعقول أن يكون هذا هو ما أوحى لصاحبة "نُوك" بتقديم الخمور



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لابنتيها؛ لكن في مرحلةٍ ما، بدأت القَزَمَتان في تشجيع إحداهما الأخرى على الشُرب تحت الطاولة. تَراهَن الزبائن، بمبالغ خيالية، على مَن منهما ستبقى متيقظةً لفترةٍ أطول من الثانية.

قبل وقتٍ طويلٍ من اصطحابنا "سيلفي" لحانة "نوك"، اكتشفت القَزَمَتان التوأم بأنهما تعانيان منذ الولادة من مرضٍ باسمٍ معقَّد، يصعب تذكُّره، يستحيل معه تجاوزهما لسِن العشرين. سبَّب لهما هذا الاكتشاف عدم اتزانٍ واضح، جعلهما تصمّمان على تعويض ما سيفوتهما من حياتهما. صارتا تشربان أكثر ممَّا مضى. في بضع مرَّات، قفزتا فوق المناضد اللَّزجة، في حالة سُكْرٍ واضحة، ورفعتا تنانيرهما أمام الزبائن المُمتَنِّين، الذين راحوا يحملقون في المهبلين الصغيرين، بمزيجٍ من التقزز والافتتان. تساءلتُ إن كان ينبغي عليَّ تأهيل "سيلفي" للمناظر التي سوف تراها، فلا بُدَّ أنهما ستقومان بإعداد شيءٍ لتسليتنا. وهو من الأمور اليقينية في حياتنا، وهو أيضًا رفاهيتنا الوحيدة.

حين عبرنا الباب، استقبلتنا أجواءٌ كئيبةٌ ومألوفة. بإمكانك أن تراهن بحياتك على أن الرجال الجالسين حول البار كانوا يثرثرون طوال الوقت عن الزوجات الساخطات والطلاق والنفقة، وهي أمورٌ شائعةٌ هنا، تمامًا كالحديث عن الجوِّ في أيِّ مكانٍ آخر. رجلان يلعبان البلياردو، دون أدنى طموح للفوز. أربعة رجالٍ مُسِنِّين حول طاولة الـ"كوتشينة"، يلعبون بتركيزٍ وتفكيرٍ عميقٍ في المستقبل الذي يحملونه بين أصابعهم المرتجفة. بقية الزبائن يشربون بصبرٍ ودأبٍ، يستحيل معهما التفرقة بين السعادة والتعاسة.

- الجولة الأولى على حسابي!

كانت تلك هي العبارة التي يستهلُّ بها أبي دخوله أيَّ حانة. دوّنت القَزَمَتان طلباته، ومرَّرتا الورقة لأمّهما، التي كانت مشغولةً بالسماح لـ"جيردر" باعتصار مؤخرتها، كنوعٍ من التحيّة بينهما. لمحتُ الارتياب على وجه "سيلفي" وهي تراقب دمها ولحمها وهو يعيث بجسد صاحبة الحانة. بعد فترة، احمرّ وجهها أخيرًا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت تشرب ليمونادة لايت، وصفتها بأنها "خالية من السُكَّر". وبما أنني كنتُ أتدرَّب لأصبح رجلًا يرتاد الحانات من نوعية "نُوك"، فقد طلب لي أبي "ديزل"، وهو الاسم الذي أطلقناه على مزيج البيرة والكولا. ظنًا بأنني لا أزال صغيرًا على تناول البيرة بمفردها، لكن فتىً في سِنِّي لا يمكنه - في الوقت ذاته - تناول مشروبٍ غازيٍ فقط، إذ إن ذلك مخيِّبٌ للآمال بشدّة.

- أرى أنكم قد أحضرتم معكم عصفورةً، يا شباب، ولكن لو اكتشفت الشُرطة عُمرها الحقيقي فسوف تدفعون ثمنًا باهظًا.

كان ذلك "آندريه"، الذي راح ينظر إلى "سيلفي" بطريقةٍ غير لائقة.

- إنها من العائلة يا "آندريه". هذه العصفورة هي "سيلفي".

- "سيلفي"؟ أنت لا تقصد أنها ابنة أختك "روزي"؟

- هي ذاتها.

- يا للمسيح! إنها بنتٌ جميلة.

نزل "آندريه" من فوق مقعد البار المرتفع، ليصافح ابنة عمَّتي، بتهذيبٍ بالغ. لثم ظاهر يدها، ومنحها ابتسامةً آسِرة، أظهرت أسنانه السوداء المتهاوية. التفتَ نحوي قائلًا:

- "ديمي"، لا بدَّ أنك تعاني من صعوبةٍ بنت حرامٍ يا بُنيَّ لعدم لمس ابنة عمَّتك.

كانت أنفاسه كريهة الرائحة، لكن ذلك لم يكن مفاجئًا، وقد استعددتُ لاستقبال الأبخرة العفنة المنبعثة من فمه. ضحك الناس. رغم تفاهة ملاحظته، إلا إنني شعرتُ بأنهم في انتظار ردٍّ منِّي على "آندريه". التزمتُ الصمت، وجرعتُ الديزل.

- آه، اسمعني، في أيَّامنا قُمنا جميعًا بملامسة أجساد قريباتنا، بين الحين والآخر.

حين تجاهلتُ الردَّ عليه، أضاف:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنت مُحِقٌّ في عدم الرد.

حان موعد الجولة التالية من المشروبات. صارت عمَّتي "روزي" هي موضوع النقاش الثاني، فبعد أن سمع الناس أن هناك من لمحها في "آرسينديجيم"، وها نحن نجلس هنا مع ابنتها، بات من المستحيل الاعتقاد بعدم صحَّة الشائعات. حاصرنا الزبائن الآخرون بأسئلتهم، بُغْيةَ الحصول على التفاصيل، لكننا التزمنا الصمت. أنصتنا بشيءٍ من الاستمتاع لنظرياتٍ مختلفة، وكل واحدةٍ منها أكثر غرابةً من سابقتها، لكنها تُظهِر أنَّ عودة عمَّتي "روزي" إلى "آرسينديجيم" كانت سببًا كافيًا لعودة الروح إلى مشاعر ماتت في بلدتنا. ولمَّا فَشِلوا في اقتناص كلمةٍ مفيدةٍ من أيٍّ مِنَّا حول هذا الموضوع، عاد الاهتمام لينصبَّ على "سيلفي" من جديد. كرَّر "آندريه" كل دقيقةٍ بأنها بنتٌ جميلة، وأنها إلهةٌ في طور التكوين. تمعَّن الناس في وجهها المثالي، بحثًا عن ملامح ورثتها عن أمِّها. ما أثار دهشتي هو أن الاهتمام المنصبَّ عليها من كل أولئك الرجال الذين يتَّصفون بالخشونة والفظاظة لم يُشعِرها بالانزعاج. على العكس من ذلك، أبدت تعاطفًا طبيعيًا تجاههم، وظلت تضحك على كل تعليقٍ يتفوّه به "آندريه"، الذي تزايد سُكره، والذي ظل يشرب ويدعو الآخرين إلى تناول المزيد على حسابه بطريقةٍ لا ينافسه فيها سوى أبي وأعمامي.

أعلن "آندريه"، موجهًا كلامه إلى "سيلفي" تحديدًا:

- سأريكم كيف أتغوَّط هذه الأيام!

رفع قميصه الرَثَّ، مُظهِرًا جذعه الذي يغطّيه الشَعر والندوب المتكتلة. كان السرطان قد هاجم أمعاءه، وكي يتمكن من التخلّص من فضلاته، تمَّ تزويده بكيسٍ للغائط. اكتشف وجوده ذات يوم، وأصيب بدهشةٍ بالغةٍ عندما رآه وهو يستيقظ فوق طاولة العمليات. لم يعد مضطرًا للجلوس فوق المرحاض ثانيةً. صارت فضلاته تتسرب مباشرةً إلى الكيس المتدلي من بطنه الكبير.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظرنا. راقبنا برازه وهو يتسرَّب إلى الكيس ببطء، وكأن برازه يمرّ في أنبوب مُخبَّأٍ عميقًا بداخله، وكأن هناك مَن يضع قدمه ويرفعها عن الأنبوب. غائطٌ ليّن، تغطيه الرغوات. حدَّقت ابنة عمّتي في التسرُّب البُنِّي داخل كيس "آندريه"، وكأنها تجلس في مقعدٍ بالصف الأمامي، تتابع تجربةً عِلميةً مثيرة. كان اهتمامها ملائمًا، وبخاصَّةٍ أن العرض كان يُقَدَّم لها خصّيصًا. كان الجميع يعلم بأن "آندريه" لن يعيش حتى المهرجان السنوي القادم. أُعجِبنا جميعًا بالبساطة التي كان يجمع بها بلغمه ويبصقه على وجه الموت. سوف يتوفى محتفظًا بمرحه، وهو يرقص على إيقاع موته.

- وهكذا، انتهت أيام تغوُّطي في الحمَّام. كل ما أحتاج فعله الآن هو سكب هذا داخل المرحاض.

تجرَّع كوبًا كاملًا من البيرة. استطرد قائلًا:

- ليست لديكم فكرةٌ عن المبلغ الذي أوفره شهريًا، منذ توقفت عن شراء مناديل الحمَّام الورقية!

كانت دعابةً سوداويةً، نجحت في دغدغة "سيلفي"، التي استجابت لها بابتسامةٍ عريضةٍ أظهرت أسنانها ناصعة البياض. ابتسامةٌ لم نرَ مثلها هنا من قبل، مطلقًا.

- جولةٌ جديدة من المشروبات!

كُتِبَ الكثير، وقيل أكثر، عن شخصية الأقزام، وهو جدل أفضِّل عدم الخوض فيه، لكن سلوك التوأم ضئيل الحجم في "نُوك" تلك الليلة، تجاوز حدود الوقاحة بكثير. لم تتمكنا من تقبُّل فكرة أن تحظى فتاةٌ غريبةٌ بكل الاهتمام، وأن تنال إطراءً متواصلًا على جمالها غير الاعتيادي. بطبيعة الحال، ليس هناك عدلٌ في توزيع الأشياء في الحياة. إنهما دميمتان، وقُدِّر لهما أن تموتا مُبكِّرًا. ليس لأحدٍ أن يختار جسده. لم تكن لابنة عمَّتي يدٌ في ذلك. لكن القَزَمَتان شعرتا بالغيظ والغيرة، فأخذتا تضربان تحت الحزام، مُشيرتين إلى أن البَتُّوتة ذات الوجه اللطيف ربَّما كانت تضحك على نكاتنا وتتظاهر بمحبَّتنا، لكنها تحتقرنا في داخلها. لو تمعنتم



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في عينيها جيدًا، لرأيتم الازدراء في نظراتها لنا. انظروا فقط إلى قميصها، وتساءلوا عن سعره. ألم نلحظ أنها ترتشف الليمونادة، مشروب المتزمتين؟ وليس أيَّ ليمونادة، بل النوع الـ"لايت" الملعون، الخالي من السُكَّر! هل هناك شيءٌ أكثر انطوائيةً وعدوانيةً من هذا؟ هذه البنت الجميلة، تحاول جاهدةً - وبوضوحٍ بالغ يمكن رؤيته أصلًا - أن تترفع عن عائلتها ذاتها، وفعل كل ما بوسعها حتى لا تكون من آل "فيرهولست".

لا نضرب الأقزام. كنا ندرك ذلك جيدًا. لا أحد في بلدتنا يرفع يده على تلك الفتاتين، ولا حتى "جيردر" نفسه. لكنهما تهاجمان قانوننا الأخلاقي هذه المرَّة، شعرنا برغبةٍ مُلِحَّةٍ في معاقبتها. في بعض الأحيان، كنا نضرب بعضنا، ولكن عند مواجهة الأغراب فإنّ فرد الـ"فيرهولست" يقف بجانب أيِّ "فيرهولست" آخر. دائمًا وأبدًا، وفي أيِّ مكان.

حَلَّ صمتٌ مزعج. أدرك الجميع في الحانة بأن على ابنة عمَّتي أن تتصرَّف. أن تثبت أنها واحدةٌ مِنّا، من عائلتنا وعشيرتنا، وأنها تتمسك بعاداتنا. أنها جزءٌ من القبيلة. وأنها ليست هنا من أجل تسليةٍ رخيصة، ومراقبة آلامنا باستمتاع، فأكثر ما نكرهه هنا هو التلصص.

تحولث منضدتنا إلى هدف. عبثت القَزَمَتان بشرف عائلة "سيلفي"، وهما تدركان جيدًا أن كلامهما صحيح، وأنَّ لا صِلة حقيقيةً تربط "سيلفي" بنا. الأكثر من ذلك أن ابنة عمَّتي تحمل اسم عائلة والدها، ولذلك فإنها فِعليًا ليست من آل "فيرهولست" بتاتًا.

- خالي "بيير"، هل لي ببيرة؟

أغلب الظن، أن أبي كان سيجد المسألة أسهل لو أن "سيلفي" توجهت بطلبها هذا إلى "جيردر". لكنه هو من يحمل عبء المسألة على كتفيه، وهو مَن قطع وعدًا لعمَّتي "روزي" بإعادة ابنتها إلى المنزل في أحسن حال.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا تسمحي لهما باستفزازكِ يا "سيلفي". تجاهليهما فقط.

لكن هذا لم يكن ردًّا على سؤالها. لقد طلبت أن تشرب بيرة.

نالت البيرة التي طلبتها. الأولى في حياتها. لم تكن لديها فكرةٌ عن مذاق هذا المشروب الذي له لون البول، لكن رائحته المنبعثة من حجرة نومنا لم تجعل توقعاتها عالية. فردت ظهرها، واتخذت وضعًا مسرحيًا، وهي تضع إحدى يديها على جانب ردفها (وهي في ذلك تقلِّد أبي، الذي يتخذ الوضعية ذاتها عند شُربه، فذلك يسهِّل عليه إلقاء رأسه للخلف، وفتح حلقه) ثم جرعت الكوب مرّةً واحدة. أعادت الكوب إلى سطح المنضدة، بحركةٍ ذكوريةٍ قوية - تتشبَّه هذه المرَّة بـ"جيردر" - وقد امتلأت عيناها بالدموع والتوى فمها. بدت كمن ازدرد للتوِّ كيسًا كاملًا من حلوى الليمون. عقب الرشفة الأولى من البيرة، لا يصدُق أحدٌ غالبًا بأنه سيعبُّ هذا الشيء عبًّا، بكمياتٍ كبيرةٍ مستقبلًا. كنتُ شبه متيقنٍ من أن "سيلفي" اقتنعت فجأةً بأننا مجانين فعلًا، لصَبِّنا كمياتٍ هائلةٍ من هذه القذارة داخل حناجرنا يوميًا.

أحسَّ "آندريه" بسعادةٍ بالغة. لقد اكتملت متعته لهذه الليلة للتوِّ. لكن "سيلفي" تعرّضت للتحدِّي، وقررت أن تخضع له بالكامل، ولذلك قالت على الفور:

- أعطوني واحدةً أخرى!

لم يشرب أحدٌ قطرةً واحدةً من الـ"كوكا كولا" أو الليمونادة ما تبقى من الليل. لا "سيلفي"، ولا أنا. لم يكن التوأم من النوع الذي يقبل الهزيمة بروحٍ رياضية، ولذلك انسحبتا متأففتين إلى غرفتهما، حيث لم يَغمض لهما جفنٌ دون أدنى شك. قرَّر "آندريه" تحويل ابنة عمَّتي إلى "شيءٍ حقيقي"، فأخذ يحفِّظها بعض الأغنيات التي اعتدنا ترديدها. تكوَّن بعضها من خمسة عشر بيتًا شِعريًا. أفكِّر الآن فيما إذا كان هناك مَن لا يزال يتذكَّر بيتًا كاملًا منها. امتلأت الأغنية بكلماتٍ بذيئة، بترتيبٍ أبجديٍ يشمل جميع الحروف. وقفت ابنة عمَّتي القاصر فوق طاولة البلياردو، وراحت تغنّي أغنياتٍ تفيض بتلميحاتٍ جنسية، بلهجةٍ لا تناسبها مطلقًا.



9%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملأنا ذلك بسعادةٍ بسيطةٍ وصافية، فاندفعنا نطلب جولةً جديدةً من المشروبات، احتفالًا بها. اشتركنا جميعًا في ترديد كل الأغنيات المنحرفة التي يبدؤها "آندريه".

انتهت تلك الليلة. وفي طريق عودتنا الطويل إلى البيت، توليتُ إسناد ابنة عمَّتي، فيما قام أبي وعمِّي "جيردر" بالاتِّكاء أحدهما على الآخر. واصلنا الغناء، لأننا لم نتقبَّل فكرة انتهاء حفلٍ آخَر. قمنا بسَبِّ الزوجات والأمّهات اللاتي تدلين من نوافذهن وهن يسألننا بانزعاجٍ إن كنا ندرك في أيَّة ساعةٍ نحن. خلَّفنا وراءنا العديد من الكلاب التي راحت تنبح، وصناديق القمامة التي سقطت في الطرقات. وبعض البول، الذي صوَّبه "جيردر" بمهارةٍ نحو حوض زهور. في "آرسينديجيم"، ليس هناك أدنى أملٍ في أن تعيش شجرةٌ من المخروطيات لمدّةٍ تتجاوز السنتين، وبخاصَّةٍ إن كانت في طريق حانةٍ جيّدة، ذلك أن جميع رجال عائلتنا سيتبولون عليها. المخروطيات لا تحبُّ ذلك.

- أريد أن أعمل "بي بي"، أنا أيضًا.

لم نكن "نعمل بي بي" أبدًا. كنّا "نتبوَّل".

- "سيلفي" يا حلوتي، ألا يمكنك تحمُّل ذلك إلى أن نعود إلى البيت؟

كانت مضطرةً للتبوُّل. لم نكن قلقين من فكرة إنزالها لبنطلونها الجينز في الشارع، ففي هذا الوقت المتأخر من الليل، كان كل من يمكنه التعليق على الأمر، يغطُّ في النوم منذ ساعات. المشكلة الحقيقية هي أن "سيلفي" فقدت السيطرة على جسمها تمامًا، وكانت تتدلى من كتفي كجوالٍ من الرمل منذ الميل الأخير على الأقل. سقطت في اللحظة التي وقفت فيها على قدميها. كان علينا أن نساعدها إذًا، إذا أردنا ألّا تبلِّل حذاءها وساقيها. أخذ أبي يسبُّ ويلعن، فيما فشل عمِّي "جيردر" في التوقف عن الضحك، وهو يستند إلى واجهة أحد المنازل.

- انظروا إلينا! عائلة "فيرهولست" تقتحم البلدة!



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ساعد ابنة عمَّتك يا ولد!

كان بإمكانها إنزال الجينز بمفردها، لكنها كانت بحاجةٍ للمساعدة في فتح الزر. أمسكتُ بها بقوّةٍ من أسفل إبطيها، فيما جلست وقد ثَنَت ركبتيها. ألقت بثقل جسدها عليَّ بالكامل. أنصتنا بارتياح إلى انسياب بولها على حجارة الطريق. تشاغلتُ بالتفكير في وداع "آندريه" لابنة عمَّتي. استأذنها في منحها قبلةً على الخد، فأبدت موافقتها. كان اللقاء بها هديةً من السماء. لقد أمضى في صحبتها أمسيةً رائعة، وأخبرها بأنه سيموت الآن في سلام. كان حديثه ناتجًا عن الخمر، لكنه كان جميلًا على كل حال.

أغفت "سيلفي" خلال تبولها الطويل، والذي بدا أنه لن ينتهي أبدًا. بدأ أبي يشعر بالتوتر، وهو يفكر في الكيفية التي سيفسِّر فيها لعمَّتي "روزي" سبب الحالة الفظيعة التي وصلت إليها ابنتها. كلَّما اقتربنا من المنزل، صرنا أكثر هدوءًا. كنَّا قد أوشكنا على الوصول، لكن ذلك لم يبهجنا.

كانت عمَّتي "روزي" في انتظارنا، وهي تلبس "روب" منزليًا، بعينين حمراوين ومنتفختين.

- أين كنتم؟ ألم يخطر ببالكم بأنني هنا أعاني من قلقٍ شديد؟

كُنَّا آسفين. آسفون على كل شيء. على حياتنا بأكملها.. كعادتنا.

- وأنتِ يا "سيلفي"، لا بدَّ أنكِ فخورةٌ بنفسك أيضًا؟

أجابتها "سيلفي":

- عصر المعجزات لم ينتهِ بعد.

- ماذا؟

- عصر المعجزات لم ينتهِ بعد. الجوُّ جافٌّ، والكرز لديَّ رطبٌ ونَديّ.

كان هذا مقطعًا من إحدى أكثر الأغنيات التي تعلَّمتها تلك الليلة قذارة. لكنها أغنيةٌ شائعةٌ جدًّا اسمها "أغنية قاطف الكرز" وتتكون

10%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من اثني عشر بيتًا. أصيبت عمَّتي "روزي" بصدمةٍ بالغة، جعلتها ترفع يدها وتصفعها. خلَّفت أصابعها أثرًا على وجه ابنتها ذات التربية المحترمة، التي كانت على درجةٍ بالغةٍ من السُكْر، منعتها من البكاء. حملها "جيردر" إلى الطابق العلوي، ووضعها في الفراش بملابسها.

- بربِّكِ يا "روزي"! لِمَ ضربتِ الفتاة المسكينة؟ ما العيب في "أغنية قاطف الكرز"؟ لقد حفظتْ خمسة أبيات منها، على يد "آندريه".

- "آندريه"؟ هل رأيتم "آندريه"؟

لم ننطق كلمةٍ واحدة.

- هل رأته "سيلفي"؟ هل تحدَّثت معه؟

لم نقل شيئًا.

- سألتكم سؤالًا!

التزمنا الصمت تمامًا.

- هل تعرف بأن "آندريه" هو والدها؟

- كلا!

- هل أنتم متأكِّدون؟

- "روزي"، نحن متأكدون بالطبع. ليس لدى "سيلفي" أدنى فكرةٍ أن "آندريه" هو والدها؛ ولو أننا أخبرناها، ما كانت ستصدقنا على الأرجح.

- "ديميتري"، إذا أخبرتَ "سيلفي" بما سمعته للتوِّ، فسوف أقتلع عينيك. هل تسمعني؟

- نعم عمَّتي "روزي".

فاضت مشاعرنا بالشفقة حين قام العمُّ "روبرت" بركل زوجته وإدخالها سيارته عَنْوةً، وأجلس ابنته المزعومة على الأريكة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخلفية. لكننا كنَّا نؤمن بعدم التدخُّل في الشؤون العائلية لأيِّ شخص، وتركنا الأمور تأخذ مجراها، ونحن نتحرَّق لمعاقبته. الجنازة التالية التي سأقابل فيها ابنة عمَّتي المتباعدة ثانيةً، هي جنازة أبي. ستة أقدامٍ تحت الأرض، في يوم جمعة.

Download from
Dreamstime.com



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 2- بركة الغرقى

كانت "باميير" نموذجًا مِثاليًا لعروس البحر: نحيلةً، وتنبعث منها رائحة سمك. لم نكن نعرف عُمرها إلَّا تخمينًا، ولكن، لو أنَّ موظفًا من الحكومة ظهر ليخبرنا بأنها أتمَّت مائة سنة، لصدَّقناه على الفور. هناك شخصٌ هنا أو هناك يتذكَّر زوجها. مزارعٌ تبنَّى سلوك حيواناته. تفرَّق الأبناء الناتجين عن تزاوج هذين الوَحشين بعيدًا. بالتفكير في عُمر هؤلاء الأبناء الآن، من المحتمل أن يكونوا قد ماتوا، أو أنهم في دُورٍ للمُسِنِّين، يتعمَّدون تلويث الحفاضات بفضلاتهم للفت أنظار إحدى الممرضات، أو كنوعٍ من الاعتراض على اختيار البرنامج التليفزيوني الذي يشاهدونه في الدار.

تتلخص الحكاية المنتشرة عن "باميير" في بلدتنا في أنها أنجبت عددًا أكبر من الأطفال، ممَّا يمكن التحقُّق منه في السِجِلَّات الرسمية، وأنها أغرقت بعض مواليدها في بِركتها. البِركة نفسها التي أحَبَّ بعضنا - بمن في ذلك أنا وعمِّي "جيردر" الذي يكبرني بقليل - السباحة فيها. هناك، حيث كُنَّا نستلقي عرايا، بكَسَلٍ، فوق الطوف العائم، ونحن نقيِّم بعضنا دون مَلَل.

كان أهمُّ ما يميِّزنا هو الكسل. مثلنا في ذلك مثل جميع من هم في عُمرنا، ممَّن يحتاجون إلى طاقتهم كي يكبروا، وكي تنمو



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتظـهر لـدينا بعـض الشُعـيرات المتفرقـة فـي وجوهنـا. كـانت "وينـدي"، ذات الشَعـر المجعَّد، هي أولى الفتيـات اللاتـي حَصَلن عليهما. أعنـي الثديين. خلَّفت ضرباتها في الماء آثارًا مزدوجةً رائعـة، وهـي تسبح علـى ظهرها. كـانت قـد أصبحت الحبيبـة الفخورة بحبيبها؛ عمِّي "جيردر". الحبيبة التي سرقها بسهولة من "ويرنر" الغبي، المتديِّن بشدَّة. اعتدنا أن نراقب ثدييها الصغيرين، متمـهلين، ونتـابع نموَّهمـا، حـين كـانت تتشـمَّس، مستلقيةً علـى ظهرها. في نهاية الأمر، مَن يراقب عن كثب، يمكنه حتى رؤية حركة العقرب الصغير للساعة.

"هيلين" هي الأكثر جمالًا، عندما تخرج من الماء، وتستلقي فوق الألـواح الـدافئة للسـان البحـيرة الخشـبي. ولكـنْ ربَّمـا كـان ذلك ينطبق على جميع الأجساد المبللة التي تلمع في نور الشمس. أظن أننـا هنـاك، فـي بِركـة "باميير"، كنَّا نتخيَّل صوَرًا نموذجيـةً لجنَّةٍ استوائية، أو إعلاناتٍ لـ"شاور جيل"، وأن الأخيرة هي التي أوحت إلينا بتصرُّفاتنا، دون شك. كنَّا نستمتع بفعل شيءٍ يبدو مفتقرًا للِّياقةِ بشكلٍ كبير. فتيان وفتيات يمرحون عرايا. كان ذلك شيئًا يلـيق بـأفريقيا أو الأمـازون، ولكـن بالتأكيـد لـيس بـهذه البـؤرة المتخلِّفة والمُهمَلة. بهذا الاستخفاف بالطبيعة الجغرافية، صنعنا لأنفسنا شبابًا يمكن للرومانسيين وصفه بالنقاء. كُنَّا نطهو أيامنا، متمهلين، لنصنع منها شوربةً مُركَّزةً نقتاتُ عليها في دار المُسِنِّين مستقبلًا. حين لا نحاول العَيش في عوالمَ بعيدةٍ ومستحيلة، كُنا نُذَكِّر بصوَرٍ (كتلك التي يلوِّنها الأطفال) لمراهقين إغريق، ومن "إسبرطة". مُراهقون ذكور، على الأغلب، فكَّرت البنات بنا على ذلك النحو أيضًا، وهن يراقبننا ونحن نتصارع داخل المياه، أو نتشابك فوق اللسان الخشبي في مباريات مصارعةٍ لا نهائية. ومَن مِنَّا لا يرغب في التفكير بنفسه من خلال إطارٍ أوليمبي، حتى لو للحظةٍ فقط؟ جسَّدت "هيلين" صورةً إغريقيةً حقًّا. حتى اسمها أوحى بذلك. أرضعتها الآلهة، وصنعت هي لنفسها سِحرًا وفتنة. كانت الدُنيا مِلْك يديها.

كُنَّا دائـمًا سـبعةً فـي البركـة. رقمٌ مسـيحي، يوحـي بـالاكتمال



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمثالية. أربعة أولادٍ وثلاث بنات. نسبح في الماء، يومًا حارًّا تلو الآخَر، في انتظار السَقطة التي ستضع نهايةً لبراءتنا المتمثلة في وقوفنا على حافة اللسان الخشبي، لنرى مَن مِنَّا يتبوَّل لأبعد نقطة. اعتاد "جونتر"، الذي كان شاعرًا ناشئًا، له شَعرٌ أحمر، أن يؤجِّل عملية التبوُّل حتى آخر لحظةٍ ممكنة، إلى أن ينتفض جسده في ألم. بعدها يرسل قوسًا من البول، بارتياحٍ وانتصار، في اتجاه الضفَّة الأخرى من البِركة. كان متبوِّلًا لا يُقهَر، إلى أن أصيب بالتهابٍ في المثانة، أجبره على تغيير خططه، والتحوُّل إلى متسابقٍ عاديٍ وتقليدي. حافظ على لياقته شتاءً، بإطلاق بوله - الشبيه بالشِعر الحُرِّ الذي يكتبه - على طبقات الثلج المتراكم منذ أسبوع. فضَّلت البنات التبوُّل داخل الماء، وهن يضحكن على مئات الأسماك الصغيرة التي تجتمع حول سيقانهن، لابتلاع العناصر الغذائية التي يحتوي عليها بولهن. وهكذا، تعلَّمنا كيفية اصطياد السمك، خلال أيام الصيف الطويلة، عبر الغوص تحت سيقان البنات، وانتظار أن يتبولن، ثم الإمساك بالسمك المتجمِّع، بأيدينا. نشويه لاحقًا فوق برميلٍ سرقناه من مكانٍ ما. كلما شممتُ رائحة سمكٍ مشوي، تذكرت تلك الأيّام البسيطة. أدركتُ حينها أنني سأفعل ذلك مستقبلًا. بعد التهام السمك، نواصل الاستلقاء على ظهورنا فوق الخشب الدافىء للجِسر، وكأننا أباطرةٌ أو قططًا. غير مهمٍّ لو حدث لنا انتصاب يشبه أزهار "عبَّاد الشمس" في ميلها تجاه الشمس، أم أنها كانت تميل في اتجاه كوكب زُحَل؟ لم نبالِ بنظرات البنات المختلسة، وهي تقارن بيننا، بالبراءة نفسها التي كنا نتلصص بها عليهن.

كلُّ مَن استلقى فوق العشب بصبرٍ مراقبًا وردةً وهي تتفتَّح، أو فراشةً وهي تعلِّق شرنقتها لتبدأ حياةً مختلفةً ومدهشة، سيفهم الدهشة الكونية التي انتابتني وأنا أرى ثديي "هيلين" وهما يرتفعان. شعورٌ تودُّ لو أن بإمكانك الاحتفاظ به داخل برطماناتٍ لتستمتع به لاحقًا، وتتذكره كلما واجهتك مصاعب الحياة. (كم برطمانًا كنتُ سأحتاج إليه حتى الآن؟ هل كان سيتبقى منها شيء؟). نعم. كنتُ أول من رآهما. كلما سردتُ هذه الحكاية على أحدٍ، في مراحل لاحقةٍ من حياتي، رأيت نظرات الناس



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المستنكرة، لظنِّهم باستحالة ذلك، فالأمور التدريجية غير مرئية. ولكن صدِّقوني، يرتفع الثديان فجأة، بصوتٍ كالطقطقة. عليك أن تمتلك أُذنيَ كلبٍ لتسمعه. كانت تستلقي على اللسان الخشبي، كعادتها، وكنتُ أنظر إليها. ليس التحديق الفاجر الذي أتى لاحقًا. كانت نظراتي تستريح عليها ببراءة. وبغتةً، ظهرا. ليس شيئًا كبيرًا. ولكنه أكثر قليلًا من التغيُّر الذي يطرأ علينا نحن الفتيان في ذلك الجزء من أجسامنا. التقطتْ عيناي شامتين صغيرتين توشكان على الارتفاع. اقتربنا جميعًا من "هيلين"، وأمضينا الظهيرة في مراقبة "البداية الأولى للأشياء". صار كل فجرٍ تلى هذا اليوم، أقل قيمةً بالنسبة لي. ولكن حين سمعنا بأنه من المُرَجَّح أن يكون هذا المكان هو الذي أغرقت فيه "باميير" صغارها غير المرغوب فيهم، واكتشفنا أننا أمضينا الصيف بأكمله ونحن نسبح في مياهٍ تختلط بعصارات جثث أولئك المواليد الراقدة في القاع، لم نعد لتلك البِركة ثانيةً، أبدًا.

لم تعد لدى "باميير" حيوانات. كل ما تبقى لها هو بضعة أحصنةٍ وكلبٌ واحد. شاخت الخيول، وعانت الإهمال، وانحصر دورها الوحيد في جَزِّ العشب في أرض صاحبتها. بين الحين والآخر، اعتاد الجيران إلقاء قطعٍ من الخبز لها. في بعض الأحيان، كانت الخيول تقترب من السِلك الشائك الذي تآكله الصدأ كي يربِّت عليها الأطفال بلطف. وهم الأطفال أنفسهم الذين سيكبرون ويعملون في المَجزَر. لم تعد هذه الأحصنة تشكِّل قطع لحمٍ لذيذة، فقد باتت أجسادها منهَكةً للغاية. ما إن تموت "باميير"، ستتحول حيواناتها المُسِنَّة إلى لحومٍ لدى جزَّارٍ ذكي. سوف يقوم بفرمها، واستخدامها في صناعة سجقٍ رديء. لم تعد "باميير" تهتم بحيواناتها، تهملها كما أهملت نفسها تمامًا. نحولها المُفْرِط، وروائحتها العفنة هما أكبر دليلٍ على ذلك. أشارت كل تصرُّفاتها وسلوكياتها إلى رغبتها في الموت. تعاطفنا معها، ولكن لم يكن مسموحًا لها أن تموت، وهو ما زاد من صعوبة الأمر. سوف تقع أرضها بين أيدي سماسرة عقارات، قُساة القلوب، سيقسِّمون أرضها إلى مجموعة أراضٍ صغيرة، ويبيعونها لتحويلها إلى أكواخٍ قبيحة. لاحظنا «المباهاة» التي تعامل بها الوافدون الجدد على

228 دقيقة متبقية 13%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البلدة. أولئك الذين اشتروا العقارات الواقعة في نهاية شارع "كيركفيلد". نصبوا صناديق بريدٍ مبهرجةٍ في حدائقهم الأمامية. زيَّنوها بتماثيل لملائكةٍ صغارٍ مُجَنَّحين. منحوا منازلهم الحجرية أسماءً، كتبوها على لوحاتٍ حديدية، وعلَّقوها على الحوائط الأمامية. إذا رغبنا في الحفاظ على المكان من التحوُّل إلى غاباتٍ أسمنتية، علينا إبقاء "باميير" على قيد الحياة قدر الإمكان. سوف تموت في نهاية الأمر، بطبيعة الحال، مثلها في ذلك مثل الجميع، لكن كل يوم مؤجَّل في وفاتها، هو لصالحنا.

أوكلت إلينا جدَّتي "ماريا" مهمة الترفيه عن "باميير"، عن طريق زيارتها بضعة مرَّات في الأسبوع، والثرثرة معها حول الطقس. إنَّ الحوار حول الموضوعات التافهة، يدفع الناس للتيقظ. من أجل إطالة بقائها عديم المعنى، اعتدنا تسخين بواقي الحساء وتقديمها لها. ذلك الحساء هو ما يطلق عليه الناس هذه الأيّام "محفِّز الطاقة". تسبح على سطحه قطعٌ من الشحم والدهون، أشبه بالعيون؛ كما لو كان الحساء شخصية "آرجوس" صاحب المائة عين.

- هاي "باميير"! أحضرنا لكِ بعض الطعام. الطقس سيئٌ، أليس كذلك؟

- نعم يا صغاري. طقسٌ سيئٌ وفظيع.

لم يكن الجوُّ بمثل هذا الدفء اللطيف، منذ أشهرٍ طويلة، لكن وصفه بالـ"سيئ" كان أسهل على اللسان. واقع الأمر أن ذلك لم يكن بعيدًا عن الحقيقة، فالحرارة تجعل رائحة "باميير" أسوأ بكثير ممَّا هي عليه في الشتاء.

هل وُلِدنا منذ آخر مرّةٍ غيّرت فيها ملابسها الداخلية؟

فور أن ترى الطعام، تغمس أصابعها داخل الحساء، وتنتشل العِظام ذات النخاع، والتي كُنَّا نضيفها لإعطاء نكهة، وللتعويض عن الاستخدام المفرط للكرنب الصغير فيها. تمتصُّ النخاع بقوَّة. ليس هناك أيَّة مفاجأةٍ هنا، فكلُّنا نفعل ذلك، لكنها عقب أن تُنهي



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محتويات طبقها، تستخدم العِظام المجوَّفة لشفط ما تبقى فيها من سوائل قليلة. كان صوت الخشخشة الصادر عن ذلك مُخيفًا، ويجعلنا نتساءل دومًا ما إذا كان صادرًا عن العِظام أم عن رئتيّ "باميير" المتهالكتين.

- هل أنت مستعدٌ لسؤالها يا ولد؟

- كلّا. وأنت؟

كنَّا جميعًا نخشى من توجيه السؤال لها، رغم خضوعنا لتحدِّياتٍ ورهاناتٍ أكبر وأكثر خطورة. لم نكن نفوِّت أيَّة فرصةٍ لإثبات شجاعتنا. كنا جميعًا نرتعب من سؤال "باميير" عمَّا إذا كان ما يردِّده الناس في الحانات عن إغراقها لأطفالها في بِركة الماء، صحيحًا أم لا.

ما الذي يمكن لهذه العجوز أن تفعله بنا؟ تضربنا؟ قليلًا ما غادرت مقعدها أصلًا؛ ربَّما ترسَّب الغائط في ثيابها الداخلية، وهو ما يثقل حركتها ويجعل وقوفها صعبًا. تكفي طاقتها بالكاد لرفع ملعقة الشوربة إلى شفتيها. في بعض الأحيان، كنَّا نضطر لدفع الطعام داخل فمها، بأنفسنا. ما الذي يمكنها فعله بنا؟ يمكنها أن تسبَّنا بقدر ما ترغب، فلن يؤذينا ذلك، لأننا معتادون على الأمر تمامًا، ونشعر بالألفة تجاهه. مع ذلك كلِّه، لم يقم أيٌّ منَّا بتوجيه السؤال لها. لا أنا، ولا "جيردر" - للمفاجأة - رغم أنه كان فتىً كبيرًا في السادسة عشر، ويكاد يكون عضوًا فعَّالًا في عصابات الشوارع. أمسكنا ألسنتنا، واستمعنا إلى الأصوات الصادرة عن قصبتها الهوائية، وتغريدِ عصفور الكناريا في تمريناته الغنائية اليومية. تواصلَ تضاؤل المساحة التي يشغلها ذلك الكائن المُغرِّد، حيث إن "باميير" لم تنظِّف قفصه منذ قرون، وارتفع جبل البراز داخله أعلى فأعلى. يحمل الكناري لقب "ديكي"، اختصارًا لاسم "ديكي بيرد"، وقد تكيَّف مع ظروفه على نحوٍ رائع، فتحوَّل إلى حيوانٍ آكلٍ للّحوم، يتغذَّى على العناكب التي تغزل بيوتها حول قضبان قفصه. تلك البيوت التي تجمع طبقةً كثيفةً من الغبار، الذي يُرى عبر أشعة الشمس المتساقطة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعود خوفنا من "باميير" إلى أيّام طفولتنا المُبكِّرة، حين كان الآباء يهدّدوننا بالحبس في حديقة منزلها، كلما أسأنا التصرُّف. كانت "باميير" ساحرةً شرّيرة، ولذلك تغطي رأسها. ولذلك هي مفرطة النحول والهزال، ورائحتها عطنة. لم نعد نصدِّق موضوع الساحرات الشرِّيرات، لكن شيئًا من رعبنا القديم منها، ظل ملازمًا لنا، واستحال إلى خوفٍ كبيرٍ من كلبتها المخصَّصة للحراسة. كلّما لمحنا "بلوندي"، ارتعدنا وارتشعت ركبنا. لـ"بلوندي" حسابٌ قديمٌ معنا، تتحرَّق لتسويته معنا ما إن تنجح في الفكاك من سلسلتها الغليظة. لا ينبغي التقليل من شأن ذاكرة الكلاب، فهي تشبه ذاكرة الأفيال والثعابين. للحيوانات ذوات الأربع قدرةٌ عاليةٌ على التعرُّف على أعدائها، ولا تستريح إلا بعد تحقيق انتقامها الدموي. كلّما دخلتُ أنا و"جيردر" حديقة المنزل، حاولت الكلبة التخلّص من قيدها والهجوم علينا. في تلك اللحظات فقط، ندرك أن الإيمان بالله يمكن أن يصبح ميزةً أحيانًا، ونبادر بالدعاء أن يظل العمود الأسمنتي - الذي قُيِّدَت إليه الكلبة - ثابتًا. تكشِّر الكلبة عن أنيابها، التي صارت مسوَّسةً وخَرِبة، ولا شكَّ في أنها تسبِّب لها آلامًا رهيبةً غير مُحتَملة. لكن حتى تلك الأنياب غير الحادَّة، ما كانت تضمن لنا ميتةً غير مؤلمةٍ من قِبَل الكلبة؛ بل العكس، فطقمٌ من الأنياب الشابَّة اللامعة سيؤدِّي لوفاتنا بشكلٍ أسرع؛ احتمالاتنا أسوأ بكثير مع أسنان عفنة ومسوّسة. لم تنجح محاولاتنا في اكتساب ودِّها أبدًا. حاولنا ذلك بإلقاء كمياتٍ قليلةٍ من اللحم المفروم أمامها. تواصل نباحها إلى أن نختفي من أمامها، وتمحو رائحة "باميير" الكريهة أيَّ أثرٍ لروائحنا.

كانت "بلوندي" عجوزًا ضعيفة، تفتقر إلى حَدْس الكلاب الذي يتحاكى الناس عنه. لو كانت لـ"بلوندي" حاسَّةٌ سادسةٌ حقًّا، كبقية بني جنسها، لأدركتْ أنَّ لا أحد يحبُّ الكلاب مثلنا. ليس القطط.. تلك الكائنات التي تُعتبر تجسيدًا حيًا لكل ما هو متخلِّف وبغيض، والتي تسير في فرائها ذلك كما لو كان فراء "مينك" باهظ الثمن، وتمضي يومها في الفُجْر والمغازلة! القطط داعراتٌ خائنة. أمَّا الكلاب، فنحبُّها. بعُمق. حتى "بلوندي" نفسها، دون شك. أنثى مسكينةٌ بلا أصل ولا نسب. من سلالة من العُمَّال الصناعيين؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذين تميّزوا في صيد الجرذان وحراسة قطعان الماشية لدى الرعاة. جلدها منقّطٌ بشكلٍ عشوائي وغير متناسق، كما لو كان رسمًا من عمل طفلٍ صغير. لها سيقانٌ قصيرةٌ، غليظةٌ، وأنفٌ يحترم القواعد الأساسية للديناميكا الهوائية. ترك تقدُّم السن غشاوةً كثيفةً فوق عينيها، كطبقة القشدة التي تعلو الحليب الطازج. وبسبب مزيج الحَكَّة والسأم، بدأت في أكل نفسها. أو هكذا بدا الأمر. عضّت سيقانها ونتفتها إلى قطعٍ متعددة، هاجمتها أسرابٌ ضخمةٌ من الذباب، كي تبيض داخل جروحها المفتوحة. كما أن هناك حَزًا في رقبتها بسبب محاولاتها الدائمة للتحرّر من الطوق المحيط بها، والمثبّت بقيدها. سالَ الصديد من مؤخرتها. انحصر دورها ككلب حراسةٍ في النباح فقط، إذ أنها مقيّدةٌ طوال الوقت بشكلٍ لا يتيح لها مهاجمة أيّ أحد. عادةً، يعمل وجود كلبٍ على إظهار أفضل مشاعر الإنسان، ولذلك لم نفهم كيف استطاعت "باميير" مراقبة العذاب الذي تعيشه كلبتها، الأشبه بعبدةٍ لديها، بكل ذلك البرود. توسلنا إليها أن تحلّ قَيد "بلوندي"، على الأقل. عرضنا عليها أن نأخذ الكلبة في جولةٍ لمدّة ساعةٍ واحدة، يوميًا. ستسير بالسلسلة المثبتة في طوقها؛ بل عرضنا عليها أن ننقل الكلبة لبيتنا وأن نتولى نحن رعايتها والعناية بها. سوف نشتري هذا الكائن البائس، لنقدّم له الرعاية التي تليق بشيخوخته. لكن "باميير" رفضت حتى الاستماع إلينا. سوف تبقى "بلوندي" مقيّدةً في مكانها. بقيت الخطّة السِرِّية لتحرير "بلوندي" مجرّد مجموعةٍ من الأفكار المثيرة. لكن خوفنا من "باميير" شَلَّ حركتنا عن التنفيذ. وهكذا، واصلنا حمل أطباق الحساء لها، ومراقبة الكلبة بتعاطفٍ شديد، بينما تمتصُّ صاحبتها النخاع من العظام.

للقطط تسعة أرواح، لكن الكلب يموت يوميًا. استطاعت تلك الكلبة البائسة العجوز، المقيدة طوال الوقت، اجتذاب مجموعةٍ من الذكور الذين رفضتهم إناثٌ أصغر سِنًّا وأكثر جاذبية. اتّصف هؤلاء الكلاب بالقذارة البالغة. كانوا هم أنفسهم بائسين ومنبوذين، ويعتمدون على نبش أكياس القمامة في غذائهم القليل. كانوا يعانون من الجرب أو العَرَج، وليس لديهم أيُّ منفذٍ لتفريغ طاقاتهم واحتياجاتهم المُلِحَّة، سوى سيقان الأطفال



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوحيدين، الذين يتخذون من هذه الكلاب الضالّة رفقاء لعب. كثيرًا ما ينتهي الأمر بأطفالٍ مذهولين، تبقَّعت سيقان بنطلوناتهم بإفرازاتٍ لزجةٍ من الكلاب. كانت "بلوندي" مُسِنَّةً لدرجةٍ تمنعها من المقاومة. واصلت التحديق في الفراغ، بينما كان أولئك الكلاب، الذين رفضهم العالَم أجمع، يعاشرونها بعنفٍ من الخلف.

قال "جيردر":

- هذا هو الأمر يا ولد.

- ما هو؟

- المعاشرة! الجنس!

كان يحاول أن يشرح لي ما الذي يفعلونه، وهذا في حالة أنني كنتُ أفكر بيني ونفسي عن الأمر.

في تلك الأثناء، كنَّا نجلس على مقعدين، قريبًا من "باميير" ذات الرائحة النتنة. نراقب ثلاثتنا مأساة الكلاب المضطرة للاكتفاء بأنثىً متهالكةٍ ذات مؤخرةٍ متقيِّحة، ومأساة "بلوندي" المقيَّدة بسلسلةٍ غليظة، وهي على الأغلب تبتهل للقدِّيس "فرنسيس الأسيزي" كي يخلِّصها من معاناتها. ما زاد من غرابة سلوكنا وردِّ فعلنا، هو ذلك البريق في عينيّ "باميير" وتلك الابتسامة العريضة على وجهها. شيئان لا نراهما عادةً.

الطبيعة قاسيةٌ. أشارت دلائل كثيرةٌ إلى أن جسم "بلوندي" كان متهاويًا تمامًا. كنا نأمل أن تكون روحها هائمةً في مكانٍ آخر، وأن تكون قد بدأت في مغادرة جسدها. ومثلما فوجئت جدَّتي بأمر حملها في "جيردر"، في عُمرٍ متقدّم، فوجئنا نحن أيضًا في أحد الأيّام بمنظر "بلوندي" وقد التصق خمسة جِراء بحلماتها الكبيرة الذابلة.

أمرتنا "باميير":

- تخلَّصوا من تلك الجِراء!



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اقترحنا عليها:

- سنأخذهم معنا إلى بيتنا.

- أوغاد! تخلّصوا من تلك الجراء! اقتلوهم! ضعوهم في جوالٍ وأغرقوهم في البِركة!

المفروض أن تبقى الجِراء مع أمّهاتها لستَّة أسابيع على الأقل، ولكن لو فعلنا ذلك هذه المرَّة، فسوف نقضي على حياة "بلوندي"، بسبب عُمرها المتقدِّم، وإن كان هذا لا يبرِّر قتلهم.

اعترفتُ لـ"جيردر":

- ليس باستطاعتي فعل ذلك.

- افعل ما تأمرك به "باميير" يا ولد.

- كلا. لا أستطيع. على كل حال، لقد طلبتُ ذلك منك أنت أيضًا.

- كم أنت ضعيفٌ ومزعج. أنت كذلك فعلاً!

- مثلك!

- اسكت يا جبان!

راقبتنا "باميير" عن كثبٍ ونحن نضع الجِراء في جوالٍ زوَّدناه بأثقالٍ مناسبة، ثم تأكَّدتُ من أننا ربطناه بعُقدةٍ مزدوجةٍ للحبل. عند عودتنا من البِركة، بدأت "بلوندي" في النباح علينا، وهي تصدر أصواتًا غاضبة. غطَّت الرغوات لسانها، وتجمَّع الزَبَد على زوايا فمها. حاولت تحرير نفسها من القيد، وقد تركَّزت نظراتها على رِقابنا وحناجرنا، هناك حيث نَمَت لـ"جيردر" تفاحة آدم. وكما في الأساطير، صار لدينا "سيف دموقليس"، على هيئة كلبة. هناك خطرٌ يتهددنا. في أحد الأيّام، أعلن "فيرنر"، شديد التدين وشديد الغباء، والذي سرق منه "جيردر" حبيبته:

- هل تتذكَّران حين كنا ننوي إطلاق سراح تلك الكلبة، لكن الخوف منعنا من تنفيذ خطَّتنا؟ حسنًا، لكما أن تصدِّقا، أو لا تصدِّقا، لكنني



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قطعتُ قيد تلك المسكينة البارحة. يعلم الله وحده أين هي الآن!



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 3- سِباق فرنسا

# الدولي للدرَّاجات

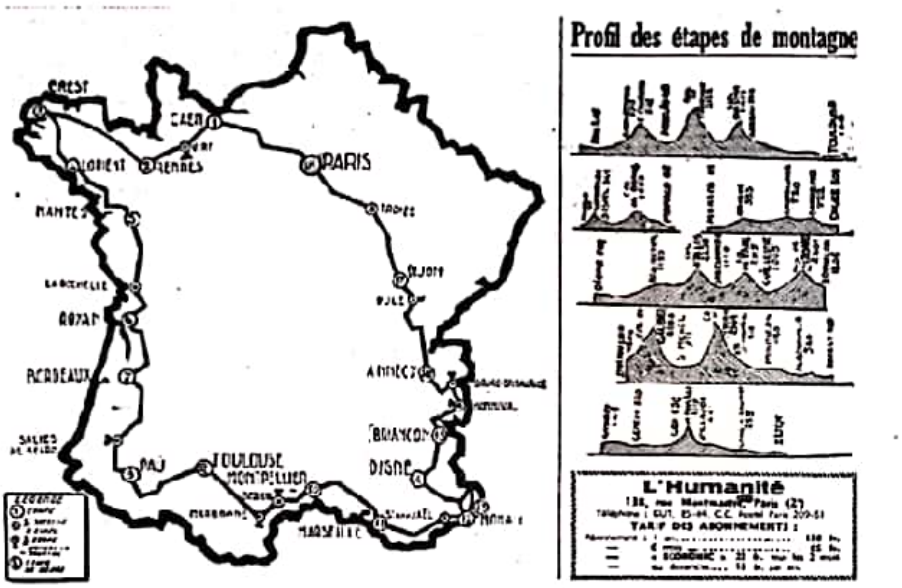







خلقَ الله اليوم، ومر علينا بصعوبة. حين كُنَّا لا نزال نعيش كشخصياتٍ في أغنيات "بيج بيل برونزي" Big Bill Broonzy، شَنَّ "عمر" هجومًا على الرقم القياسي الدولي للشرب، شُرب البيرة، طبعًا. كان ذلك أحد الحركات العبقرية العديدة، التي ينجح "عمر" من خلالها في جذب الزبائن لحانته "واحة الكاذبين"، طوال الوقت. هناك دائمًا شيءٌ من العظمة الفاتنة لأفكاره. ما زاد عليها سِحرًا إضافيًا هو أنها تسبَّب له مشكلاتٍ مع الشُرطة. تميَّزت الاحتفالات والمناسبات التي ابتكرها ذهنه بغرابتها الشديدة، لدرجة أن حكايات مَن يسردون جوانبَ منها اليوم تُقابَل بالتشكك في ذاكرتهم. والآن، بعد رحيل معظم من عاصروا تلك الأحداث من على وجه الأرض، أدركتُ مغزى الاسم الغريب الذي اختاره "عمر" لحانته، لأن مَن يحكي ما كان يدور هناك سيتورط في سلسلةٍ من الأكاذيب والتخاريف والأساطير. لكن ذلك لم يخطر ببالنا حينها؛ كما أننا لم نكن من النوع الذي يتجاهل وجود أيٍّ حانة، لمجرَّد أن صاحبها منحها اسمًا قبيحًا. كنَّا نعرف الكثير من الحانات التي تحمل أسماءً جميلة: "ميسَلتو" وال"أوليمبيا" و"ريو" و"الطائر الأعمى"، ولم نكن بحاجةٍ للمزيد من الحانات ذات الاسم

الذاكرة هي التي تخفِّف عنَّا آلام الاحتضار. إنها مرتبةٌ أعلى من الحبل السُرِّي. نُضوبُ الذاكرة إيذانٌ بالموت. نبدأ بالتحلُّل عندما يتوقف الآخرون عن الحلم بنا، وعندما يخشى أيٌّ ممَّن شهدوا أحداث "واحة الكاذبين" من قَصِّها خوفًا من أن يُتَّهم بالكذب. عندها، سيشاركنا مصيرنا في النسيان، وسنصبح جميعًا كأننا لم نكن. ما يتبقى من البعض لا يزيد عن جمجمةٍ وحفنة عظام، كما لو كانوا ديناصورات من نوع "براكيوصور"، التي عاشت منذ مليون سنةٍ وبضع ساعاتٍ إضافية. ذلك جيِّدٌ، ولكنه لا يمنحنا صورةً واضحةً للكيفية التي أمضوا بها أيامهم. ربَّما استخرج علماء الآثار، بعد مليون سنةٍ من الآن، جمجمة "عمر" أو أسنانه من تحت الأرض. سيصبح ذكرى جميلة. ذلك ممكن. سيمنحون الهيكل العظمي اسمًا، وستكون صدفةٌ رائعةٌ لو كان الاسم هو "عمر". بعدها، سيضعونه في صندوقٍ زجاجي إلى جوار "جون" أو "جورج"، أو أي اسمٍ آخر، بجانب رفات "لوسي"، الأقدم عُمرًا (التي كانت تحمل اسمًا مختلفًا في حياتها، بافتراض أنهم كانوا يمنحون بعضهم أسماءً من الأساس) ويعرضونهم جميعًا لتوضيح التطور الأبله للإنسان. دون أدنى نيَّةٍ للتقليل من شأن علماء المستقبل، فإنني لا أظن أنهم سيمتلكون التكنولوجيا التي ستعينهم على معرفة ما إذا كان الهيكل العظمي، محور الحديث، لصاحب حانة، أو أنه كان ميّالًا للأفكار المجنونة. لن يعرف أحدٌ منهم أبدًا أن "عمر" تولّى مرّةً تنظيم سباق درَّاجات للعُراة، للترويج لحانته. أحسَّ جزءٌ من سُكّان البلدة بالغضب، ليس لأن قيادة درَّاجات من قِبَل أشخاص عُراة أمرٌ غير أخلاقي، وإنما لأن السباق سيكون في الطرقات البعيدة عن وسط البلدة، قريبًا من المقابر. الغريب أن تأثير القسِّيس حينها كان لا يزال كبيرًا، وخلقَ نوعًا من التوازن مع تعاطف جهاز الشُرطة مع المشروع؛ وهكذا ظهر الأربعة عشر متسابقًا، من عديمي الدين والأخلاق، عند خطِّ البداية، يرتدون ملابسهم الداخلية. "حَلٌّ وسط"، هكذا قالوا. لم يكن انفصال الكنيسة عن الدولة أقوى من "كيلوت". أثار أبي حماس الجمهور الكبير الذي تابع السباق، بفوزهِ المُستَحَقِّ بالمركز الثاني. امتلكَ ساقين قويتين. كان نجاح هذه المبادرة مفهومًا،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن ذلك لم يقلّل من قيمتها. عرف "عمر" كيفية إغواء الحشود وجذبها إلى حانته، وعقب مرور سنةٍ على سباق الدرَّاجات الأسطوري، بدأ في تكوين فريقٍ لتحطيم الرقم القياسي في تناول الخمور. كان بحاجةٍ إلى اثني عشر شخصًا. لا أحد يدري سِرَّ هذا الرقم تحديدًا. لم يستغرب أحدٌ حين ظهر على بابنا، يطلب مشاركين. لم نندهش نحن أنفسنا، فجميع أيّامنا كانت متوقعة، حتى ولو لم نكن مستعدِّين لها أبدًا. كلّا، كانت المفاجأة هي رفضنا المشاركة في خطّة "عمر". يمكنك وضعنا عرايا على درَّاجاتٍ هوائية، طالبًا منَّا السَير بها لمسافاتٍ طويلة. لا نتهرَّب من واجباتنا، حين يتعلَّق الأمر بالتسلية. أعطنا اقتراحاتك، وسننفِّذها لك. لكن ممارسة الشُرب كرياضةٍ أو سباق؟ ذلك كثيرٌ جدًا! وضع عمِّي "هيفي" اسمه ضمن المشاركين في بادىء الأمر، رغم أنه ليس أفضلنا في مجال الشُرب، بل هو أبعد ما يكون عن ذلك، لكنه اضطر لشطب اسمه من اللائحة بعد أن وضعته فتاته في الحيرة الكلاسيكية المعروفة: إمَّا هي وإمَّا البيرة. رفض أبي أيَّة محاولة إقناع. لن يفعل ذلك. انتهى الأمر. كان "جيردر" لا يزال قاصرًا، ولخيبة أمله الشديدة كان ممنوعًا من المشاركة من الأساس. أمَّا "هيرمان"، فقد عمد إلى مماطلة "عمر" بكلماتٍ بسيطة، لكنها واضحةٌ للجميع:

- "عمر"، أنا لستُ مجنونًا.

بطبيعة الحال، استمرَّت الحياة، وهو ما يجعلها صعبةً أحيانًا. زيَّنت قائمة المشاركين حانة "واحة الكاذبين". ترددنا على الحانة يوميًا لرؤية الأسماء الجديدة التي أضيفت لها. مَن الذي رشَّح نفسه، وغامَرَ بالمخاطرة في محاولته للفوز بلقبٍ عالمي. تمَّ الاهتمام بكافَّة التفاصيل. سيوجد طبيبٌ لمساعدة الأبطال خلال اللحظات الصعبة، التي ستحدث دون شك. سيوجد أيضًا مُحضِرٌ حكوميٌ لمراقبة المسابقة بأكملها، وإصدار شهادةٍ توثِّق النتيجة، حتى يرى الفائز اسمه في "موسوعة جينيس للأرقام القياسية". إنه مجرَّد اسم، والأسماء لا تعني شيئًا لأحد. عاجلًا أم آجلًا، ستصبح أسماؤنا مزيجًا من الحروف الميتة، أو حروفًا أعيد



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترتيبها بنَسَقٍ معيَّن، لكن ظهور الاسم في "موسوعة جينيس" يمنح صاحبه شاهدًا بالحياة، وأنه استطاع تجاوز العادي، رغم ما للعادي من جاذبية. "موسوعة جينيس" هي تعريف بالجنس البشري، وفيها يحاول أحدهم دفع حدود ذلك التعريف، لأبعد ممَّا هو عليه قليلًا نحو الأفضل، كي يخدع نفسه بأنه وُلِد لسببٍ وجيه. بعدها، سيتمكن من وضع نفسه في مصافِّ الأسرع في السباحة، والأبعد ارتفاعًا في القفز، والأعلى صوتًا في الغناء. سيرى نفسه أيضًا مساويًا للكائن ذي اللسان الأطول، والرئة المسرطَنة الأكثر سواد. إنه هناك، كائنٌ بين الإنسان والوحش، تمامًا مثل "الإنسان المنتصب"، لكنه يتفوَّق عليه - بعد تاريخٍ طويلٍ يمتدُّ لعشرة ملايين سنة - بقدرته على الإفراط في الشُرب. كان ذلك شيئًا جذّابًا للمُقامِرين. تابعنا باهتمامٍ وترقُّبٍ تزايد عدد المشاركين، الذي وصل إلى أحد عشر متسابقًا بحلول ليلة الحَدَث. أحد عشر رجلًا شجاعًا من معتادي الشُرب - بفِعل الملل والتقاليد - المُهَمَّشين جيلًا تلو آخر. كانوا يرتمون على مقاعد البار المرتفعة، بأجسادٍ مرتخية. حتى طريقة جلوسهم لم يكن بها شيءٌ متميِّز. كانت فكرة الانتصار ضعيفة، وبخاصَّةٍ مع الغياب التامِّ لعائلة "فيرهولست" من القائمة. أضف إلى ذلك أنهم كانوا لا يزالون بحاجةٍ إلى رجلٍ آخر يتمِّم العدد إلى اثني عشر رجلًا قبل مرور أربعٍ وعشرين ساعة. لكننا لم نكن سنشارك. كلَّا. فليشارك أيُّ شخصٍ عدانا نحن.

تمَّ إنقاذ العالَم في لحظة ضَعف. حين دخلنا حانة "عمر"، صباح "اليوم العظيم"، لشراء سجائر، اكتشفنا اكتمال فريق المتسابقين. من باب تأدية الواجب، وليس الطموح، استسلم عمِّي "هيرمان"، وأضاف اسمه كآخر مشارِكٍ في الفريق. فور انتشار خبر مشاركته في أنحاء "آرسينديجيم"، تنبَّأ الناس بليلةٍ متميِّزة ستنتهي بتنصيب بطلٍ من عائلتنا، ولذلك بيعت التذاكر بسرعةٍ فائقة. حين شاهدنا شاحنةً تُحضِر كراسيَّ مؤجَّرةً، قابلةً للطَيّ، عرفنا أخيرًا معنى الشعور بالأمل. أحسسنا أيضًا بالتوتر، ونحن نراقب عُمَّال البلدية وهم ينصبون المسرح الذي سيصارع رجالنا فوق خشبته غريمتهم البيرة. إنها عدوٌّ هائلٌ بالنسبة لأيِّ أحد. اصطفَّ


الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فوق خشبة المسرح اثنا عشر مقعدًا مرتفعًا، ومع كل واحدٍ منها برميلٌ خشبيٌ من أجل تقيؤ المشاركين إن رغبوا في ذلك. أمِلنا أن يفعلوا ذلك حقًّا فهذا ما سيأتي الناس من أجل رؤيته. لم يكن التقيؤ مخالفًا لقواعد المسابقة. سوف يتمُّ احتساب البيرة التي سيتقيؤونها ضمن مجموع ما شربوه. سوف يظهر كل كوبٍ كبيرٍ يشربونه فوق لوحة النتيجة أولًا بأول. عليهم أن ينتهوا منه أولًا. من مهام المُحَكِّم التفرقة بين الجرعة المبلوعة والأخرى التي تمَّ بصقها قبل مرورها في الحلق.

لا أستطيع الادّعاء بأننا كنّا وراء قرار "هيرمان" بالمشاركة، لكنه اتخذه بنفسه وذلك عملٌ بطوليٌ في حدِّ ذاته. اتخذّ أحدهم قرارًا، وبدا أنه بحاجةٍ إلى دعمنا أكثر من أيّ وقت مضى. قلينا له البطاطس، وخفقنا البيض، ومسحنا قطع الخبز بالدهون الذائبة. وبغضِّ النظر عن قدرة كبده على تحمِّل دسم قطع اللحم المقلية، فإننا أطعمناه إيَّاها مع بقية ما ذكرته حتى نبطِّن معدته بطبقةٍ عازلةٍ تحميها، وأسميناها "الأساس". إذا كان هذا الشخص العظيم يرغب في أن يصبح رياضيًا، فعليه أن يتعلَّم كيف يحيا وهو في أفضل حالاته. الأهم من ذلك، كان يحمل عبء الدفاع عن شرف العائلة. المشاركة أهم من الخسارة. لم يطلب منه أحد المشاركة، لكن طالما أنه فعل، ينبغي عليه تحمُّل النتائج. عقب هذه الوجبة الكبيرة، دفعناه للنوم في فراشه، لتعزيز قوَّته. قُبيل وقت المسابقة، أجلسناه على المرحاض ليطهِّر أمعاءه من سموم الإفراط في الطعام. كلُّها تفاصيل تصنع فروقًا واضحة، حتى ولو لم يكن "هيرمان" نفسه مقتنعًا بها. حين رافقه أبي وأعمامي إلى أرض المعركة، لم نكن متأكدين ما إذا كان "هيرمان" مستعدًّا نفسيًا كي يصبح **شخصًا متميّزًا** أم لا. أو ما إذا كان مستعدًا للرجوع كشخصٍ منتصرٍ أم لا. هكذا هو الأمر: ليس بإمكانه أن يخسر. المسابقة ضعيفة المستوى للغاية. الشُهرة كانت مضمونةً، وهو لم يضطر حتى للدراسة أو للعب كرة القدم للحصول عليها.

كُنَّا في الخريف، لكننا اعتدنا الإفراط في الشُرب طوال العام، دون أدنى اهتمام بالفصل الذي نمرُّ فيه؛ ومع ذلك، يبدو الموت أقلَّ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فوق خشبة المسرح اثنا عشر مقعدًا مرتفعًا، ومع كل واحدٍ منها برميلٌ خشبيٌ من أجل تقيؤ المشاركين إن رغبوا في ذلك. أمِلنا أن يفعلوا ذلك حقًّا فهذا ما سيأتي الناس من أجل رؤيته. لم يكن التقيؤ مخالفًا لقواعد المسابقة. سوف يتمُّ احتساب البيرة التي سيتقيؤونها ضمن مجموع ما شربوه. سوف يظهر كل كوبٍ كبيرٍ يشربونه فوق لوحة النتيجة أولًا بأول. عليهم أن ينتهوا منه أولًا. من مهام المُحَكِّم التفرقة بين الجرعة المبلوعة والأخرى التي تمَّ بصقها قبل مرورها في الحلق.

لا أستطيع الادّعاء بأننا كنّا وراء قرار "هيرمان" بالمشاركة، لكنه اتخذه بنفسه وذلك عملٌ بطوليٌ في حدِّ ذاته. اتخذّ أحدهم قرارًا، وبدا أنه بحاجةٍ إلى دعمنا أكثر من أيّ وقت مضى. قلينا له البطاطس، وخفقنا البيض، ومسحنا قطع الخبز بالدهون الذائبة. وبغضِّ النظر عن قدرة كبده على تحمِّل دسم قطع اللحم المقلية، فإننا أطعمناه إيَّاها مع بقية ما ذكرته حتى نبطِّن معدته بطبقةٍ عازلةٍ تحميها، وأسميناها "الأساس". إذا كان هذا الشخص العظيم يرغب في أن يصبح رياضيًا، فعليه أن يتعلَّم كيف يحيا وهو في أفضل حالاته. الأهم من ذلك، كان يحمل عبء الدفاع عن شرف العائلة. المشاركة أهم من الخسارة. لم يطلب منه أحد المشاركة، لكن طالما أنه فعل، ينبغي عليه تحمُّل النتائج. عقب هذه الوجبة الكبيرة، دفعناه للنوم في فراشه، لتعزيز قوَّته. قُبيل وقت المسابقة، أجلسناه على المرحاض ليطهِّر أمعاءه من سموم الإفراط في الطعام. كلُّها تفاصيل تصنع فروقًا واضحة، حتى ولو لم يكن "هيرمان" نفسه مقتنعًا بها. حين رافقه أبي وأعمامي إلى أرض المعركة، لم نكن متأكدين ما إذا كان "هيرمان" مستعدًّا نفسيًا كي يصبح **شخصًا متميّزًا** أم لا. أو ما إذا كان مستعدًا للرجوع كشخصٍ منتصرٍ أم لا. هكذا هو الأمر: ليس بإمكانه أن يخسر. المسابقة ضعيفة المستوى للغاية. الشُهرة كانت مضمونةً، وهو لم يضطر حتى للدراسة أو للعب كرة القدم للحصول عليها.

كُنَّا في الخريف، لكننا اعتدنا الإفراط في الشُرب طوال العام، دون أدنى اهتمام بالفصل الذي نمرُّ فيه؛ ومع ذلك، يبدو الموت أقلَّ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تهديدًا حين يأتي في الأوقات التي تتساقط فيها الأوراق عن أشجارها، وتموت كل الأشياء بنوعٍ من الدلال، في عَرضٍ فنيٍّ كبيرٍ وبديع. تلك الليلة، سمعتُ رؤوس الأشجار وهي تتراقص وتصفق أغصانها ببعضها، كما لو كانت فتياتٍ من مشجعات الفِرَق الرياضية. تسافر الرياح بعيدًا، وتعود إلينا مُحَمَّلةً بأفكارٍ غايةً في السوداوية. إنه ذلك الوقت الذي يعقب عملية ذبح الحيوانات، حين تدرك الأبقار أنه قد تمَّ العفو عنها حتى فصل الشتاء التالي، وأن بإمكانها الاستمتاع برغباتها الجنسية مرّةً أخرى. أمَّا الشخصيات الكئيبة منها، فإنها ترفع أصواتها بخوارٍ يشبه السرينة، حُزنًا على العجول التي استحالت شرائح لحمٍ طريَّة. لذلك، ألقت سيارة الشُرطة بضوئها الأزرق الجميل على ورق الحائط في حجرتنا تلك الليلة. كان ذلك جزءًا من "الكوريجرافيا" الإلهية.

رنَّ جرس الباب، لكن جدَّتي "ماريا" لم تتحرَّك مطلقًا من فراشها الذي استمدَّ دفئه أخيرًا من جسدها. كانت قد توقفت عن الاستجابة لجرس الباب ليلًا لإدراكها أن مَن بالباب أحد أولادها دون شك، وأنه شرب الكثير من البيرة لدرجة تكاد تفقده القدرة على الحركة، وأنه يعبث بجيوبه محاولًا العثور على مفاتيحه. يظل واقفًا، محاولًا تخطي محتويات جيوبه من الولَّاعات والعملات المعدنية والسجائر الموشكة على الكَسر، للوصول إلى مفتاح البيت. لو كان محظوظًا، سيصل إليه بعد نصف ساعة. عقب ذلك، ستواجهه مشكلةٌ جديدة، هي إدخال المفتاح في ثقب الباب.

رنَّ الجرس للمرَّة الثانية. سمعتُ جدَّتي في الغرفة المجاورة وهي تتقلَّب في فراشها، وتتلفظ بلعناتٍ، ستطلب المغفرة عليها في مدينة "لورد" الفرنسية المقدسة، في الصيف القادم.

قمتُ ونظرتُ من النافذة. رأيتُ شرطيًا يحرِّك ساقيه بصبرٍ نافد. بدا كما لو أنه يتوقُ للتبوُّل. ناديت:

- نانا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما الأمر يا صغيري؟

- هناك أحدٌ عند الباب.

- إنه والدك. فَشِل من جديدٍ في إدخال المفتاح في ثقب الباب، على الأغلب. دعه وشأنه. لن يضرَّه هواء الليل المنعش.

- إنهم الشُرطة يا نانا.

- ثانيةً؟

توقفتْ جدَّتي عن الاستيقاظ ليلًا من أجل رجال الشُرطة. في السنوات الأخيرة، أحسَّت بالتعب من إفساد ساعات نومها من قِبَل ضُبَّاطٍ ودوديـن، يحضـرون أبـي إلـى البيت، فاقـدًا للوعـي تقريبًا. في تلك الأوقات، تحوَّل رجال الشُرطة في "آرسينديجيم" إلى شركة سيارات تاكسي! لأكثر من مرّةٍ، أوصلوا أبي إلى بابنا الأمامي، ليعودوا بعدها بنحو ثلاث ساعاتٍ لتوصيل عمِّي "هيفي". بـدأت الأمـور تخـرج عـن السيطرة حين أعادوا عمِّي "هيرمان" للبيت، وساعدوه للوصول إلى حجرة النوم، حيث أعانوه على خلع ثيابه القبيحة. الواقع أنهم كانوا بذلك يقدِّمون خدمةً للبلدة بأكملها، فتركُ شخصٍ ثملٍ في الطريق، ليفيق من سُكْره بمفرده، لن يتسبب إلا في المشكلات والحوادث. تفهَّمنا غريزة الأمومة لـدى الضبَّاط، ولكن لا يحقُّ لهم المبالغة فـي استخدامها! لدينا كرامتنا نحن أيضًا! في أحيانٍ أخرى، كانوا يأتون إلينا لتبليغنا أن "جيردر" ضرب شخصًا خلال شجار سكارى، في مكانٍ أو آخَر، وأنهم مضطرون - لأسبابٍ إدارية - لإبقائه في الحَجز طوال الليل. كان يحتفظ هناك ببيجامةٍ احتياطية. كان رجال الشرطة يبلغوننا بأنه في الحجز، حتى لا نشعر بالقلق حين لا نراه على الإفطار صباح اليوم التالي. وكأننا نهتم عندما لا يعود رجال الأسرة إلى البيت لعدَّة أيّام. حين يكونون في أفضل حالاتهم، ويرغبون في السُكْر بأيِّ ثمن، فإننا قد لا نراهم لأسبوعٍ كامل. الأهم من ذلك أننا لـم نكن نتناول وجبة الإفطار، أساسًا، كي نلاحظ غيابهم؛ وإذا فعلنا، يكون ذلك عقب تدخين نصف علبة سجائرٍ على الأقل.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن حين يتبنَّى رجل الشُرطة عادات بائع مكانسَ كهربائيةٍ متجوِّلٍ، ويواصل دقَّ جرس الباب لخمس مرّات، أو يضع إصبعه على زر الجرس إلى أن يفتح له أحد، أخيرًا، فإننا نشكُّ في أن هناك أمرًا هامًا قد حدث.

حين فتحت جدّتي الباب أخيرًا، بدا الضابط منزعجًا لوجود شخصٍ بالمنزل.

- مساء الخير سيِّدتي. أعتذر لإزعاجي لكِ في هذه الساعة المتأخرة من الليل، ولكن هل أنتِ والدة "هيرمان فيرهولست"؟

- هذا يتوقف على ما حدث.

كل مَن هنا يعرف عائلة "فيرهولست"، وبخاصَّةٍ رجال الشُرطة. يبدو أن هذا الضابط الشابَّ جديدٌ في الخدمة، وأنهم أرسلوه إلينا لتدريبه على المهمات الصعبة.

- هل لي بالدخول للحظة؟

- انتظر لثانيةٍ واحدة. هأنا أقف أمامك في رَوْبٍ منزلي، ودون طقم أسناني. لستُ مستعدَّةً لاستقبال أيِّ زائر. ماذا تريد؟

- الأمر جادٌّ. هل أنتِ متأكّدةٌ مِن أنه لا يمكنني الدخول للحظة؟ ليس من السهل إخبارك بالأمر على الباب.

- اذهب يا صغيري وأحضر لي طقم أسناني من الطابق العلوي، لأتمكن من استقبال هذا السيِّد المحترم بطريقةٍ لائقة.

كان قد تبقى لدينا بعض القهوة الفاترة. قدَّمناها للشُرطي، الذي تناولها منَّا بامتنان، دون أن يتوقع طعمها بالغ المرارة، كونها مصنوعةً من نبتة الشيكوريا. لو لم نضع كيس السُكَّر بجوار فنجانه، لظلَّ وجهه ممتقعًا بشدَّة. ما إن وضعت جدَّتي طقم الأسنان داخل فمها، حتى سمحت له بمواصلة حديثه. قال لها:

- عليَّ أن أسألكِ يا سيدتي، قبل أن أبدأ.. أنتِ لستِ مريضةً بالقلب، أليس كذلك؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل هذا الوقت من الليل مناسبٌ لإزعاج الناس بأسئلةٍ عن أمراض القلب؟

- عليّ أن أسأل، سيدتي. أنا آسف.

- ما الأمر؟ أريد العودة لفراشي.

- ابنكِ، سيدتي. "هيرمان فيرهولست"..

قاطعته جدَّتي:

- حقًّا؟ ماذا فعل هذه المرَّة إذًا؟

- إنه في غيبوبة. "كوماتوز".

- انظر يا حضرة الضابط، أنا امرأةٌ عجوز، أتلقى معاشًا تقاعديًا بالكاد يكفيني. بدأتُ العمل في مصانع الغزل والنسيج في "آلست" و"دندرمود" حين بلغتُ الرابعة عشر. كنَّا نبدأ العمل في الخامسة صباحًا. اعتدت قيادة الدرَّاجة لعملي في جميع الظروف؛ في الجوِّ الممطر وفي الجوِّ الصَحو. كل ثانيةٍ أقضيها داخل الحمَّام تُخصَم من أجري. في السابعة عشر، حملتُ بطفلٍ كبير الحجم، لدرجة أنهم اضطروا لإحداث قطعٍ في جسدي ليتمكنوا من إخراجه. في نهاية الأمر، ولدتُ عشرة أطفال، بقي منهم تسعةٌ على قيد الحياة. أفنيتُ عُمري بأكمله وأنا أغسل وأنظف لهم. ولم أذهب إلى الجامعة. أدرك أن جميع أولادي، بمَن فيهم "هيرمان"، يعودون ليلًا في حالةٍ فظيعة. كان عليك أن ترى "بيير" البارحة. لا أدري ماذا يسمُّون ذلك.. "غيبوبة" أو ذلك الشيء الذي قلته، لكن يمكنني تخيُّل ذلك إلى حدٍّ ما. "كوماتوز". إنها حالةٌ يوميةٌ هنا. لقد رأيت كل ما يمكنك تخيُّله. ربَّما عليك النزول من برجك العاجي والتحدُّث إليّ كإنسانٍ طبيعي.

- "كوماتوز" هو مصطلحٌ عِلمي، سيدة "فيرهولست". تعني أن الإنسان ليس ميتًا تمامًا، لكنه ليس حَيًّا كذلك.

- هذا ما أحاول إخبارك به، حضرة الضابط. نرى ذلك هنا يوميًا. طوال الأسبوع. وربَّما كنتُ أنا أيضًا "كوماتوز". هل ذلك ممكن في



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأيك؟

رسم الضابط تعبيرًا على وجهه، وكأنه أراد أن يقول إنه شُرطيٌ وليس طبيبًا.

- لو كان "هيرمان" ميتًا، لأخبرتنا ذلك بوضوح، ولم تقل إنه في "حالة غيبوبة"، أو لا أدري أيَّة حالةٍ، أيها الأحمق!"كوماتوز"! ما هذا؟ لاتينيٌ أم ماذا؟

هزَّ الضابط كتفيه. لا شكَّ في أنه كان يلعن رئيسه في قسم الشرطة الذي أرسله في هذه المهمة التي يكرهها بقية زملائه. تقع هذه المهمة عادةً على الضُبَّاط الجدد، أمَّا القدامى فيضعون خبراتهم في ختم الأوراق الرسمية وكتابة المخالفات المرورية.

- اسمعني يا حضرة الضابط، أودُّ أن أخلع طاقم أسناني الآن، وأن أعود إلى فراشي. أرجو أن تتكرَّم بعدم إزعاجنا بمثل هذه السخافات مرّةً أخرى. إنها الساعة الرابعة في هذا الصباح الملعون. "كوماتوز" وكلامٌ فارغ! "مصطلحٌ عِلميٌ" وأيُّ كلام! لماذا ينبغي عليّ سماع هذه السخافة أصلًا؟

بعد مرور ثلاثة أسابيع، عاد "هيرمان" إلى البيت بـ"بلاستر" طبيٍّ على وجهه، وبشرةٍ تفيض برائحة المستشفيات المتميزة والنفَّاذة. خِيطَ جسده بعددٍ هائلٍ من الغُرَز الطبّية. امتلأ الجبس المحيط بساقه اليُسرى بإمضاءاتٍ من جميع الممرضات. ممرضاتٌ رائعاتٌ، كما وصفهن "هيرمان"، الذي وعدهن بباقة وردٍ لكل واحدةٍ منهن، بسبب بقائهن بجوار فراشه لثلاثة أيامٍ كاملة، وهم يهمسن له بتفاهاتٍ لطيفة، وهو ما يفعلنه مع جميع مَن يعانون من الغيبوبة، على الأرجح. إنها الوسيلة الوحيدة لتحفيزهم على التشبُّث بالحياة، وها هو "هيرمان" قد عاد للحياة، وسوف يتوَّج بطلًا عمَّا قريب. لقد صار بطلًا عالميًا. بعد أن أضاف ثمانية أكوابٍ كبيرةٍ للرقم القياسي العالمي السابق في شُرب البيرة. ركب سيارته، رغم أنه كان عاجزًا تقريبًا عن الوقوف. راقبه جميع السكارى في الحانة، وهو يفتح باب سيارته بنجاحٍ يقترب من المعجزة، ويُدخِل المفتاح في مكانه لتشغيل المحرِّك. حين سار بها

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"هيرمان" في خطٍ مستقيم، نسبيًا، اقتنع الجميع بأنه يستحق اللقب عن جدارة، وأنه شرّيب متميّزٌ لكل العصور والأزمان، ولم يصل لهذه المرتبة صدفةً. بعد دقائق قليلة، وصل "هيرمان" إلى الطريق العام، لكنه كان على الجانب الخاطىء من الشارع لثوانٍ معدودات. وعلى الرغم من قصر المُدّة، إلّا أن النتيجة كانت مُريعة.

رغم كمّية الكحول الخارقة في دمه، ورغم تجاوزه الفظيع لقوانين المرور - وهما سببان كفيلان بسحب رخصة القيادة وحرمانه منها مدى الحياة - إلّا أن شركة التأمين التي يتبعها لم تعتبره مسؤولًا قانونيًا عمّا حدث، وتولّت دفع كافة مصروفات المستشفى والجراج. وكما هو المعتاد مع "هيرمان" وحظّه السعيد، فقد كانت السيارة التي اصطدم بها مسروقة. سوف يتمُّ تكريمه بعدها بشهرٍ في مجلس المدينة، لأنه قدَّم العون لرجال الشُرطة الذين كانوا يلاحقون أفراد العصابة لأشهرٍ طويلة. طار من الواجهة الأمامية لسيّارته، على أنغام "روي أوربيسون"، الذي كان يصدح بعُلُوّ صوته خلال تلك القيادة الانتحارية. أعلن بعدها أنه سينجب ولدًا يسمّيه "روي"، امتنانًا لمعجزة الحياة التي خاضها، لكننا نصحناه بالعدول عن الفكرة.

بطلنا العالمي في السُكْر! "هيرمان فيرهولست"! كان والده سيفخر به حتمًا! استعددنا نفسيًا لحياةٍ كاملةٍ تتمحور حول الإجابة عن سؤال ما إذا كنّا من أقارب ذلك الـ"فيرهولست" الشهير، "هيرمان"، في كل مرّةٍ نُملي فيها أسماءنا على حاجب المحكمة.

الوحيد الذي لم يستطع إظهار أيِّ قدرٍ من الحماس هو "جيردر". كقاصر، تمَّ استبعاده من المسابقة، فأحسَّ بأنه يتعرَّض لمعاملةٍ عنصرية، وكان متأكّدًا من أنه هو وحده فقط الذي يستحقُّ اللقب. بالإضافة لذلك، أبدى تشككه في مصداقية المسابقة التي رأى أنها تحدِّد الشُرب في إطار ضيِّقٍ للغاية. أولًا، ربَّما كان المتسابق يمرُّ بيومٍ جيِّد. ذلك النوع من الأيّام الذي تظلُّ تشرب فيه بيرةً تِلْو أخرى، دون أن تنقلب على ظهرك من شدَّة السُكْر. تلك الأيام موجودة، وكرامتك فيها محفوظة. ثانيًا، اقتصرت

23%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشروبات المسابقة على البيرة، التي ينتجها مصنع "دي خيست" للخمور، وهي من الخِفَّة بحيث تشعر أنها ممزوجةٌ بالماء. كما أن خميرتها تخلِّف رائحةً عطنةً مشؤومةً تغلِّف بلدتنا. توقَّع "جيردر" الكثير من بطولةٍ عالمية؛ أن تقدِّم للعالَم سِكّيرًا بحقّ. شخصًا يستطيع تناول جميع المشروبات الكحولية. بإمكان أيِّ أحمق أن يسكر حتى يغيب عن الوعي، لكن الفن الحقيقي هو أن تغيب عن الوعي في اليوم التالي أيضًا، واليوم الذي يعقبه، واليوم الذي يليه، إلى ألّا يتبقى سواك. يواصل المتنافسون شُرب الخمور لأسابيع متتالية، إن استدعى الأمر. عليهم ألَّا يقيِّدوا أنفسهم بتناول البيرة فقط. يجب إضافة الفودكا والويسكي والكوكتيلات، وجميع المشروبات المُقطَّرة البشعة. تلخَّص هدف "جيردر" في دمج كلِّ هذه النقاط الأساسية داخل إطار جذَّاب، أو ضمن هيكل يصلح للمنافسة. توصل إلى الحَلِّ بسرعةٍ فائقةٍ لم يتوقعها أحدٌ منّا. اكتشف "جيردر" أن أفكاره المبنية على السُّكْر، تتوافق مع أفكار صُحِفُي الرياضة "جيو لوفيفغ" المتعلقة بسباق الدرَّاجات. كان "لوفيفغ" هو صاحب فكرة "سباق فرنسا الدولي للدراجات"، الذي تميَّز بصعوبته البالغة، لدرجة أن واحدًا فقط من المتنافسين ينجح في الوصول إلى خط النهاية. سوف يكون سباق "جيردر" مشابهًا لذلك أيضًا. سرعان ما بدأ في تطوير فكرته بحماسٍ وجدِّيةٍ لم يسبق لنا رؤيتهما من قبل.

عاود المقص والصمغ ظهورهما في حياة "جيردر" الذي يوشك على بلوغ سِنِّ الرُشد. علَّق خريطة فرنسا داخل الحظيرة (بمقياس رسم: واحد إلى مليون) وثبَّتها فوق قطعةٍ كبيرةٍ من الورق المقوَّى. أحسّت أمُّه بارتياحٍ عظيم، وهي ترى اهتمامه بالفنون اليدوية، آملةً أن يقوده ذلك تدريجيًا إلى تعلُّم صَنعةٍ ما، والابتعاد عن الحانات. تتبَّع المسار بأكمله، المكوَّن من تسع عشرة مرحلةً رائعة، فوق الخريطة. يبدأ المسار وينتهي في باريس. عقب بعض الحسابات، توصَّل إلى أن خمسة كيلومتراتٍ على الخريطة، تساوي كوب بيرةٍ واحدًا من الحجم العادي، وهو ما يعني أن قطع مسافةٍ قصيرةٍ نسبيًا تمتدُّ إلى 180 كيلومترًا، سوف يشمل 36 كوبًا من البيرة. عكس عقارب الساعة. كان



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"جيردر" يبحث عن شخصٍ متمرِّسٍ في الشُرب. صاحب موهبةٍ خارقة، يمكن اكتشافه عبر رفع مستوى المسابقة. الشيء الوحيد المتوقع من المتسابقين إفرازه خلال أيام السباق التسعة عشر، هو البول الشفَّاف، الصِحِّي والصافي.

للتشبُّه بسباق الدرَّاجات أكثر، خطرت له فكرة التقسيم لثلاث مراحل. هناك ثلاثةُ قمصانٍ رياضيةٍ يمكن الفوز بها. القميص الأصفر للمنتصر، والفائز النهائي. أي الشخص الذي ينتهي في أقصر وقت. القميص الأخضر للمتسابق بالغ السُرعة. أمَّا القميص المنقَّط، فيمكن الحصول عليه عند بلوغ مرحلة الجبال، التي تصلها بعد تناول مشروباتٍ قويَّةٍ كالويسكي والفودكا.

اختفت الدمى البلاستيكية الصغيرة، التي على هيئة قائدي درَّاجات، من حوزتي. حين لعبتُ بها، وأنا أصغر سِنًّا، تخيَّلتها الدراج البلجيكي "لوسيان فان إيمبي" أو الدراج الفرنسي "بيرنار هينو"، ولم يطاوعني قلبي على التخلُّص منها لاحقًا. ظلَّت تشكِّل لي نوعًا من النوستالجيا غير المفهومة. سرعان ما اختفت تلك الدمى الصغيرة داخل جيوب "جيردر"، ليستخدمها كعلاماتٍ فوق الخريطة. سوف يُسمَح للمتسابقين بتجاوز سائقي الدرَّاجات، بمعدَّل مربّعٍ واحدٍ لكل مشروب. شيءٌ أشبه بلعبة "السلَّم والثعبان"، ولكن اللاعبين هنا خنازير وليسوا ثعابين.

رأى عمِّي "هيرمان" أنّ الفكرة بأكملها سخيفة، إن لم تكن طفولية، ولذلك رفض المشاركة. بطبيعة الحال، لقد فاز باللقب رسميًا، وبات يخشى فقدان سُمعته. خمَّنا أنه يفضِّل الاكتفاء بالنجاح الذي حقَّقه، ولا يرغب في المزيد. اشتهر أبي بكثرة الشُرب، لكن قدراته كانت محدودة، فالنبيذ الأحمر كان كفيلًا بإرساله للنوم. بالإضافة لذلك، كان قد فقد ثلث معدته، بسبب عادته السيئة في مزج البيرة بالنبيذ والكامباري والجين وأيّ شيءٍ آخر أمامه. منذ ذلك الحين، صار رجلًا بروليتاريًا تقليديًا، تحتُّم عليه الظروف الاكتفاء بتناول البيرة. كان يفرط في الشُرب بكثرة، لكنه يفعل ذلك بشيءٍ من التحفُّظ، وكنوعٍ من المظاهر الاجتماعية، وليس كوسيلةٍ للسباق والرياضة. أمَّا عمِّي "هيفي"، فقد كان يعاني من



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متـاعب فـي المفاصـل. لكل ذلـك، اضطر "جـيردر" للبحـث عـن متسابقين خارج إطار الأسرة.

على عكس "عمر"، استطاع "جيردر" تكوين فريقه بسرعةٍ فائقة. تقدَّم لمسـابقته 18 شـرّيرًا متحـمّسًا، بينـهم عـددٌ لا بأس به من القُصَّر الساعين للانتقام من استبعادهم من مسابقة "عمر". نتيجةً لذلك، تحوَّل السباق إلى صراع أجيال، أو معركة خلافة. بالإضافة لذلك، ظهر شخصٌ من بلدةٍ بعيدة، طالبًا الاشتراك. كان يرأس نـاديًا للـشُرب فـي المدينة السـاحلية "أوستِند". شـخصٌ حقيرٌ لـه العـديد مـن المشـجِّعين، مـن قائـدي الـدرَّاجات البخاريـة، الـذين يلبسون ستراتٍ جلدية. جسده أشبه بساحة موت، مع كل تلك الجماجم التـي وشـمها عليـه. سـوف يضـفي جـوًّا مختلـفًا علـى المسابقة. إنه الشخص الذي ينبغي متابعته في جبال الألب. فكل مَن سينجح في هزيمة هذا الغول البشري ومنعه من الحصول على القميص الرياضي المنقَّط، سيصبح لديه شيءٌ يمكنه إضافته إلى سيرته الذاتية (الـCV). لم يكتفِ "جيردر" بالسماح للناس من مختلف المناطق بالمشاركة، وإنما فتح الباب للنساء أيضًا. مثل "زولما" السمينة مـن "ريسـتريت لـين" (أرملـة أظـهرت شـعورها العمـيق بـالفراغ الإنسـاني الكونـي عـن طـريق إلقـاء نفسـها فـي أحضان الشُبّان الحمقى). كانت واحدةً من المرشّحين لتحقيق الفـوز، فالشـحوم الكثيرة المحيطة بجسدها - التي نجحت في تدفئتها لعدَّة سنوات في فصول الشتاء السابقة لتلك المسابقة - سوف تعينها على ابتلاع كمياتٍ هائلةٍ من الكحوليات في وقتٍ لا يُذكَر. كُنَّا متحمِّسين لرؤيتها وهي تتسابق في هذا الماراثون أو وهي تبارز بطل الدرّاجة البخارية، على حوافِّ جبل "تورماليه". بين جميع المتنافسين، كان "جيردر" هو الأبعد عن تحقيق أيِّ فوز في المسابقة. كان الوحيد الذي عليه أن يعتمد على قوة الإرادة وحـدها، وأن يحقـق عـودةً ثملةً وبشـدةٍ يتقـدم بـها علـى تلك المجموعة الفاشلة وأن يتقدم عليهم حتى وهو متعب.

ثمانيـة عشـر متسـابقًا، وهـو مـا يعـد نجـاحٌ فـي حدّ ِذاته. امتلأ "جـيردر" بحمـاسٍ شـديدٍ أشعره بالـدوار عندما أدرك أن دخول



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التاريخ عمليةٌ سهلةٌ للغاية، ومضمونةٌ وأنها لا شك ستتحقق: لعبة الكحول هذه، التي تُلعَب في مكانٍ ضيق، هي الأفضل في فئتها. لم يبتكر أحدٌ وسيلةً لاكتشاف أكثر الفنانين موهبةً في عالم التبوّل، أفضل من هذه. بدا واضحًا أن الناس في جميع أنحاء العالم سوف يبتكرون قريبًا النسخة الخاصّة بهم من "سباق فرنسا الدولي للدرّاجات"، استنادًا إلى الأصل الذي ابتكره.. "فُلان". الأمر منطقيٌ للغاية. حدثٌ تاريخيٌ كهذا يستحق عباراتٍ ملحميةً لتخليده. "جيردر" هو رائد الشُرب البطولي. كل ما ينقصنا هو صحيفةٌ خاصّةٌ بنا تمتلىء صفحاتها بالمديح والثناء عليه، وتزيد من حالة جنون العظمة التي وصل إليها. نحتاجُ شاعِرًا يستمدّ إلهامه من الهذيان الهستيري لصحفيي تلك الجريدة، تمامًا كما حدث في بدايات 1903، حين هلّلوا لسباق الدرّاجات الفِعلي في فرنسا. سوف يكتب الصحفيون في جريدتنا شيئًا مثل:

"اليوم، وفي فرنسا مُتَخَيَّلة، سوف يستعرض شاربو الخمور المحترفين طاقاتهم غير المتجددة ولكن الهائلة في آنٍ واحد. من "باريس" إلى الشطآن الزرقاء للبحر الأبيض المتوسط. من البيرة الخفيفة إلى مشروب العَرَق. من "مارسيليا" إلى "بوردو". من مشروبِ خَلٍّ مقطّرٍ إلى نبيذٍ فاتر. يقطع أولئك الرجال والنساء طريقهم عبر طرقات بلدات ورديةٍ وحالمة، تغمرها أشعة الشمس. يمرُّون بحقول "فونديه"، ويخترقون طرقات "لوار" الهادئة الجليلة. يصبّون شلالاتٍ من السوائل في حلوقهم، بحماسٍ ودون تعبٍ أو توقف، مُدرِكين أنهم سيواجهون في طريقهم جميع أنواع الإغماءات القصيرة، وتصاعد الشعور بالغثيان، وأن عليهم تخطّي كل ذلك. سوف يعانون من صداعٍ دائم، وإسهالٍ، لكنهم سيقومون باستدعاء طاقاتٍ جديدةٍ، والاعتماد على طموحهم في أن يصبحوا ذوي أهمية، حتى لو تحقق ذلك من خلال معدةٍ قويةٍ وكبدٍ ذي وظائف جيدةٍ فقط. وهو شيءٌ أفضل بكثير من أن يظلوا نَكِرة. فوق طريق من مئات الأميال، سيتحولون إلى جالوناتٍ من الخمور القوية، تتنوّع بين الويسكي والكونياك، تحت الشمس الحارقة، وظلام الليل الذي يغلّفهم. سيعانون من انعدام الهدف، وسيعانون الفراغ والكسل، وسيسرى الخدر فى

191 رقة مترجمة من «التنافس» 25%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حلوقهم، وستنتابهم رغبةٌ في التقيؤ. إنه صراعٌ جبّار، حملوه على عاتقهم. تتخلله لحظاتٌ من الغياب عن الوعي. في بعض الأحيان، لن يخجلوا من إرخاء العضلة العاصِرة، ولا من وجوههم الشاحبة، أو ثرثرتهم وفقدان عقولهم. سوف تتحطم أجساد أولئك الرجال والسيدات على الطريق في فرنسا المُتَخَيلة؛ لكن ذلك الحطام سيغدو أسطوريًا. إنها صفةٌ قد لا يتمتع بها أشخاصٌ كُثر يتصفون بالكمال، لأنهم يعانون من انعدام القيمة والهدف؛ حتى موتهم سيكون تافهًا ودون قيمة".

أكثر مَن أحسّ بالسعادة في تلك الفترة، هو جدَّتي "ماريا". لاحظت حماسًا غامضًا في ابنها الأصغر، الذي كان مستقبله المتوقَّع في غاية السوء. طُرِدَ من كل مدرسةٍ التحق بها عقب فترة اختبارٍ قصيرة. لم يستهوِه الأمر. لم يلجأ للعمل إلا نادرًا؛ عندما يجد نفسه في حاجة إلى المال. وإذا عمل، انتهى به الأمر بضربه لصاحب العمل، كتعبيرٍ عن استيائه العام، والذي يبحث عن طريقة للتنفيث عنه مع أي أحد مهما كان. والآن، وبشكلٍ مفاجىء، ها هو يعود للبيت حاملًا قمصانًا رياضية، ويغيب داخل الحظيرة طويلًا لتجهيز خرائط طوبوغرافية من الورق المقوّى. أصغر أبنائها يمارس رياضة الدرّاجات، ومن عينيه اللامعتين يمكن التنبّؤ بأنه سيتعامل مع مسألة الدرّاجات بجدّيةٍ شديدة، وأنه سيهجر الشُرب والتدخين من أجل حياةٍ صحية تحكمها رياضةٌ. لقد عذَّبها الرَّبُّ، وجعلها تتمتم بالدعاء كي يهدي أصغر أبنائها إلى الطريق القويم. وها هو يستجيب لدعائها. حمدًا له.

سوف يدور السباق بأكمله داخل منزلٍ متنقّلٍ (كارافان) في حديقة منزل عائلة "يوانيكّه". كان والد "يوانيكّه" قد حوَّله إلى ستوديو رسمٍ لشَغل أوقات فراغه. لاحقًا، شنق نفسه داخله، فتخلَّص بذلك من عبء البحث عن شيءٍ لشغل وقت فراغه. توسطت خريطة فرنسا المصنوعة من الورق المقوى منتصف المساحة المبطنة بالخشب المضغوط، وفوقها استقرت الدمى البلاستيكية الصغيرة. أحاطت بها كذلك لوحةٌ لتسجيل النتائج، وساعة "ستوب ووتش"، وثلّاجة مشروباتٍ صغيرة. لم يزوَّد



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المكان بدِلاءٍ للتقيؤ، لكن الحديقة فسيحة. أضف إلى كل ذلك أن والدة "يوانيكّه" كانت تقضي عطلتها على الساحل في "بنيدورم" ولن تعود حتى تنتهي المسابقة.

وهكذا، وفي منتصف أحد الأيام الحارَّة، الذي وافق الثاني من يوليو، حمل "جيردر" القمصان الرياضية الثلاثة تحت إبطه، وقاد دراجةً نسائيةً صدئةً، ومسروقةً، لبدء أولى جولاته في "سباق فرنسا الدولي للدرّاجات". إنها البداية. تجربةٌ قصيرةٌ يتخللها ثلاثة أكوابٍ من البيرة. لا شيءَ يدعو للقلق. شرب البيرة مسألةٌ تتوقف على التكنيك. عليك فقط أن تتعلَّم كيفية التحكم في مؤخرة حلقك. كان "جيردر" قد تعلَّم ذلك بالفعل. لن يشكِّل تكرار الأمر ثلاث مرَّاتٍ متتاليةٍ أيَّة مشكلة. مر سريعًا في شارعه؛ لم يندهش أحدٌ عندما فاز في الجولة الأولى بالقميص الأصفر. كان الوقت لا يزال مبكِّرًا لتوقُّع نهاية تلك المسابقة. كان أكثر مَن يدرك ذلك. قد ينتهي كل شيءٍ في جزءٍ أقل من الثانية. ومع ذلك، ظلَّ البريق يلتمع في عينيه، حين تقدَّم إلى المائدة مساءً، مرتديًا قميصه الأصفر (تناولنا لحمًا مفرومًا، مع طماطم وبصل، ذلك المساء). بدا واضحًا أنه سيتألم عندما يضطر للتنازل عن ذلك القميص لشخصٍ آخر. لـ"زولما" السمينة، ربَّما. كانت تركض بسرعة، ويمكنها شرب دلوٍ كاملٍ بمجرَّد شعورها بالعطش.

رأى "هيرمان" أن "جيردر" يبدو سخيفًا وهو يجلس إلى طاولة الطعام بذلك القميص الأصفر. ولكن ذلك لم يكن له أدنى علاقةٍ بذوقه في الملابس.

- إذًا، "إيدي ميركس".. يبدو واضحًا لي أنك قدتَ درّاجتك على نحوٍ جيِّدٍ اليوم. أتمنى ألَّا تكون قد تناولت أيةَ عقاقير منشِّطة. هل تبولت، أم ليس بعد؟

- أنت تشعر بالغيرة.. هذا كل ما في الأمر. لم تشارك لأنك جبان. وتحاول الآن إزعاجي بكلامك. كنتَ ستتأخر حوالي ساعةٍ لو أنك شاركت أصلًا.

- "هيرمان" دع "جيردر" وشأنه. إنه قائد درّاجاتٍ حقيقي. أنت



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كذلك ستستفيد لو أنك مارست الرياضة بدلًا من إنفاق جميع نقودك على صاحبة حانة "نوك".

- حاضر يا ماما. أنتِ محقَّة.

- وأنت، لا تنزعج من كلامه يا بني. اشتراكك في السباق يسعدنا. يسعدنا كثيرًا.

- شكرًا ماما. أحبُّك.

اتضح مدى جدِّية "جيردر" بخصوص السباق حينما أوى إلى فراشه في ساعةٍ مبكِّرةٍ ذلك المساء، رغبةً منه في الاستيقاظ بنشاطٍ صباح اليوم التالي. غدًا، تبدأ الجولة الأولى من السباق. الركوب من "آميا" إلى "شاتر". 195 كيلومتر، أو 39 كوبًا كبيرًا من البيرة. لن تحدد الجولة الأولى علاقات القوَّة بين المتسابقين؛ إنها دورةٌ بسيطةٌ للغاية، ومع ذلك فبإمكانك أن تخمِّن مدى قوتك على احتمال مثل تلك المسافات. وحتى ولو أن السباق لم يزل في بدايته، فلا يجب أن يتكاسل أيًا من المتسابقين. هناك عقبتان صغيرتان في الطريق. يمكن تجاوزهما بشرب بيرة "ترابيست" لكل واحدةٍ منهما. محتوى الكحول في هذه البيرة هو 10%. يمكن لأول مَن ينتهي من شرب حِصَّته من بيرة "ترابيست" أن يدخل السباق يوم بعد غد، مرتديًا القميص المنقَّط. إنه القميص الوحيد الذي يرمز إلى الشجاعة والجرأة. بدأت شكوك "جيردر" تنمو: لربَّما بالَغ في طموحه. ناسَبَه القميص الأخضر أكثر. كان أقرب لـ"فريدي ميرتنز" في طريقة قيادته للدراجة. سيقود دراجته في دورة سباقٍ عقب شربه لعشرين زجاجةً من بيرة "لاجر"، ودورةً أخرى بعد 27 زجاجةً. إنهما الدورتان اللتان ينبغي عليه الفوز بهما، والتأكد من إنهائهما تمامًا. تلك هي القاعدة: مَن يفشل في استكمال الجولة حتى النهاية، فليس عليه العودة للسباق في اليوم التالي.

انطلقت شارة البدء في تمام العاشرة صباحًا. إنها الساعة التي يبدأ فيها سعاة البريد جولاتهم بالدراجات. بدأ الحَدَث كسباق دراجاتٍ حقيقي. في بداية الجولة الأولى، ثرثر الجميع وهم



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يشربون كأسًا، وسط دخان سجائر كثيف. كانوا يدركون أن أمامهم طريقًا طويلة. وقفوا متقاربين وكأنهم يحاولون الاحتماء ببعضهم بعضًا. ثمانية عشر شخصًا، تمتلىء بهم زوايا الكارافان. بعد أن شرب كلٌ منهم عشرة أكوابٍ من البيرة، خرج المتسابقون معًا إلى الحديقة للتبوُّل، ثم عادوا مرةً ثانيةً. لا يزال أمامهم 29 كوبًا. لن يتهوَّر أحدهم وهو في هذه المرحلة أن يبدأ السباق بمفرده. وقعت المأساة الأولى في تاريخ "سباق فرنسا الدولي للدرَّاجات" (نسخة "جيردر") بعد شرب الكوب الرابع عشر. "ويلفريد" - الذي ينتمي لعائلةٍ مناصرةٍ للألمان، والذي يشرب البيرة فقط لأنه يعتبرها جزءًا من معتقداته وفلسفته - سقط عن مقعده فجأة، وواجه صعوبةً بالغةً في اعتلائه ثانيةً. استغرق تناوله لكوب البيرة التالي أكثر من ساعة. ارتشف منه رشفاتٍ صغيرةً للغاية، كطفلٍ يتعلَّم كيفية الشُرب. استسلم في نهاية الأمر. بقي 17 متنافسًا فقط في هذا السباق. بخروج "ويلفريد" من السباق نقص المكان فردًا، وزادت المساحة قليلًا. عملت هذه الجولة البسيطة، والقصيرة نسبيًا، على تصفية الهواة من المحترفين. كَم جولةً نحتاج لمعرفة مَن يستحق الفوز حقًا؟

بينما ترنَّح "جيردر" عائدًا إلى البيت، انهمك كل مَن رأى أنه الأحقُّ بالفوز بالقميص الأخضر في تبادل النظرات المتحدِّية. تبقى عددٌ من النقاط الإضافية، التي يُفترَض أن المتسابقين الخمسة الأوائل سيتقاسمونها بعد شرب الكوب رقم عشرين من البيرة، ولكن متى تبدأ الجولة؟ وفي أيَّة لحظةٍ يجب عليك البدء في سكب المشروبات في حلقك؟ متى ستشعر بالراحة عقب ذلك المجهود؟ هل ستدفع الثمن لاحقًا، بعد خمسة عشر كيلومترًا، عندما تظهر أول عقبة أمامك؟

كان "جيردر" ذكيًا؛ فهو ظل يشرب كثيرًا في بداية الجولة الأولى، حتى وصل للكوب الثامن عشر، بعدها شرب البيرة بحُرِّية. كان القميص الأخضر هو هدفه.

من العدل والإنصاف أن نعتبر الجولة الأولى من المسابقة مجرد إحماء. إنها لا تعني شيئًا مقارنةً بما سيحدث في الأيام التالية،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومع ذلك شرب الجميع حتى الثمالة. تتابعت نوبات الضحك، وتخلَّلتها أغانٍ بذيئة. وبالتدريج، تكاسل الناس عن السير للجهة الخلفية من الحديقة للتبول، واكتفوا بفعلها على إطارات "الكارافان" وجوانبه الخشبية. جميعهم فعلوا ذلك، عدا "زولما" السمينة التي قررت إحضار إناءٍ للتبوُّل.

صندوق بيرة! كم واحدًا من المتسابقين يمكنه أن يقول إنه شرب صندوقًا كاملًا من البيرة بين وجبتين؟ أحيانًا ينجح أحدهم في فعل هذا. في حفل زفافٍ مثلًا، أو عقب طلاق. لكنك تشعر بالإعياء بعدها، ولأيامٍ طِوَال. أمَّا في هذا السباق، فالمتسابقون أنهوا صناديقهم قبل حتى بدء السباق الفِعلي. انتكس "كيرت" ابن صانع قوالب الطوب بعد شربه لأول بيرة "ترابيست" وهذا على الرغم من أنه ورث عن أبيه حماسه للشُرب. وقف المتنافسون حوله يتبادلون النظرات، لكن أحدًا منهم لم يتدخل. كان لا يزال أمامه عشرون دقيقةً للاستمرار في الشُرب، لكنه ثمل سريعًا وتمامًا.

كتب الروائي "دينو بوتزاتي"، عقب إحدى جولات سباق "إيطاليا" للدراجات، مُركِّزًا على كلمة "فكرة"، قائلًا: "من أجل الفكرة وحدها، يبذل المتسابقون أقصى جهودهم، لدرجة الإنهاك؛ حتى ولو كانوا يملكون الكثير من المال. الفكرة وحدها، ولا شيء آخَر، هو ما يدفع الجماهير للوقوف على جانبيّ الطريق. إنهم لا يؤمنون بالمال، ولا بالاهتمامات الخاصَّة، ولا حتى بالعضلات. إنها الروح، هكذا تقول الجماهير. قوَّة الروح هي التي تحرِّك العَجَلات، وتخترق مضيقيّ "فالتزاريجو" و"بوردوي"، وتسجِّل أرقامًا قياسية".

ثَمِل "جيردر" أيضًا، من أجل "الفكرة". تسعةٌ وثلاثون كوبًا من الكحول. اللعنة! لا يمكنك شُرب كل ذلك، دون أن تظهر آثاره عليك. كان حافزه الحقيقي هو القميص الأخضر، وقد فاز به ووضعه فوق كتفيه. بدا شاحبًا كالميِّت، ولحيته مليئةٌ بقطعٍ من القيء الجافّ. جلس إلى المائدة ذلك المساء، شاعرًا بالغثيان من رائحة لحم الخنزير المشوي، والقرنبيط المطبوخ بالجبن.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحسَّت أمُّه بالقلق.

- أنت تبالغ فيما تفعل يا بُنيَّ. هذا سيئ. ما المسافة التي قطعتها اليوم؟

- 195 كيلومترًا!

- ماذا؟ 195 كيلومترًا؟ كما قلتُ لك الآن يا بُنيَّ، أنت تبالغ فيما تفعل! لم تمارس الرياضة منذ سنوات، وها أنت ذا تمارسها لساعاتٍ طويلةٍ يوميًا. عليك أن تمارسها بالتدريج وببطء. هذا ما أراه صحيحًا. ثم إنك تفعل ذلك على درَّاجة قديمةٍ وصدئة.

في اليوم التالي، حين عاد "جيردر" شِبه فاقدٍ لوعيه من الجولة الثالثة، والتي خسرها في نهايتها، وجد دراجة سباقٍ جديدةً في انتظاره. هديةٌ من أمِّه، لتظهِر له مدى تقديرها لمحاولته فتح صفحةٍ جديدةٍ في حياته. تلك الأشياء باهظة الثمن. كنا نراها في واجهة محلِّ الدرَّاجات في "سكول ستريت". الأسعار هناك رهيبة. وعلى الرغم من أن سباق الدراجات رياضةٌ قومية - كما هو مُفتَرَض - إلّا أننا لم نجرؤ على الحلم باقتناء درَّاجة سباق. والآن، ها هي أمامنا. "كولناجو" زرقاء، بمقبضين مقوَّسين جميلين، وبدَّالين يُثَبَّتان في الحذاء المخصَّص للرياضة، بالإضافة إلى أحدث مكابح. حُشِيَ المقعد بـ"جِل" من نوعٍ خاص، لحماية الراكب من الالتهابات والبثور الناتجة عن الاحتكاك. كنَّا نعرف ضآلة معاشها التقاعدي. كُنَّا ندرك أيضًا أننا نشرب بتلك النقود، ونقضي عليها، قبل انتهاء الشهر. نعلمُ أنها اضطرت لرهن شيءٍ ما لشراء تلك الدرَّاجة. ربَّما المجوهرات التي ورثتها عن أمِّها، والتي توفيت في شبابها. كانت متعلِّقةً بتلك المجوهرات، وكأنما هي أمُّها ذاتها. لم تكتفِ جدتي بشراء الدرَّاجة فقط.

- انظر ما الذي أحضرته لك، أيضًا.

زجاجة ماء. كانت هديةً مجانية، تحصل عليها عند شراء الدرَّاجة. ما إن لمحها "جيردر"، حتى سارع بدخول الحمَّام. كانت تلك المرحلة من السباق صعبة عليه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تناول "جيردر" ثلاثة أقراصٍ فوَّارة للتغلُّب على الغثيان، ثم راح يفكِّر في تفاصيل السباق. يمكن الفوز بجولةٍ واحدةٍ على الأقل، أو ربَّما اثنتين. هناك ستُّون كيلومترًا قبل الوصول إلى نقطة "باريس" على الخريطة. عليه الفوز بتلك الجولة، ولكن عليه تخطِّي الجبال اللعينة أولًا. كان قلقًا بشأن ذلك الشخص الذي بدا كأحد أعضاء جماعات "هيلز أينجل"، من قائدي الدرَّاجات البخارية. إنه إسفنجةٌ بشرية، تعمل على امتصاص كمياتٍ كبيرةٍ من المشروبات. لم يكن يبدي حماسًا زائدًا، ولم يكن يتسرَّع، وإنما اعتاد الشرب بهدوءٍ بالغٍ طوال الوقت، دون أن تظهر عليه أيَّة علاماتٍ للسُّكْر. عقب نهاية كل جولة، يثب راكبًا درَّاجته البخارية، متوجهًا إلى "أوستند" بلياقة، وكأنه عائدٌ من متجرٍ لبيع الخضراوات العضوية. جعله التركيز على تسجيل نقاطٍ جديدة، باردًا، وغير مُبالٍ بأيٍّ من القمصان الثلاثة. ومع ذلك، بدا أنه سيصل إلى الـ"شانزليزيه" وهو في كامل لياقته، وبمفرده على الأغلب. لو نجح "جيردر" في غزو الجبال، فسوف يمتلك فرصةً للإبقاء على القميص الأخضر، وربما فاز بالأصفر أيضًا. لم يسبق لـ"زولما" السمينة شُرب قطرةٍ واحدةٍ من الويسكي، أبدًا، طوال ماضيها مع الخمور؛ ولا حتى تناولت قطعةً واحدةً من الشوكولاتة بالويسكي، ولذلك كان مُرجَّحًا أن تتخلَّف عنهم في جبال "البرانس". أمَّا "كيرت"، فبعد بدايته المُبَشِّرة، بدأ لونه في الشحوب والاصفرار، نظرًا لحالة كبده المرهَق. ربَّما نجح في الوصول إلى سفح "الألب"، لكنه سينهار بعدها إذا تقدَّم بضعة سنتيمتراتٍ إضافية. على الرغم من كل ذلك، كانت النتائج تخالف التوقعات أحيانًا. من جانبه، كان "جيردر" لا يمانع في تناول الويسكي. بإمكانه شربه دون مشقَّة، تمامًا كما يفعل حين يتناول الزيتون، أو التين المجفَّف.. دون أدنى حماس.

اقتربت مرحلة الجد الحقيقية. تمتدُّ الجبال الوهمية في الأفق. المضائق الجبلية للجولتين الثانية والثالثة مستعدةٌ لاستقبال المتسابقين. الجولة الأولى إلى "مورانس"، عبر قمم "أوبيسك" و"تورماليه" تتم من خلال شرب ثلاثة أكوابٍ من البيرة فقط.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تتبعها جولةٌ صعبةٌ تتكون من سبعة كؤوسٍ من النبيذ: أبيض أو أحمر وفقًا لرغبة المتسابق. ثم تبدأ جولةٌ جديدة: التكيلا، والقليل من الـ"مسكال" مع نصف زجاجةٍ من الويسكي. بعد النزول إلى سفح الجبل، سيشربون أربعة أكوابٍ من الماء، ونصف كوبٍ من الحليب، لكي يتمكنوا من الاحتفاظ بقواهم، وبعدها سيصعدون الجبل، ثانيةً، ويشربون النصف المتبقي من زجاجة الويسكي. بشكلٍ عام، هي جولةٌ قصيرة، دون شك، ولكن يا لها من جولة!

حينما وصل الـ12 متسابقًا المتبقون إلى الكارافان ذلك الصباح، أدركوا أنهم في يومٍ تاريخي سيسجِّله التاريخ. امتلأت الحديقة بأكملها برائحة البول المزعجة، والمنظِّفات المُطَهِّرة التي استخدمها "يوانيكّه" في محاولاتٍ فاشلةٍ للقضاء على رائحة القيء العالقة بعجلات الكارافان. تسللت الرائحة إلى داخل الكارافان وبدأ النيكوتين يتساقط من السقف البلاستيكي. كانت كل العناصر اللازمة لكتابة التاريخ موجودةً في مواضعها المناسبة.

"الفكرة"!

لا أحد يدري ما الذي دفع "جيردر" لمغادرة نقطة البداية، كالمجنون، في تمام العاشرة صباحًا. حتى تلك اللحظة، كان يخوض كل جولةٍ بذكاءٍ وتعقُّل. كان "يقرأ" السباق، كما يقول الخبراء. لكنه في ذلك الصباح، قاد درَّاجته أعلى الـ"أوبيسك"، كما لو كان حصانًا سريعًا، أمَّا بقية المتسابقين (لنلتزم بمسميات الأشياء كما لو كنَّا في سباق درَّاجاتٍ حقيقي) فقد كانوا يمارسون الإحماء، ببطءٍ وهدوء. أغوته الأسطورة، وحمَّسته "الفكرة". أم لعلَّه كان يشعر بالغثيان من كل ذلك الويسكي، ويحاول الإسراع في شربه ليصبح جزءًا من ماضيه؟ في ذلك الصباح نفسه، باعَ درَّاجة السباق الجديدة، الرائعة، إلى تاجر خُردةٍ مشبوه، بسعرٍ جيِّد، لدفع ثمن تلك الكمية الهائلة من الخمور.

ربَّما كان إحساسه الدفين بالذنب - كاثوليكيَّ النزعة - هوا ما جعله يصعد قمَّة "أوبيسك" بسرعةٍ هائلة. بالإضافة إلى إدراكه استحالة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عودته للبيت دون انتصار. لاح عدم التصديق في أعين كل مَن لمحه. تصرَّف على نحوٍ خارقٍ للطبيعة البشرية. خارقٌ جدًّا، وبدرجةٍ وحشية. كان ما يفعله محاكاةً كحولِّيةً لكلٍّ من "إيدي ميركس" و"فوستو كوبّي" و"جاك آنكيتيل" و"أوديل ديفراي" ووحشٍ مروِّع، في آنٍ واحد. لم يُبالِ بالخروج لريِّ جوانب الكارافان، وتبوَّل في ثيابه، ليحافظ على إيقاعه وهو يهبط الجبل استعدادًا لغزو "تورماليه". "جيردر" حُرٌّ وطليق. لم يعبأ المشاركون في المضمار بالسعي نحو هدفهم، بل اكتفوا بارتشاف الويسكي بهدوء، وهم يفكِّرون ما إذا كان هذا المجنون الشرِّير سيغيِّر إيقاعه وسُرعته في الأربعين كيلومترًا الأخيرة.

"الفكرة"!

كُنَّا في المنزل نتابع سباق فرنسا الدولي للدرَّاجات "الحقيقي"، حين رنَّ جرس الباب، بشكلٍ لا يوحي بالأنباء السيئة. كانت جدَّتي قد لبست طقم أسنانها، ولا بدَّ أن ذلك كان مصدر ارتياحٍ للشُرطي الواقف بالباب.

- أهذا أنتَ ثانيةً؟ إن كان لديك المزيد من الأسئلة حول الحالة الصحِّية لقلبي، فإنني أمتلك صمام خنزيرٍ في قلبي، منذ أربعين سنة، وأنا في حالٍ أفضل ممَّا كنتُ عليه بالصمام الذي خُلقت به. هيَّا، أخبرني، ما الأمر؟

- مساء الخير، سيِّدتي. هل أنتِ والدة "كاريل فيرهولست"؟

نعم، في بعض الأحيان كُنا ننسى تمامًا أن الاسم الحقيقي لـ"جيردر" هو "كاريل"، وأننا اعتدنا الاسم الذي اختاره لنفسه حين عمل في موقع بناء، حتى أننا لم نعد نتذكَّر اسمه الأصلي. لم يكن لديَّ العَمُّ "كاريل"، بل العَمُّ "جيردر".

- تعني "جيردر".

- هل لي بالدخول، للحظةٍ، سيِّدة "فيرهولست"؟

- قُل ما تريد قوله عند الباب، حضرة الضابط. أنا متأكدةٌ من أنك



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تستطيع فعل ذلك. لقد مسحتُ الأرضيات للتوّ.

لم يلحَّ عليها الضابط. كان سريع التعلُّم.

- يؤسفني إبلاغك بأنه تمَّ نقل ابنك للمستشفى وهو في حالةٍ حرجةٍ للغاية.

- هل جئتَ لتخبرني شيئًا يتعلَّق بأحد أولادي مرّةً أخرى؟ أليس لديكم أمورٌ أخرى تفعلونها في القِسم؟ "حالةٌ حرجة"؟ "حرجة"! اهتمَّ بأبنائك، أنت، وحالتهم الحرجة، إن كان لديك أبناء! أمَّا "كاريل" فقد فتح صفحةً جديدةً في حياته. إنه يشارك في سباقٍ رياضيٍ على درَّاجته في هذه اللحظة.

- يؤسفني إبلاغك، سيّدتي، بأنه تمّ نقله إلى المستشفى، مصابًا بحالة هذيان ارتعاشي "ديليريَم تريمينس".

- هأنت ذا تردِّد عليَّ مصطلحاتك اللاتينية من جديد. أنت تفعل ذلك دائمًا. إن كنتَ مولعًا باللغة اللاتينية، اذهب وتبادل الحديث مع القسيس. سوف يسعد برؤيتك؛ فزيارتك لنا أمر نادر الحدوث! تعالَ مرّةً أخرى، عندما تتعلَّم كيف تتكلَّم كإنسانٍ طبيعي، لأنني لا أرغب في الاستماع لكلامك الفارغ، ولو لثانيةٍ واحدة.

ثم صفقت الباب في وجهه.

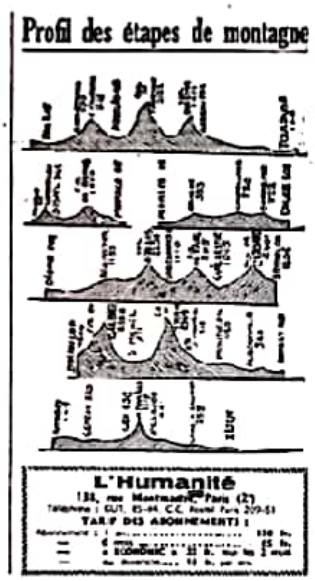




الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 4- لكل من يشعر بالوحدة

جلس المُحضِر يقيم أثاثنا وكل ما نمتلك. أخيرًا، استقرَّت نظراته على جهاز التليفزيون. أردنا أن نضرب أنفسنا لغبائنا، لأننا لم نخبِّىء الجهاز في منزل أحد الجيران أو الأصدقاء لحين الانتهاء من الإجراءات الطويلة والمعقَّدة لتسوية ديوننا. ليس تليفزيوننا! لن يصادر تليفزيوننا، بالتأكيد! ليس اليوم، تحديدًا! ارتشف القهوة التي قدَّمناها له من باب اللياقة والتهذيب. لاحظنا التواء شفتيه لحاجته للسُكَّر.

- إنها الشيكوريا، سيِّدي.

- عفوًا؟

- في القهوة. لاحظت التواء قسمات وجهك بسبب المرارة الشديدة للقهوة. إنها أمُّنا. تضع دائمًا كمياتٍ هائلةٍ من الشيكوريا في إناء القهوة لتضاعف كمِّيتها. لقد عاشت أيَّام الحرب. أنت تفهم، ولا شك. عانت من الحرمان، حينها، والآن.. على أيِّ حال، هل ترغب في إضافة بعض الحليب؟

المودَّة. الأمر يستحقُّ المحاولة. ربَّما استطعنا إنقاذ التليفزيون إن أظهرنا بعض المودَّة، وعرضنا القليل من الحليب على الرجل، على



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرغم من أننا كنَّا نؤمن بأن تناول قهوةٍ غير مُرَّة، أمرٌ مُهين. للأسف، أحسسنا بتضاؤل فُرصتنا في الاحتفاظ بالجهاز حين اتضحَّ لنا جميعًا بأن الحليب فاسد، وقد أوشك على التحول إلى مادةٍ أشبه بالزبدة التي تُصنع في ألمانيا الشرقية! بصق المُحضِر القهوة التي شربها في فنجانه. وللحظةٍ، خشينا أن يتقيأ. لم نشعر بالأسف عليه، فهو من جلبه لنفسه. هو مَن أخذ ثلَّاجتنا منذ شهر، لسداد فواتير أبي غير المدفوعة. من الجيد أن يجرِّب المُحضِر طبيعة الحياة في البيوت التي يزورها.

هذه المرَّة، كان سبب زيارته هو عمِّي "هيفي"، واهتمامه المفاجىء باللعب على ماكينات القمار المعتمدة على الحَظِّ، أو آلات الـ"سلوت". بطبيعة الحال، كان مُحِقًّا في إدراكه سهولة ربح المال من خلال هذه الأجهزة، مقارنةً بممارسة عملٍ فِعلي، تحت إمرة رؤسائه في الوظيفة. ما وازَنَ هذه الحقيقة هو أنه من المعتاد أن تخسر ما تربحه وأكثر، مفهوم الاحتمالية ذلك، لم يكن ضمن المخزون المعرفي لعمي "هيفي". باختصار، ربَّما كان ساذجًا لدرجة تصوُّره أن مُصَمِّمي تلك الماكينات هم أشخاصٌ يحبون الخير. الأسوأ من ذلك هو تراكم ديونه لدى صاحبة حانة "ماريتايم". بَلَغها أنه مهووسٌ بالمقامرة، وأن القمار نقطة ضعفه. ووفقًا لـ"داروين"، فإنَّ مَن يستغلُّ ضعف الآخرين، يُعَدُّ ذكيًا. ينتهي الطريق الذي سار فيه "هيفي" بشارعٍ مسدود: فقد واصل لعب القمار، ليسدِّد ديون مراهناته السابقة.

سأل "هيفي" الرجل:

- لن تأخذ تليفزيوننا، أليس كذلك؟

كان عليه أن يبادر بالسؤال. هذا أقلُّ ما يمكنه فعله.

- لن آخذه إن استطعتَ تسديد ديونك الآن. هل بإمكانك فعل ذلك؟

كلَّا. ليس بإمكانه فعل ذلك. "هيفي" مفلسٌ تمامًا، لدرجة أن أمه لم تكن بحاجة للبحث عن العملات المعدنية في جيوبه قبل وضع



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثيابه في غسَّالة الملابس. لم يكن متاحًا لأحدنا أن يسدِّد عنه ديونه، ليس لخوفنا من عدم استعادة مالنا منه لاحقًا - رغم أن ذلك سببٌ وجيه - وإنما لأننا مُفلِسون بدورنا. كان معاش جدَّتي التقاعدي لذلك الشهر قد انتهى تمامًا، بعد أن توزَّع بين حاناتٍ مختلفة.

لن يجلب أثاث بيتنا أيَّ مبلغٍ محترمٍ في مزادٍ علني. أظهرنا للرجل غضبنا وانزعاجنا منه بطرقٍ مختلفة. تصدر المقاعد أنينًا. اختفت مساند الذراعين منها. واضطررنا لإعادة تثبيت بعض السيقان بالصمغ. ما الذي تبقَّى للمُحضِر لكي يحجز عليه؟ ساعةُ اليد التي تلقَّيتها في الاحتفال بأول سِرٍّ تناولٍ لي بالكنيسة؟ السلسلة التي تحمل علامة برجي الفلكي، التي تلقيتها في الاحتفال بأول سِرٍّ تناولٍ لي؟ الكاميرا التي تلقيتها في الاحتفال بأول سِرٍّ تناولٍ لي؟ ولكن، حتى لو زايدَ الناس على هذه الأشياء، فإنها لن تفي بسداد ولو جزءٍ ضئيلٍ من ديون "هيفي". لم يهتم المُحضِر بجهاز تشغيل الأسطوانات الكلاسيكية الذي بحوزتنا، ففي ذلك الوقت اتجه الناس، بأعدادٍ كبيرةٍ، لاستخدام جهاز تشغيل الأسطوانات المُدمَجة (سي دي)، وانتشرت شائعاتٌ مفادها بأنك لن تتمكن - عمَّا قريب - من شراء أجهزة الإسطوانات القديمة. تكرَّر ذلك أيضًا مع الآلات الكاتبة ذات الشرائط المصنوعة من الكتَّان، ولذلك لم يقترب المُحضِر من آلة "ريمينجتون" ذات الصوت المزعج، على الرغم من أنها كانت لا تزال تعمل بكفاءة. مضى التطور بسرعةٍ، لكن من دوننا. انحصر الخيار الآن بين جهاز التليفزيون والغسَّالة. سنكون محظوظين لو لم يأخذوهما معًا، أصلًا.

سألَنا المُحضِر:

- هل لا يزال التليفزيون يعمل بكفاءة؟

حلّت الكارثة.

- هل ستأخذ تليفزيوننا؟

- هل لديك اقتراحٌ آخر؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إنه ليس مِلكي. إنه مِلك أمّنا.

- على الأرجح، ولكن كان عليك مغادرة منزلها إن أردتَ الحفاظ على مقتنياتها. وبما أن منزلها هو عنوانك الرسمي، فإننا مضطرون للقدوم هنا كلَّما تخلَّفتَ عن السداد. إنه القانون. والقانون هو القانون.

- مَن قال ذلك؟ مَن قال إن القانون هو القانون؟

التزم المُحضِر الصمت، ما جعل مسألة الجدال معه غير مطروحةٍ من الأساس.

حاول "هيفي" أن يكون أكثر دبلوماسيةً، فقال:

- حسنًا، ولكن أليس بإمكانك المرور لأخذه غدًا؟ يومٌ واحدٌ لن يصنع فرقًا.

- سيّد "فيرهولست"، لقد منحناك ثلاث فُرَصٍ للسداد حتى الآن. وفي كل مرةٍ لا تلتزم بالتاريخ المطلوب. علينا أن نضع حدًّا للمسألة. لقد تساهلنا معك كثيرًا. أنا آسف.

- لستَ آسفًا على الإطلاق! لو أنك آسفٌ حقًّا، لتركتَ جهاز التليفزيون في مكانه. هذا كل ما في الأمر. كل ما أطلبه منك هو يومٌ واحد. هل هذا كثير؟

- لا أرى الفرق الذي سيصنعه يومٌ واحد.

- "روي أوربيسون"!

- عفوًا؟

- "روي أوربيسون". على شاشة التليفزيون. سيظهر "روي أوربيسون" على الشاشة الليلة. إنه حفل عودته للأضواء عقب كل هذه السنوات. لا تقل لي بأنك لا تعرف "روي أوربيسون"! "أوبي دوبي" Ooby Dooby، و"الركض خائفًا" Running Scared، و"أحزان امرأةٍ شريرة" Mean Woman Blues.. إنها أغنياته. صدِّقني يا سيّدي، لو كنتَ تعلم ما يمثِّله "روي أوربيسون"، لما



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تـرددتَ فـي تنفيـذ مـا طلبتـه منـك. اتـرك لنـا التلـيفزيون لليلـةٍ إضافية. ليلةٌ واحدةٌ فقط. ستُ ساعات. هذا كل ما نطلبه منك.

شممنا رائحة أمل. رائحةٌ خفيفةٌ للغاية.

كان أبي، الذي ظلَّ صامتًا في الخلفية طوال ذلك الوقت، سيِّد التدخُّل في اللحظة المناسبة. فجأةً، ملأ رئتيه بالهواء، وصدح بالمقطع الأول من أغنية "الوحيدون فقط". شاركه عمِّي "هيرمان" الغنـاء، بـدايةً من الجملة الثانيـة. كُنَّا أشبه بعائلـة الكابتن "فـون تراب" الغنائية. لكن يبدو أن الأغنية الشهيرة للغاية لم تكن تعني شيئًا للمُحضِر. فبشاعة نطق أبي للكلمات الإنجليزية للأغنية لم تشفِ روح المُحضِر العليلة! على كل حال، اكتفى بنطق الحروف المتحركة لتلك الكلمات، بل إنه تلفظ بها في مواقعها الصحيحة.

تكونت الخطة رقم ثلاثةٍ في مواجهة الكوارث: أخذ "هيفي" يردد مآسي أمِّه.

- هـلّا نظـرتَ فقط لهذه الحبُّوبة المسكينة لخمس ثـوان؟ امـرأةٌ عجوز. التليفزيون هو كل ما تبقى لها. البرامج الألمانية مساء السبت. إنها تمضي طيلة الأسبوع في انتظارها. أمَّا المسلسلات الأسترالية فتُنسيها أحزانها. لستَ من القسوة بحيث تحرم امرأةً مسكينةً من تسليتها الوحيدة، أليس كذلك؟ أم أنك ستضطرها لمراقبة دوران الغسَّالة كل ليلة؟

المُحضِرون بلا قلب. تلك الصفة هي المعيار الأساسي لتجنيدهم. فقدانٌ تامٌ للمرونة.

- لستُ بحاجةٍ لقول ذلك، يا سيدي، ولكن كي تكون مُحضِرًا يجب أن تكـون بـالغ الحقارة والوضاعة، وإلَّا ما تحمَّلتَ وظيفتك. أنا متيقنٌ من أن رئيسك في العمل سعيدٌ بك. مبروك!

العبـارة الأخـيرة هـي الخطـة رقـم أربعـةٍ فـي مواجهـة الكـوارث. ليست هناك خطةٌ خامسة. وهي غير ضرورية في الواقع. خرجت جدَّتي من المطبخ، تحمل دلوًا وخرقة. لو أقيم لها نُصُبٌ تذكاري، لكان على هذه الهيئة:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماما، ما الذي تنوين فعله؟

- لا يمكنني السماح له بأخذ تليفزيونٍ قذرٍ معه. الشاشة مغطّاةٌ ببقع النيكوتين. ما الذي سيظنُّه عنّا؟

- لكن هذا تصرُّفٌ أحمق! هذا الأبله ينهب محتويات بيتنا، وأنتِ...

وهكذا، غادر المُحضِر حاملًا معه جهاز تليفزيونٍ نظيف، بعد أن ودعنا. تساءلنا في أنفسنا "تُرى، متى سنراه مرّةً أخرى؟".

واجه "هيفي" تحدّيًا جديدًا تلخّص في البحث عن جهاز تليفزيونٍ في أقلّ من خمس ساعات حتى لا نفقد ثانيةً واحدةً من عملية بَعث وإحياء "روي أوربيسون". كانت ميول "هيفي" تجنح نحو الملونين. أحَبَّ المغنيات السوداوات ذوات السيقان المُبهِرة، والنهود التي شُكِّلَت لملء كفوف الميكانيكيين؛ أمثاله. اعتلت "تينا تيرنر" القمّة بينهن جميعًا، رغم اعترافه بأن أفضل أغنياتها كانت تلك التي أدَّتها حين كانت تتلقى ضربًا منتظمًا من رجلها. لم يكن "هيفي" مولِعًا بـ"روي" كإخوته، الذين يحبونه لدرجة العبادة. وضعوه في مكانةٍ عاليةٍ للغاية. لم أفهم سرَّ اختفاء اسمه من قوائم أفضل الموسيقيين والأغنيات التي انتشرت في نهاية ذلك القرن الفَظ. قَرنهم. قلَّدَ الكثيرون "إلفيس"، لكن "روي أوربيسون" كان فريدًا ولا يضاهيه أحد. لو قلتَ إنه يمتلك صوت مغنِّي أوبرا، فإنك بذلك تمدح مغنيَّ الأوبرا.

"روي" هو "روي". لا صوت يقترب من صوته. هذا كل شيء. كما أننا نحبُّ مأساته. فقدانه لزوجته "كلوديت" في حادث دراجةٍ بخارية. ثم وفاة ولدين من أبنائه الثلاثة في حريقٍ قضى على منزله. حياةٌ مأساوية. تلك هي حياته. لو كانت الحياة مقسّمةً إلى فئتين، لكُنَّا في الفئة ذاتها التي ينتمي إليها "روي أوربيسون". لكن ما يجعله محبوبًا بحقٍّ هو غنائه عن أحزانه وحالة الحداد التي يمرُّ بها باقتناع ودون تردُّد؛ ولذلك سامحه الجميع حين تزوج مرةً أخرى من عاهرةٍ ألمانيةٍ هذه المرة. كان يرتدي ملابس حالكة السواد، ويغطي عينيه بنظارةٍ شمسيةٍ سوداء. لا يتحمَّل لونًا آخر



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على جسده. لم يضبطه أحدٌ مبتسمًا، ولو مرّة. عانى فنه من الهبوط والركود. هو مَن أراد ذلك. أدرك الحفرة المُعَدّة لنا جميعًا. تقبَّلنا وصولنا إليها ببطء، لكنه آثَر القفز في تلك الهوة العميقة بإرادته. فسَّرنا فشله باشتياقه لحبيبته الراحلة. من الرائع أن تسقط داخل مصدر جميع أفكارك. لكنه قام من جديد. هل لعق إكسير الحياة من فوق شفتيّ "باربرا" الألمانيتين؟ ذلك ممكن. لم يلُمه أحد. لكلٍ منّا "باربرا" تنتظره في المستقبل. نهض "روي" من عثرته، وبُعِثَ من جديد، وسوف يطأ بقدميه أرضية "كوكونت جروف"، وهو نادٍ في "لوس أنجلوس".

حين قارن أبي بين تواريخ الأحداث المهمة في حياته، وتلك الخاصّة بحياة معبوده الفنّي، لم يرَ سوى تشابهًا كبيرًا. الأحداث الكبيرة في حياة المغنّي تطابق في زمنها وأوقاتها المراحل الجيدة لدى أبي. وحين سقط أحدهما في قبو الحياة، رافقه الآخر. وفقًا لمنطق صعود الأشياء وهبوطها، فإن استعادة "روي" لحياته من جديد، يعني أننا بصدد مرحلة فارقة في حياة أبي أيضًا. بطريقةٍ رمزية، تُعَدُّ هذه الأمسية وسيلة تعزيةٍ للأخير. منذ أن بدأت إشاعة عودة "روي" في الظهور، لم يعد لدينا ما نتحدث عنه سوى "كوكونت جروف"، وكأننا من زبائنه القدامى. إنه مكانٌ أسطوري. إنه حلمٌ يستحقُّ المشاركة.

يقفز اسم "كوكونت جروف" يوميًا في حكاياتنا ويرتبط بأيّ شيءٍ نتحدَّث عنه. أخيرًا، سوف نراه ذلك المساء على شاشة التليفزيون، ونشاهد تغيّر "روي أوربيسون" المفاجىء والحاسم. تبدُّل اتجاهاته يعني تبدُّل اتجاهاتنا نحن أيضًا. موضوعات حيواتنا المتداخلة وأفكارنا، هي مجموعةٌ من العجلات المُسَنَّنة. فكرةٌ واحدةٌ تحرِّك بقية الأفكار، بالتبعية. يُستَحسَن أن يجد "هيفي" جهاز تليفزيون بأسرع ما يمكن.

في بعض الأحيان، يضع أصحاب الحانات جهاز تليفزيون فوق إحدى طاولات البلياردو لمرتاديهم. لكنهم يفعلون ذلك - حمدًا للرب - في مناسباتٍ نادرة، كسباق درّاجاتٍ مهم، أو نهائي مباريات كرة قدم. حفلٌ لـ"روي أوربيسون" حَدَثٌ مهمٌ أيضًا، وبخاصّةٍ أن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعض أغنياته الهادئة لا تزال موجودةً في أجهزة الـ"جيوك بوكس" التي تشغِّل الموسيقى للزبائن مقابل مبلغٍ ماليٍ ضئيل؛ لكن الواقع أن دوره أوشك على الانتهاء، كما أن زبائن الحانات من الشباب يفضِّلون نوعًا مختلفًا من الموسيقى. لم يرغب أحدٌ من أصحاب الحانات في إهانة ذوقنا الموسيقي، لكنهم حرصوا - في الوقت نفسه - على عدم إبعاد أيٍّ من زبائنهم الآخرين. كان عليهم التفكير في مصلحتهم. وهو ما استوعبناه جيدًا. عندما يفسِّرون الأمور لنا بتهذيب، فإننا نفهمها جيدًا.

حلّت الساعة السادسة، ولم يعثر "هيفي" على جهاز تليفزيون بعد. سوف يبدأ "روي أوربيسون" في تمام التاسعة. "روي" ليس من النوع الذي يُبقي جمهوره منتظِرًا. ذلك نوعٌ من الفنَّانين المُدَّعين، الذين **يظنّون** أنهم عظماء. لم يكن خيار مشاهدة الحفل لدى أحدٍ من الجيران مطروحًا، فسُمعتنا صنعت حاجزًا بيننا وبينهم. حاجزٌ أكثر سَماكةً من الحوائط التي تفصلنا عنهم. كان بإمكاننا متابعة الحفل على شاشة أيٍّ من أصدقائنا، الذين سيكونون في الحانات، فــي وقـت الحفـل، ولكنْ لأن الطيور علـى أشكالها تقع، فإنـهم يدركون المخاطر التي ينطوي عليها تركنا بمفردنا داخل منازلهم. كما أن هناك بعض الأسَر التي تتحكم فيها النساء في رجالهن وفي الـ"ريموت كنترول"، معًا. هناك، سيفرضن علينا متابعة فيلمٍ رومانسي لزج. كما أننا رفضنا عرضًا خاصًّا بتسجيل الحفل لنا على شريط فيديو، فالعرض الذي يُبثُّ على الهواء مباشرةً، ينبغي أن يُشاهَد في التوِّ واللحظة، وليس لاحقًا، وإلا فقد سحره.

لم تكن كلمات كـ"الصبر" و"الانتظار" موجودةً في قاموسنا، ولذلك لم يكن مفاجئًا أن ينهي "هيفي" وجوم إخوته، معلِنًا عثوره على تليفزيون.

- أين هو؟ لا أرى أي تليفزيون!

- هناك بعض الناس الذين يمكننا زيارتهم، ومتابعة الحفل لديهم.

- مَن هم؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا أعرفهم. هل ذلك مهم؟

- هل تعني أنك طرقتَ باب منزل غرباءٍ وطلبتَ منهم أن نشاهد التليفزيون لديهم؟ اللعنة! ألا تخجل من نفسك؟ هل وصلنا لمرحلة التسوُّل؟ هل يوجد أحقر من هذا؟

- اسمعوني.. هل تظنون أنني أفعل ذلك من أجل نفسي؟ تريدون مشاهدة "روي أوربيسون"؟ حسنًا، سوف ترون "روي أوربيسون". يا لكم من أوغادٍ جاحدين!

الدخول على ناسٍ غرباءٍ في بيوتهم بأيدٍ خاويةٍ أمرٌ غير معتاد، حتى بالنسبة لنا. ولكن ماذا تعطي أشخاصًا لا تعرفهم، حين لا يكون لديك شيء تمنحه من الأصل؟ على كل حال، هناك صندوق بيرةٍ في الحظيرة، وسوف يفي بالغرض. سوف نأخذ نبتة الدريقة، التي كانت فوق جهاز التليفزيون للزوجة، وبذلك نحلُّ مشكلة العثور على مكانٍ جديدٍ نضع فيه النبتة.

رتَّب لنا "هيفي" أمسيةً في أحد البيوت التي تقع في الصف الأول من المنازل الممتدة على طريق "آرسينديجيم" وأنت قادم من ناحية الغرب. منازل أقرب للحُفَر. إنها مصائد فئران. ذلك النوع من المساكن شديدة التواضع، والتي كنَّا سنقطن مثلها لو لم تستقبلنا جدَّتي في بيتها. برَزَ المنزل رقم 84 بوضوح، بسبب طبق القنوات الفضائية أعلى سطحه، وهو دليل على فقر برامج التليفزيون لديهم، لكن هناك ما يستحقُّ المشاهدة الليلة: "روي أوربيسون". بثٌّ مباشِرٌ من "كوكونت جروف"، وسوف نعيش التجربة من هنا. من أحد مصائد الفئران الواقعة في "آرسينديجيم".

للأمانة، فاجأنا مظهر الرجل الذي فتح لنا الباب. لم يكن ما توقعناه في منزلٍ كهذا. يرتدي بدلةً أنيقة، وله شعرٌ أسودُ لامع، وشاربٌ رائع، يبدو أنه يعتني به يوميًا. له بشرةٌ بُنِّية. حسنًا.. ليست بُنِّيةً بُنّيةً تمامًا.. لكنها سمراء. لونٌ بين الأصفر والبُنِّي. تلك الدرجة من السمرة التي يتحول إليها وجهك عندما تمضي الليل بأكمله قريبًا من مطفأةٍ ملأى بأعقاب سجائر مشتعلة. تلك هي



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السمرة التي أعنيها. على كل حال، حين أتذكَّر الموقف، أستعيد ما قاله "جيردر" وقتها واصفًا لون الرجل، من أنه لون العضو الذكري لرجلٍ بالغ.

قال الرجل:

- مرحبًا!

نفهم معنى الكلمة، لكن استخدامها بمفردها على ذلك النحو، "مرحبًا!"، شيءٌ لم نعرفه إلَّا في الكتب والأفلام. أو في الأفلام وحدها، لستُ متأكدًا بشأن الكتب. واقع الأمر أننا لم نتفوّه بها لأحدٍ من قبل، ولم يستخدمها أحدٌ في استقبالنا أبدًا. ليس في الحياة الواقعية. ربما كان معنى ذلك أننا غير مرحَّب بوجودنا في أي مكانٍ، أساسًا.

- اسمي "ساواش".

-"سا.." ماذا؟

- "ساواش".

- "ساواش".. "واش" كما في كلمة wash أي غسيل؟

- نعم. هاهاها. وهذه زوجتي "مهتي".

- سررتُ برؤيتك.

صافح أبي مضيفه وزوجته، وفعل إخوته مثله. إنهما أجنبيان. ترددت الأقاويل حول المهاجرين، مؤخرًا. لدينا شخصان من إسبانيا في بلدتنا. شخصان من الشيوعيين القدامى، دخل أبي في مناقشاتٍ أيدولوجيةٍ معهما في الحانة. ليس بالإمكان وصفهما بـ"الأجانب". هذه فئةٌ أخرى.

- نحن من "إيران".

- "إيران"؟ حقًّا؟ كانت "إيران" على شاشة التليفزيون بالأمس فقط.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"إيـران" علـى التليفزيون يوميًا، لكننا لم نكن نعرف موقعها بالضبط. المشكلة الوحيدة التي تواجهنا الآن هي التواصل معهما. إنهما لا يعرفان إلا أساسيات اللغة، ومع ذلك فإنهما في الحقيقة يتحدثان لغتنا أفضل منَّا نحن. يستخدمان لغةً هولنديةً رصينةً وصحيحة. هولنديةٌ حقيقية. والآن، صار علينا التخلِّي عن لهجتنا الفلمنكية، والاقتصار على بضع كلماتٍ بسيطة، في جُمَلٍ قصيرة.

سأله "هيرمان":

- أنتَ من المعجبين بـ"روي أوربيسون"؟

- كلَّا. هل هو بلجيكي؟

- لا، "روي أوربيسون" مغنٍّ أمريكي. من "تكساس". "الوحيدون فقط" أشهر أغنياته. الزوجة ماتت في حادث. "بانج!". الأولاد ماتوا في حريق. "بوم!".. "ووش"! تفهمني؟ الآن، "روي" يغني مرةً أخرى. على التليفزيون. بعد قليل. الساعة التاسعة. هلا فتحت التليفزيون إذًا؟ شكرًا.

نظرنا حولنا. هناك العديد من الكتب فوق الطاولة. قواميسُ، وصحفٌ إنجليزيةٌ وبلجيكية، ودواوين شِعر.

- أنت رجلٌ متعلِّم؟ تقرأ الشِعر!

- أنا أحفظ الشِعر عن ظهر قلب، كي أستوعب إيقاع اللغة الهولندية.

- تستوعب إيقاع اللغة؟

ابتسمت زوجته ابتسامةً فاتنة.

- هلَّا تلقي علينا قصيدةً، سيد "ساواش"؟

بدا واضحًا أنه لم يكن يرغب في ذلك، لكن امتناعه عن تنفيذ طلبنا يعرِّض فكرة اندماجه في المجتمع للخطر. تبادل النظرات مع زوجته، التي قالت:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سوف ألقي عليكم أنا قصيدةً. مقطعًا واحدًا.

إنها تنقذ زوجها. تصرُّفٌ مثل هذا لا يصدر إلا عن امرأةٍ أجنبية.

سعلت، وحكَّت جلدها، ثم قالت:

."تحت الماء..

كل الزجاجات الفارغة ملأى

يظل الصمت هناك دون صوت

مثل قلعةٍ من وراء لوحٍ زجاجي

مثل زهرة بنفسجٍ جفَّت داخل قاموس".

صفّقنا بحماسٍ بالغ. وضع "جيردر" إصبعيه في فمه، ثم أطلق صفيرًا عاليًا. راقبنا احمرار خدَّيها بافتتان. كان ذلك شيئًا اكتشفناه للتوِّ: وجوه الناس السُمر تحمرُّ مثل وجوهنا.

قال "هيرمان":

- جميل. إلقاؤكِ جيِّد. جميل.. جميل. أنا تأثرتُ من الداخل. ألقِ الشِعر في جنازتي من فضلك.

تساءل أبي:

- "تحت الماء.. كل الزجاجات الفارغة ملأى"، كيف يأتون بمثل هذه العبارات؟

ظل يستعيد هذا البيت، طويلًا.

ربَّما كان الوقت قد حان لتقديم هدايانا لهما، لكن أبي واصل الجلوس على الكرسي، واضعًا صندوق البيرة على الأرض بين قدميه. قال بشيءٍ من التردد:

- جلبنا بيرة. لا نأتي بأيدٍ فارغة. مسموحٌ لكما بالشُرب في دينكما؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا نريد توسيخ كؤوسكم النظيفة. نحن نشرب من الزجاجة مباشرةً. البلجيكي الحقيقي، التقليدي، يشرب من زجاجة.

أعلنَّا نخب إيران وبلجيكا، و"روي أوربيسون" الذي سيدقُّ الناقوس بعد عشر دقائق معلنًا بدء عودته السعيدة. ثم قدَّمنا النبتة لسيدة المنزل. كان علينا أن نقدمها لها قبل البيرة، ولكن مَن يهتم أصلًا؟ قَبِلتها "مهتي" بامتنان. كرَّرت كلمة "دريقة" عدَّة مرَّات، فأدركنا أن الكلمة ليست ثقيلةً أو قبيحةً كما كنّا نعتقد. أضافت أنهما سعيدان بحضور ضيوف بلجيكيين لزيارتهما أخيرًا. لم يكن تأسيس علاقاتٍ مع الآخرين أمرًا سهلًا.

- تعاليا إلى الحانة. ستكونون علاقاتٍ بمنتهى السرعة. اجتماعيةً. انضما إلى نادي البلياردو. سأعلِّمكم لعب البلياردو والشُرب. ويصير لديكما أصدقاءٌ بسرعة.

تساءل أبي:

- كم الساعة الآن؟

كان يعرف الوقت، لكنه لم يستطع أن يطلب منهما الإسراع في فتح جهاز التليفزيون. كان ذلك منافيًا للذوق.

قال "ساواش":

- "وحتى دونك.. ستدقُّ التاسعة".

- ماذا؟

- إنه بيت شِعر أحفظه. أظنُّ أنه جميل.

- أنا أفضِّل "الزجاجات الفارغة".

كان العرض قد بدأ، لكن المسرح لا يزال فارغًا. تقترب عدسة الكاميرا من الجمهور، وتركِّز على وجوهٍ بعينها لبعض الوقت، ما يوحي بأن أصحابها من المشاهير، لكننا لم نتعرّف عليهم. لا نحن، ولا "ساواش". جلس الناس إلى مناضد صغيرة، عليها دِلاءٌ بزجاجات شمبانيا. نحن بدورنا كنّا مستمتعين بصندوق البيرة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الـذي أحضـرناه. انبعثـت أصـوات ضـبط آلات الجيتـار مـن وراء ستارة المسرح. اقتربت اللحظة الموعودة.

سألهما "جيردر":

- هل تمانعان في رفع صوت التليفزيون؟

ودون انتظار ردِّهما، قام بتعلية الصوت لأقصى درجةٍ ممكنة.

قالت "مهتي":

- الجيران!

الحقيقة، أنها اضطرت للصراخ.

- قولي للجيران إنكِ صديقة "جيردر". الجيران يعرفون "جيردر". قولي للجيران: أنتم تصنعون مشكلة، يضربكم "جيردر" باللكمات. جيران يفهمون.

انتهت تلك النقطة إذًا.

ظهر أعضاء الفرقة الموسيقية على خشبة المسرح. في لحظة، منح التاريخ نفسه فرصةً ثانيةً أفضل من سابقتها، لأن العازفين وراء "أوربيسـون" فـي هـذا الحفـل ليسـو سـوى فرقـة "إلفـيس بريسلي" ذاتها. لسنا ضدّ "إلفيس". كان "إلفيس".. ماذا تحديدًا؟ شيئًا كبيرًا. لا شكَّ في ذلك. لكن "روي أوربيسون" كان أكبر. ثم ظهر عازفو آلة الكمان، بملابس سوداء، ونظاراتٍ شمسيةٍ تشبه نظارة "أوربيسون" الشهيرة. الأجواء مثيرةٌ وحماسية.

سألتنا "مهتي":

- هل هذا هو "روي أوربيسون"؟

- هل أنتِ غبية؟ إنه "جيمس بيرتون". كان عازف جيتار لـ"إلفيس".

- آه! "إلفـيس"! "مـرةً للمـال.. والثانيـة للعَرض" كلمـات أغنيتـه الشهيرة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمرٌ متوقّع. تعرف "إلفيس" فقط.

قال "ساواش":

- تُرجِمَت أغنيات "إلفيس بريسلي" إلى اللغة السومرية الفارسية.

كانت تلك محاولة لإغراقنا بمعلوماتٍ لا جدوى لها. لن يواصلا الثرثرة عن "إلفيس" أو اللغات الصحراوية، أليس كذلك؟ سوف يظهر "روي أوربيسون" على المسرح خلال ثوانٍ معدودة. تحرَّك الضيوف من مشاهير الموسيقيين باتجاه الأضواء: "بروس سبرينجستين"، و"توم ويتس"، و"كي دي إيانج"، و"إلفيس كوستيلّو"، و"بوني رايت"، و"جاكسون براون"، و"جينيفر وارنز".. حرص عددٌ كبيرٌ منهم على حضور الحفل.

- هل هذا هو "روي أوربيسون"؟

كان هذا "ساواش"، هذه المرّة.

- كلَّا طبعًا! إنه ليس "روي أوربيسون"، بل "بروس سبرينجستين". سوف أخبرك عندما يظهر "روي أوربيسون". الصبر، "ساواش". الصبر. كل شيءٍ في أوانه.

آن الأوان في تلك اللحظة، إذ ظهر "روي" على المسرح. علَّق حزام الجيتار حول رقبته، وحيَّا جمهوره بإيماءةٍ وَدودةٍ من رأسه. كان هو حقًّا. لم يخدعونا. بُعِثَ "روي أوربيسون" من جديد. "هللويا" الشُّكْرُ للرب! وثبنا من فوق الأريكة، تمامًا كما فعل الحضور في الحفل، والذين قفزوا عن مقاعدهم، وراحوا يصفقون له بحماس. شاركناهم التصفيق، مقتنعين أن بإمكانه سماعنا.

سألنا "ساواش":

- هل هذه هي العادة هنا؟

أراد أن يعرف، ولكن كان ينبغي عليه أن يخرس.

علَّقت "مهتي":



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هذا إذًا "روي أوربيسون"! إنه عجوز.

افتتح الكورَس الذي يغنّي وراءه العرض، بقيادة "كي دي إيانج"، مردّدين:

- دم دم دم.. دمدي دوواه..

صدح "روي" بعبارة "الوحيدون فقط". انتقلنا للجنّة. لأعوام، استمعنا إلى تسجيلاته، دون ملل؛ لكنها المرّة الأولى التي نراه فيها وهو يغنّي إحدى أغنياته الأسطورية. حان الوقت لرؤيته، أخيرًا. لاحظنا أن "روي" بالكاد يفتح فمه. ليس بدرجةٍ كافيةٍ تسمح لنا بمعرفة إذا كان لا يزال يمتلك أسنانًا. إنها معجزة. أطلقت حنجرته صوتًا قويًا، كان كفيلًا بتمزيق زوايا فم أي مطربٍ آخر بعد أن يضطر لفتحه على اتساعه؛ أمّا هو، فكان يفعل ذلك بمنتهى السهولة ودون أدنى جهد. غنّى النغمات المرتفعة عبر أنفه. لم يلجأ لهزِّ جسده، أو لَفّ سلك الميكروفون حول رأسه، كما لو كان فخ صيد. لا شيء من ذلك. استمرّ في الوقوف بثباتٍ واستقامة، مدركًا أنه أصبح أسطورةً بينما لا يزال على قيد الحياة. وتلك الملابس! قميصٌ من قمصان رعاة البقر، يزيّنه خيطٌ بارز. لو أن أحدًا غيره ارتداه، لبدا سخيفًا؛ ولكن ليس "روي أوربيسون". أحرجَ بأدائه مَن يُعرَفون بـ"موسيقيي الموجة الجديدة"، والذين بدؤوا يحققون انتشارًا واسعًا، ويثيرون اهتمام الناس بملابسهم السوداء والـ"ماسكارا" التي يضعونها. منح "روي أوربيسون" اللون الأسود بُعدًا جديدًا. كان يجمع بين "الموجة الجديدة" والـ"روك آند رول" في آنٍ واحد. علينا أن نشرب نخب ذلك.

أتيحت لنا فرصة إظهار الوجه الحقيقي لـ"بلجيكا" أمام "مهتي" و"ساواش" عبر قفزاتنا المتكررة فوق أريكتهما بسعادة، وقذف الوسائد الصغيرة باتجاه السقف، بينما اعتلى "جيردر" الطاولة، وراح يرقص فوقها، محتضنًا أحد الكراسي. بادر الناس - الذين تعاملوا معنا باعتبارنا أمّةً كئيبةً ومتحفظة - بإزاحة قطع الأثاث في غرفة المعيشة جانبًا، لإتاحة مساحةٍ للرقص. أمسك أبي



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بتمثالٍ صغيرٍ وراح يسير به في أرجاء الغرفة. عثر "هيرمان" أيضًا على شريكٍ للرقص، بعد أن أنزل إحدى اللوحات من مكانها على الحائط.

- "مهتي"! ألا ترقصون رقصًا شرقيًا في إيران؟ هيا، "مهتي"، أرينا بعض الرقص الشرقي، لم تسبق لنا رؤية ذلك في الحقيقة.

ودون تفكير، رحنا نردِّد بحماس:

- هيّا يا "مهتي"! عرِّفيهم معنى الرقص! هيّا!

نعم، كنّا نشعر بأهمية عودة "روي أوربيسون"، ومدى تغييرها للتاريخ. علينا أن نستعدّ لمرحلةٍ طويلةٍ من السعادة الخالصة. يبدو أن الموسيقيين على المسرح شعروا بذلك أيضًا. "بروس سبرينجستين" يبتسم ابتسامةً كبيرة. ليس لسعادته بكونه "بروس سبرينجستين". كلا، بل لأن العزف مع "روي أوربيسون" هو تحقيق لأحد أحلامه القديمة. شاركه بقية العازفين مشاعره. كان ذلك واضحًا. راح "توم ويتس" يضرب أصابع آلة الأورج بمنتهى الحماس. راح يثني جسده، حتى كاد رأسه يصل لقدميه. يبدو أن مهندسي الصوت اضطروا لتخفيض صوت آلته، تمامًا، إذ راح يعزف نغماتٍ خاطئة، وفشل في مجاراة الإيقاع. المزعج الوحيد بينهم جميعًا، هو "إلفيس كوستيلّو". لم يكن بإمكاننا تحمّل ذلك الغبي القبيح. كان أقرب لطالب اقتصادٍ مُستَفِزّ. هناك شيءٌ مخيفٌ في مظهره الموحي بثقافةٍ زائفة. عدا ذلك، لم يكن لدينا ما يزعجنا. إنه عرضٌ لا يتكرر سوى مرتين أو ثلاثةٍ كل قرن. لولا "إلفيس كوستيلّو"، لكان العرض فريدًا من نوعه حقًّا.

لثماني أغنيات، خشيت "مهتي" على أواني زهورها، بسبب رقصنا المتواصل. ثم بدأ "روي" يغنّي عمله الخالد "في الأحلام". أغنية عن حكاية حبٍّ ضائع. لم يعد موجودًا سوى في الأحلام، ما يجعل الاستيقاظ أمرًا مؤلمًا. الأغنية مليئةٌ بالمشاعر. بالنسبة لأبي، على الأقل، الذي لم يعد يستطيع تحمّل كل ذلك الإبداع الأسطوري. دفن أبي وجهه في مخدّات الأريكة، وانخرط في بكاءٍ مرير، بصوتٍ مرتفع. شرح "هيرمان" الوضع لمضيفينا:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- "بي" حزين. اتركوه. زوجة "بي" تركته. منذ زمنٍ طويل. باي باي. زوجته ذهبت بعيدًا مع شخصٍ آخر. هي عاهرة. أتفهمان؟ زوجته تمارس الجنس مع رجلٍ آخر.

وكي يتأكّد من أنهما يفهمان ما يقول، دعم "هيرمان" عباراته بحركاتٍ بسيطة، لا تخفى إيحاءاتها على أحد.

لم تفلح جهود "مهتي" في مواساة أبي. الواقع أن لمسة يدها الناعمة على كتفه، جعلت الأمور أكثر سوءًا. حاول "جيردر" التسرية عنه. قال له:

- لن تمضي الليل بأكمله وأنت تبكي وتنوح لأن شخصًا لعينًا، غيرك، ينام مع تلك العاهرة القذرة من باب التغيير!

لكن ذلك لم يؤدِّ للنتيجة المطلوبة؛ وبخاصّةٍ أن الأغنية التالية كانت "بكاء"، وهي مثيرةٌ للأحزان والدموع. تركه أعمامي مستلقيًا على الأريكة، وعاودوا الرقص فوق الطاولة، على أنغام "رجل الحلوى"، بطريقةٍ أكثر بهجة، وراحوا يؤرجحون أجسادهم بمرح. في تلك الأثناء، لازم "ساواش" أبي، وأسَرَّ إليه بأنه يفهم تمامًا معنى الاشتياق لأحد، فقد ترك أمَّه في إيران. لثوانٍ، خشينا أن ينضمَّ إلى أبي في نحيبه.

واصل أبي البكاء، حتى عقب انتهاء الحفل. ارتفع صوت نشيجه ونحن نجرّه عبر الباب إلى الخارج، ونشكر صديقينا الإيرانيين، ونطلب منهما مسامحتنا على إزعاجنا لهما. وعدناهما بالعودة سريعًا لدفع ثمن المزهرية التي تحطمت خلال رقصنا. كنَّا نعني ذلك حقًّا. من جانبهما، أكّد الزوجان عدم أهمية ذلك. عادَ "روي أوربيسون"، وتلك إشارةٌ بالسعادة وبداية مستقبلٍ جديدٍ لنا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 5- حبيبة أبي الجديدة

ظلّت علاقتنا بالجسد الأنثوي دائمة، لكن طبيعتها اختلفت من مرحلةٍ لأخرى، كما يحدث مع معظم الأشياء في الحياة. دامَ هوسنا بالتحديق في النهود، وتقييمها، لوقتٍ طويل، لكنه اختفى في النهاية، مفسحًا الطريق لمرحلةٍ جديدةٍ، هي: الهوس بالمؤخرات. اختلفت آراؤنا بشدّةٍ في هذا المجال، ما أتاح لنا فرصًا للنقاش والمجادلة. حين وقفتْ امرأة، لم تسبق لنا رؤيتها من قبل، ببابنا، تطلب مقابلة أبي، بطريقةٍ راقيةٍ ومهذّبة؛ كنّا نحن في قمّة مرحلة الهوس بالجانب الداخلي من الأفخاذ النسائية، ولذلك أحسسنا بامتنانٍ رهيبٍ لكوننا في فصل الصيف، وبالتالي كانت الزائرة ترتدي تنّورةً قصيرةً رائعة.

ومع ذلك، كنّا على وشك فقد فرصة رؤيتها، من الأساس، إذ حين دقّت جرس الباب، تنبّأت جدَّتي "ماريا" بأن القادم هو ضابطٌ من رجال الشُرطة، أو أحد دُعاة "شهود يهوه".

فتح "جيردر" الباب، وتركّزتْ نظراته على تلك التنّورة القصيرة. الواقع أننا كنّا نحبّ الأفلام الإيطالية، لا لشيءٍ عدا مشاهدة تنانير الـ"ميني جيب". لم نستغرب تصفيره فور مشاهدة الزائرة، فقد صارت هذه عادته مؤخرًا كلّما لمح جسدًا متماسكًا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إن كنتِ من "شهود يهوه" يا حُبّي، فبإمكانكِ تحويلي لواحدٍ منكم، حالًا. أخبريني، أين أضع اسمي في قائمتك؟

- هل يعيش "بيير فيرهولست" هنا؟

- تقصدين "بي"؟ هل جئتِ من أجل "بي"؟ تفضلي!

اعتدنا ظهور النساء بباب بيتنا، ولم نكن بحاجةٍ لسؤالهن لأيّ رجلٍ تحديدًا جِئن، فكلّ واحدٍ منّا يعرف ذوق الآخرين. كان "جيردر" بالغ الجاذبية للعاهرات اللاتي ودّعن شبابهن، واللاتي يشعرن بنشوةٍ حقيقيةٍ مع رجالهن. عاهراتٌ ينتعلن أحذيةً ذات كعوبٍ عاليةٍ ورفيعة. يغرقن أجسادهن بكريماتٍ مُعطِّرة، لها روائح الشامبو المخصَّص للكلاب. معظمهن يدخنّ سجائر "مارلبورو لايتس"، وينفثن الدخان بنفخاتٍ صغيرةٍ وشفاهٍ مضمومةٍ تدرّبن عليها أمام المرآة منذ زمنٍ طويل. بدأت وجوههن تفقد نضارتها وتماسكها، ولهنّ أنوفٌ بزوايا تزيد عن خمسةٍ وأربعين درجة. يطلين أظافرهن باللون البنفسجي الفاتح، ويحملن أسماءً تعيسة، مثل "سيندي"، و"ويندي"، و"شانتال"، و"نادين". يُجِدن طبخ الإسباجيتي، ويعرفن الحروف الأبجدية. اعتاد جلبهن إلى البيت في إجازات نهاية الأسبوع من صالة "ديسكو" تُدعى "بارتريدج". ولمَّا كنتُ أشارك "جيردر" فراشه، فقد تعرّفتُ إلى النوعية التي يفضِّلها من النساء، بكل ما في ذلك من تفاصيل مُحرِجة.

أمَّا "هيرمان"، فنساؤه مختلفاتٌ تمام الاختلاف. فبسبب أحزانه الداخلية، وملامحه الكئيبة، كان يجتذب ذوات الغريزة الأمومية القوية. كُنَّ يضعنه تحت أجنحتهن، كفرخٍ بحاجةٍ للحماية. بصبرٍ، في بادىء الأمر، مع اقتناعٍ تامٍّ بأنهن سينجحن في وضعه على الدرب القويم. يتميزن بالشجاعة، وبالدمامة الشديدة كذلك. أسنانٌ كبيرةٌ، أشبه بأسنان الأحصنة، وعيونٌ جاحظة، وعادةً ما تنتهي وجوههن بأذقانٍ طويلةٍ وبارزة. أمَّا شخصيات تلك النسوة الملعونات فلا تختلف في شراستها عن طباع الغربان. أصواتهن حادَّة، ويتعاملن معنا باستعلاءٍ واضح، معتقداتٍ بأن جلوسهن -



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في فترةٍ ما من حياتهن - أمام أجهزة الكمبيوتر، أو حصولهن على شهادات دبلومٍ في المحاسبة، يجعلهن بالضرورة أفضل منَّا. تتلخص مأساة "هيرمان" في أنه تزوج وأنجب من كل واحدةٍ تعرَّف عليها، ما جعله يدفع مبالغ طائلةً كنفقةٍ لأبنائه، ومع ذلك استصدرن أحكامًا قضائيةً ضدّه، تمنعه من رؤية أطفاله. نتفهم إلى حدٍّ كبيرٍ رفض النساء لطريقتنا في الحياة، ولكن كان عليهن التحلّي بقدرٍ من الاحترام يجعلهن يرفضن الزواج من أحد أفراد أسرتنا.

كنتُ أفضّل فتح الباب للنساء اللاتي يأتين للقاء "هيفي". رائعاتٌ، لدرجة أنني كنتُ أحبّهن في صمتٍ وسِرّية. امتلكن ذكاءً أيضًا، وهو ما كان يجعلهن يهجرنه بعد فترة. في أغلب الأحوال، كُنَّ أمهات لأطفالٍ من رجالٍ آخرين، وكُنَّ يستخدمن "هيفي" كجسرٍ يحملهن إلى مرحلة الطلاق، وبدء حياةٍ جديدة. ذواتُ شعرٍ أسودَ أو أحمر، وابتساماتٍ بسيطة، لا أثر فيها للفلسفة. أتين من مختلف أنحاء أوروبا. حملت إحداهن اسم "فاندنبرويك"، وتلتها "آنجلوفيسكي". تمتعن بدرجةٍ واضحةٍ من الرُقيّ. تمنيتُ أن يصبرن على عائلتنا، ويبقين مرتبطاتٍ بها، إلى أن أكبر واختطفهن من عمّي. تقبلّتُ فكرة الضرب الذي سأتلقاه عقابًا على فعلتي تلك.

لكن المرأة التي تقف ببابنا الآن، وتطلب لقاء أبي، كانت مُبهِرةً للغاية. مُبهرةً، ومتعلّمةً، ومثقفةً، لأنها تحمل في يدها حقيبة أوراقٍ وملفّاتٍ، مصنوعةً من الجلد، وتضع نظارةً أنيقةً على أحدث طراز. لا بدّ أن هناك مَن يجمع تلك النظارات بهَوَس. ربَّما كانت موظفةً في بنك، أو مؤسسةٍ قانونية. ذوق أبي في نسائه لا يخرج عادةً عن إطار عاملات نظافةٍ بمظهرٍ أشعث، أو صاحبات حانات، سِكّيراتٍ ومتقدّماتٍ في العُمر. منذ طلاقه، لم يظهر في مكانٍ عامٍّ مع إحدى صديقاته إلّا مرّةً واحدة. عاهرةٌ بشعة، استخدمها كبديلٍ لأمّي. خجلتُ منه حينها. ردّ الفعل المتطرف من قِبَل المقرّبين من دائرته حيالهما، جعله – فيما بعد - يحتفظ بمغامراته الشهوانية لنفسه. كان ذلك أفضل للجميع، ولي أنا على



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحوٍ خاصّ. والآن، يقف هذا الكائن الرائع أمامنا، طالبًا لقاءه. لا شكَّ أنك فهمتَ الآن سبب دهشتنا البالغة. أشار لها "جيردر" بالدخول، وتابعها بابتسامةٍ كبيرةٍ على وجهه. حاول "هيرمان" إلقاء نظرةٍ خاطفةٍ بين ساقيها. التنورة قصيرةٌ بما يكفي لتحقيق ذلك. سوف نُشبع نهمنا، ما إن تتوقف هذه المخلوقة عن الحركة، وتجلس على الكرسي.

قال لها "جيردر":

- اجلسي. سأنادي "بي" من أجلك.

قال لنا "هيرمان" بصوتٍ خافت:

- صندوقٌ كاملٌ من البيرة، لأول من ينجح في رؤية سروالها الداخلي.

ردَّ "هيفي":

- صندوقان.

- اتفقنا. صندوقان.

ورغم أن "جيردر" كان قد خضع لعملية غسيل معدةٍ مؤخرًا، إلّا أنه راهن على ثلاثة صناديق.

لم يكن العثور على مقعد لها أمرًا سهلًا. كانت معظم كراسينا على وشك التحطّم، ولا يُعتَمَد عليها منذ أن قذفها أبي إلى الجدار، وهو غاضبٌ وسكران. ليس بإمكاننا شرح المسألة لها الآن. سوف تكتشف هذا الجانب من شخصيته سريعًا. لن نحرمها متعة الاكتشاف! في نهاية الأمر، جعلناها تجلس أمام أحد أركان طاولة القهوة. اضطرت لفتح ساقيها قليلًا، بسبب رِجل الطاولة بينهما. بقينا في مكاننا، في المطبخ، على بُعد مسافةٍ آمنة، وانهمكنا في تقييم هذا الجسد. أدركنا أننا لو كنّا لا نزال في مرحلة الوَلَه بمنطقة الصدر، لحازت هذه المرأة إعجابنا أيضًا. لم نعد جلوسًا، بل تمددنا على مقاعدنا، آملين في الحصول على صناديق البيرة الثلاثة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان جهاز التليفزيون الجديد يعرض شيئًا ما، لكننا لم نتابعه. سنتمكن من تسديد ثمنه بالكامل، بعد ثلاث سنوات. تليفزيوننا مفتوح، معظم ساعات اليوم. إنه الموقد الذي يحرق إحباطات الحزانى. "بي بي سي 2". مسابقات سِهام الـ"دارتْس". بريطانيون سِمان، بوجوهٍ مليئةٍ بآثار حَبِّ الشباب، يقفون وراء خط، ويحاولون تسجيل مائةٍ وثمانين نقطة، بثلاثة سِهام. كانت متابعة المنافسة، أو عدم متابعتها والاكتفاء بتحمّلها، بمعنى أصحّ، أمرٌ يبعث على الشعور بالارتياح والصفاء. وهو ما يحدث أيضًا مع لعبة البلياردو، التي نغفو أمامها أحيانًا في الثالثة فجرًا.

سألتنا السيدة:

- هل تتابعون هذا باستمرار؟

في تلك اللحظة، تحديدًا، كنا نتابع شيئًا آخر، ونحاول تسديد مائة وثمانين نقطةً مع هذه المرأة الجالسة في مواجهتنا، لكن "هيرمان" أجابها:

- قدر ما نستطيع.

أضاف "هيفي" محاولًا تصحيح الوضع:

- كي نحسّن من إنجليزيتنا.

انفجروا في الضحك، دون أن يفكّروا للحظة بأن الضحك يُظهِر أسنانهم الأكثر تعفنًا.

في تلك الأثناء، عاد "جيردر" من غرفة النوم، معلنًا:

- لم أتمكن من إيقاظه! سوف أعيد المحاولة بعد دقائق.

- سوف أنتظر. لستُ متعجلة.

ليس في الأمر ما يثير الدهشة، فلم يمضِ على نومه وقتٌ طويل. سمعناه جميعًا حين عاد ذلك الصباح. سمعنا تبوله في حوض الحمّام، مصدرًا نغماتٍ فنّيةً هي مزيجٌ من أصوات "نينا سيمون"



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

و"خوليو إيجليسياس" و"روي أوربيسون". سمعناه وهو يسقط من أعلى الدرج، آخذًا معه البراويز المعلّقة على الحائط المجاور. ثم صوت سُبابه، ولعناته المنصبّة على أمّي وعددٍ من السياسيين الليبراليين. بعدها، خاض حربًا مع رباط حذائه. بعد محاولاتٍ عديدة، تمكن من خلع ثيابه، التي حملت رائحة مزرعة تبغٍ كاملة. فتح النافذة المطلّة على الشارع، وراح يغنّي النشيد الوطني للاتحاد السوفييتي، وهو عاري الجسد تمامًا، بلغة غريبة ظن أنها اللغة الروسية. استسلم للنوم، بصداعٍ حاد، وقلبٍ مُفعَم بحُبّ "ماركس" و"لينين". كان ذلك قبل أكثر من أربع ساعاتٍ فقط.

- هل تريدين بعض القهوة؟

لم تُرِدْ القهوة.

- شيءٌ آخر ربَّما؟ شايٌ؟ مشروبٌ غازي؟ أو بيرة مثلًا؟ الجوّ حارّ بما يكفي لتناولها.

رفضت تمامًا.

- أنتِ امرأةٌ مريحةٌ لمن يواعدها. أنتِ حقًا كذلك.

قال لي "جيردر"، هامسًا:

- إن كانت ستصبح أمَّك الجديدة يا ولد، فسوف تعاني لإبقاء يديك بعيدًا عنها.

قال ذلك وهو يرفع مؤخرته.

- "جيردر"، وجّه غازاتك الكريهة تجاه أحدٍ آخر، أيها التيس!

- لم أطلق غازًا، يا غبي.

- حقًّا؟ ما هذه الرائحة العفنة إذًا؟

. أنفك هو المتعفن، ربما.

"أمٌ جديدة"؟ لم أفكر في المسألة على هذا النحو. هل كانت تلك احتماليةً أصلًا؟ أن يرتبط أبي بامرأةٍ أخرى، وأن ننتقل للعيش



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معها؟ امرأةٌ تختار لنا ملابسنا، وتخبرنا بأن الجوارب الخضراء تبدو بشعةً مع البنطلون الأحمر؟ امرأةٌ تكون سببًا في عودة أبي إلى البيت مُباشرةً، عقب انتهاء ساعات العمل؟ امرأةٌ نذهب معها في إجازة لأسبوعين إلى "آردينيس"، حيث نقيم في شاليه، ونلتقط معًا الكثير من الصُوَر، ونستأجر قاربًا، ونتنزه سيرًا على الأقدام، ونحن نرتدي معاطف بلاستيكيةً ذات ألوان فاقعة؟ هل ستهتم بسؤالي عن أنشطتي المدرسية، أو تساعدني في تأدية واجباتي؟ ربَّما أدّى ذلك مثلًا - أقول مثلًا - لحصولي على درجاتٍ جيدة، تعينني على التخلّص من البطالة الخالدة المُحتَمَلة وحياة الكسل. سوف نعاود تنظيف أسناننا بالفرشاة، ثانيةً، ونحرص على وضع ملابسنا الداخلية المتسخة في سَلّة الغسيل، بدلًا من رميها على الأرض، برائحتها الكريهة، إلى أن تمرّ الجدّة وتجمعها، لتغسلها وتدعكها بحجرٍ خفاف، محاولةً إزالة البقع عن القماش القطني. سوف نبدأ في تسديد فواتيرنا في مواعيدها المستحقة على الأغلب؛ وسوف نمسح بولنا بمنديلٍ ورقي، إذا تساقط على حوافِّ المرحاض أو فوق الأرض. سنجمع أعقاب سجائرنا من على الأرض؛ ونضع نَعلًا داخليًا لامتصاص الروائح الكريهة، في أحذيتنا.

- ربَّما سمحتْ لك بالاستحمام معها!

واصلت المرأة الجلوس وهي تشعر بالغثيان من نظراتنا المتآمِرة، ولاحظتْ بطبيعة الحال أننا مستغرقين في التفكير بها. أحسّتْ بعدم الارتياح بسبب رِجل الطاولة بين ساقيها. أدركنا أن الوضع سيكون أكثر بهجةً لها، لو أننا أشركناها في حوارنا. تولّى "هيرمان" القيادة، وقال لها:

- آسف، ولكن هل تزعجكِ رِجل الطاولة كثيرًا؟

- عفوًا؟

- رِجل الطاولة. هل تزعجك؟

- آه! هذه! كلّا. إطلاقًا. أشكرك.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حسنًا، أنا منزعجٌ، لأنها تمنعني من التمتع برؤيتك بوضوح (هاهاهاها!)

كانت نيّتنا سليمةً، تمامًا، لكن يبدو أنها لا تتمتّع بروحٍ مرحةٍ أو خفّة ظلّ. علينا معالجة هذه المشكلة. من المؤكّد أننا أثرنا أعصابها. رُحنا نتخيّلها وهي توبّخ أبي بسبب سلوك إخوته اللزج. ستدرك أنه مثلنا، لأن الدم الذي يجري في عروقنا جميعًا واحد. لا شكَّ أنها تتذكَّر شيئًا من حصص مادّة الأحياء في المدرسة. حين تنتهي من تأنيب أبي، سوف يبتعد قليلًا، معلنًا: "لكن إخوتي مجموعةٌ من الخنازير، يا حبيبتي، وأنا لستُ مثلهم أبدًا".

- هل أنت "ديمتري"، بالمناسبة؟

سألتني، فجأة، لإحساسها بالملل، على الأغلب.

- أنا؟ آه.. نعم.

- سمعتُ الكثير عنك.

فكرة أن يتحدّث أبي عن ابنه مع حبيبته الجديدة، أمرٌ مؤثّر، لدرجة تدفعك للبكاء. لن تشعر إلا بالأسى حيال شخصٍ حياته مُثقَلةٌ بوجود طفلٍ فيها. يضطرُ لإخبار كل امرأةٍ جديدةٍ يلتقيها بأنه كان من الغباء بحيث وضع كعكته داخل فرن امرأةٍ رخيصة! وما إن يتفوّه بتلك المعلومة، حتى يرى فُرَصه في الارتباط وهي تتضاءل أمام عينيه؛ ذلك أن القليل من النساء يرحّبن بالاعتناء بطفل شخصٍ آخر.

- كم عُمرك؟

- أنا؟.. آه..

الثالثة عشر. كنتُ في الثالثة عشر، وأعيش مع أبي وأعمامي وأمّهم العجوز في "آرسينديجيم". بلدةٌ ينساها رسّامو الخرائط، العِظام. بلدةٌ قبيحة، وراكدة، لا يميّزها سوى الأمطار وتربية الحمام.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحسّ "جيردر" بأنّ الحوار يتجه إلى أمرٍ تافه - وهو مُحِقّ - ولذلك كرّر محاولته في إيقاظ أبي. كان ذلك، دون أدنى شَكّ، أحد أصعب المهام على وجه الأرض. سعدتُ بأن "جيردر" بادرَ بتنفيذها، ولو لِمَرّة. ولأن صعود ثلاثة عشر دَرَجة، على السُلَّم، مرتين متتاليتين، مسألةٌ شاقّة، فقد اكتفى بالصراخ من الأسفل:

- "بي"! استيقظ يا أخي! انهض. هناك قطةٌ حلوةٌ جاءت للقائك.

- ها؟

- أقول لك بأنه لدينا قطةٌ حلوةٌ أتت لرؤيتك.

- قطة؟ ما اسمها؟

التفتَ "جيردر" تجاه المرأة، وسألها:

- ما اسمكِ؟

- "نيللي فوكيدي".

- حقًّا؟

فتّش "هيرمان" تحت الطاولة عن عقب سيجارته المشتعل. وقال بصوتٍ منخفض، ساخرًا من اسمها:

- "فاك آ داي"! يومٌ ملعونٌ يعني!

صاح "جيردر" ثانيةً:

- "بي"، اسمها "نيللي فوكيدي".

- أنت أيها الأحمق! جرِّب خدعةً أخرى توقظني بها المرّة القادمة. والآن، دعني أنام.

- أنا جادّ. "نيللي فوكيدي". إنها تجلس هنا منذ ساعة، ولم تشرب شيئًا بعد.

- كيف تبدو؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا بأس بها. يبدو أنها موظفةٌ ذات دَخلٍ جيّد.

- ما معنى هذا؟ أسألك عن مظهرها.

- شَعرٌ بُنّي. حوالي 58 كيلوجرام. تضع نظّارةً طبّية. بالنظر إلى ساقيها، يمكنني التخمين بأنها تمارس رياضة الركض. لها ثديان جميلان أيضًا.

قال "هيرمان"، بعد أن استعاد عقب السيجارة من تحت الطاولة:

- ويمكنك أن تضيف بأنها تلبس سروال داخلي أبيض!

- أيها المزعج! هل أنت متأكّد؟ اللعنة! ها قد ذهبت ثلاثة صناديق من البيرة سُدى!

جاءنا صوت أبي، من جديد:

- هل هي امرأة الليلة الماضية؟

- أيتها السيدة، هل أنتِ امرأة الليلة الماضية؟

لم تجبه السيدة.

- "بي"، لقد رفضتْ الإجابة عن السؤال.

- لقد أخبرتُها بأن تدعني وشأني.

- أيتها السيدة، يقول "بي" بأن عليكِ تركه وشأنه.

لكن السيدة واصلتْ الجلوس بهدوءٍ وتصميم.

- "بي"، إنها لن تستسلم. انزل يا أخي، وحِلّ المشكلة بنفسك!

- اللعنة! هل هي حامل؟

- وما شأني بذلك؟ إن أردتَ أن تعرف ما إذا كانت حاملًا أم لا، فعليك أن تغادر سريرك وتسألها بنفسك. انتهى دوري.

- انتظر! أنا قادم.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إنه قادم.

"إنه قادم".. عبارةٌ أنيقةٌ لا علاقة لها بما رأيناه بعد قليل. ظهر أمامنا في سرواله الداخلي، وصديرية زيِّ مكتب البريد الرمادية. أمضى العشر دقائق الأولى واضعًا منديله أمام فمه، برأسٍ مائل، محاولًا التخلّص من بلغمه الأخضر. أنا أيضًا أسعل طويلًا، بالبلغم ذاته، عقب استيقاظي، شاعرًا بأنني أوشكُ على الموت. لكن أبي يفعل ذلك، مُصدِرًا تأوهاتٍ طويلة، وهو يحاول إخراج بقايا القطران المترسّبة في رئتيه كل صباح. في بعض الأحيان، يبدأ صباحه بالتقيؤ، بصوتٍ مرتفع.

ترفّع عن النظر إلينا، وتوجّه إلى الحمَّام مباشرةً، حيث تبوَّل من مسافةٍ لا تقلُّ عن قدمين، من موضع المرحاض. أبقى الباب مفتوحًا. التوت قسماته في ألم، وهو يضغط بيده على جِذعه، وكأنه يحاول انتزاع إحدى كليتيه من جسده. حين انتهى، التفت نحونا، بملابسه الداخلية التي تبللت قليلًا بقطراتٍ من بوله، وأشعل سيجارته، ثم سألنا:

- أين تلك المرأة التي جاءت لتراني؟

أشرنا نحو طاولة غرفة المعيشة.

- أنا لا أعرفها. هل هذه مزحةٌ أم ماذا؟

وقفت السيدة أخيرًا، وسارت باتجاه أبي، ومدّت يدها نحوه:

- سيّد "فيرهولست"، أنا "نيللي فوكيدي"، من وحدة رعاية الشباب. جئتُ لأرى طبيعة البيئة والأوضاع التي تربِّي فيها ابنك.

لم يكن هناك ما يُعيب الطريقة التي يربّيني بها. ما الذي يجعل هذه العاهرة تدسُّ أنفها فيما لا يعنيها؟ إرسالها من قِبَل محكمة الأحداث، زاد من إحساسي بنظرية المؤامرة. لا تتدخل وحدة رعاية الأحداث إلّا عند تلقّيها بلاغًا أو شكوى. ينبغي على من أبلغ عنَّا أن يفرَّ من البلد. وحدة رعاية الأحداث! اللعنة! إنهم ينتزعون أبناءك منك. "هيرمان" يعرف ذلك جيدًا. يأخذون صغارك



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويمنحونهم لأُسَرٍ بديلةٍ غبية؛ أو يضعونهم في دُور رعاية، أو يرسلونهم إلى مدارس داخلية. بعدها، يخضعونك لمحاكمةٍ قضائية، ويعاقبونك بتهمة الإهمال، وكأنك شخصٌ يتعمَّد ممارسة القسوة مع أطفاله.

اللعنة! اللعنة!

جالت المرأة في البيت، وهي تدوّن ملاحظاتها بدقّة. رأت طفّايات السجائر داخل حجرة النوم، وأكوام الثياب الملقاة بإهمال، ودِلاء البول التي نسينا إفراغها. لا بدَّ أنها لاحظت عبوة الكريم المعالِج لقمل العانة، فوق المنضدة المجاورة للسرير، والزجاجات الفارغة أسفله.

- هل ينام الولد هنا؟

- أين ينبغي أن ينام إذًا؟ هل ينام أطفالكِ داخل مخزن الفحم في بيتكم؟

- أين يستذكر دروسه؟

لم أكن أدرس. ولكنّي حين أتظاهر بالمذاكرة، أفعل ذلك فوق طاولة المطبخ.

- ما العيب في ذلك؟

أخفى "جيردر" سروالًا داخليًا نسائيًا.

- لماذا لا يعيش الطفل مع والدته؟

- عليكِ أن توجهي له السؤال!

- ألا تفضِّل الإقامة مع أمِّك؟

لم أجبها.

- أخبرني شيئًا عن والدتك.

لم أقل شيئًا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- آنسة "فوكيدي"، إنّ أمّه داعرة!

- سألتُ الولد، ولم أسألك أنت!

- أمِّي داعرة!



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 6- هل أخبركم قليلًا عن أمِّي؟

دخلت علينا أمّي في أحد الأيّام، وهي تلوِّح بورقة "تصريح تبوُّل". بدت كصُحفيٍ جديدٍ استلمَ أخيرًا بطاقةَ عضويته في نقابة الصحفيين، أو كتلميذٍ صغيرٍ يعود إلى البيت ركضًا رافعًا يده بشهادةٍ مدرسيةٍ تثبت تفوقه واستحقاقه لإجازةٍ صيفيةٍ طويلةٍ. تطلّب الأمر العديد من الإجراءات البيروقراطية، والكثير من المواعيد مع مختلف الأطباء، وكشوفًا واختباراتٍ تضمّنت إدخال عصيٍ معدنيةٍ باردةٍ في تجاويف جسدها - محل إقامتي السابق قبل خروجي للحياة. في نهاية الأمر، نالت تصريح التبوُّل. وعلى الفور، وضعته أعلى رف غرفة الجلوس، إلى جوار الصُوَر المقدَّسة، وتمثال "مريم العذراء" المحاط بغطاءٍ زجاجي، تحرص على تلميعه صباح كل جمعة.

يُمَكِّن تصريح التبوُّل حامله من استخدام حمَّامات الأماكن العامَّة، متى ما رغب في ذلك؛ ويصدر اعتمادًا على أسبابٍ طبِّية. للوثيقة شكلٌ جذّاب. لونها أصفر (لا أدري إن كان ذلك من قبيل الصدفة، أم أنه أمرٌ متعمّد!) وتحمل اسم صاحبها، وعنوانه، وتوقيعه، وتاريخ ميلاده، وصورة له. وعلى حدِّ عِلم جميع أفراد عائلتنا، فإنَّ الصورة الوحيدة التي تبتسم فيها أمِّي هي تلك الموجودة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لالتقاطها، وحرصت قبلها على زيارة الـ"كوافير" لتصفيف شعرها، والذهاب إلى طبيب الأسنان أيضًا. كما أزالت الشارب الذي يعلو شفتيها.

إزالة شارب أمِّي عمليةٌ كبيرةٌ ومعقّدةٌ للغاية، دفعتني في كل مرةٍ للتفكير في أن ما تفعله أقرب لطقسٍ دينيٍّ في بلدٍ لا أرغب في زيارته بتاتًا. تسخِّن شَمع النحل في إناءٍ كبيرٍ فوق الموقد، إلى أن يصبح ليِّنًا، ثم تفرده فوق قطعة قماش قديمة، تضعها في المنطقة الفاصلة بين أنفها وشفتها العُليا. تتركها لعشرين دقيقة كاملة، إلى أن يتغلغل الشمع في جذور شعيرات شاربها، ويبدأ في التجمُّد هناك. الفكرة هي رفع القماش بسرعة، منتزعًا معه الشعيرات من منابتها. تلك عمليةٌ مؤلمةٌ للغاية، دون شك، وتتطلب شجاعةً فائقة. تلك هي المشكلة. تخاف أمِّي من فكرة الألم. لأكثر من مرّة، تركتْ قطعة القماش أسفل أنفها، طوال اليوم؛ بل إنها ذهبت للتسوّق بذلك المنظر، دون خجل. الأمر الوحيد الذي يسبِّب الخجل لأمي هو ابنها. تحاول طوال ساعات اليوم استجماع شجاعتها لإزالة القماش عن وجهها. بعدها، تدرك أنها ليست مازوخية، فتلجأ للاستعانة بي. ولأنني كسولٌ وبطيء الحركة، ولا أعرض المساعدة من تلقاء نفسي، يتعيَّن عليها أن تطلب مني انتزاع قطعة القماش دون رحمة، ودون تردد أو تفكير. حركة سريعة، مباغِتة. أفعلُ ذلك. بامتنان. تتخلَّص هي من شاربها، وأتخلَّص أنا من طاقة الغضب بداخلي، وينتهي الأمر بسعادةٍ مزدوجة. كلانا منتصرٌ في هذه اللعبة. إذًا، يعود إليَّ الفَضل - جزئيًا - في ظهورها دون شارب في صورة تصريح التبوُّل.

كل الأمور التي تسبّبت في فقدان أمّي للسعادة، ترتبط بي، وبشكلٍ مباشرٍ في بعض الأحيان. البقع التي تخلِّفها وراءها فوق المقاعد. البلل الغزير الذي يفاجئها وهو يسيل عبر جوربيها، مثيرًا دهشتها. من الواضح أنها عانت كثيرًا خلال عملية ولادتي. لم تكن ترغب في الحمل من الأساس وكرهت فكرة الولادة. ما زاد الوضع سوءًا هو استمرار الولادة لعدّة أيّام، وإصراري على عدم



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخـروج للحيـاة إلا عقـب انتـهاء فتـرة صـلاحيتي! تعـيَّن علـى الجرَّاح أن يستخدم المشرط في جسد أمي، ليخرجني من فتحةٍ أوسع وأكبر. لكن الضرر الذي ألحقتُهُ بالسِباكة الداخلية لوَصَلات أمِّي النسائية، كان عظيمًا، وخلّف آثارًا كارثية. أهمَّها نفور أبي منها بالكامل. كما قمتُ بإعادة توزيع أجزاءها الداخلية (حسنًا، حين تعيش في أيّ مكان، لتسعة أشهر متتابعة، لا بدَّ أنك ستغيِّر مواضع قطع الأثاث. في رأيي، ذلك أمر بديهي للغاية). بالإضافة لذلك، تسبّبتُ في تخريب جهازها البولي، إلى الأبد.

اتضح أن ما أطلقتُ عليه في البداية "بردٌ في المثانة"، لم يكن سوى "سلس البول"، في مراحله الأولى.

في كل مرة يسيل فيها بولها فوق أرضية المطبخ، ترميني بنظرةٍ مؤنِّبة.

كان آخر ما تولّى أبي تركيبه في المنزل، قبل مغادرته له، هو بالوعة صَرف في وسط غرفة المعيشة، والتي أثبتت أهميتها بمرور الوقت.

وضعت أمّي تصريح التبوُّل مكان صورة أبي داخل محفظة نقودها، ليكون مرافقًا لها على الدوام، وبخاصَّةٍ في اللحظات الحرجة والطارئة.

اتّصفت أمّي بالبُخل. حرصتُ على غسل كل برطمان مستردة أو أسماك الرنجة المملحة والاحتفاظ به، في حال احتياجها له مستقبلًا. فاضت سندرة منزلنا بأعدادٍ هائلةٍ من البرطمانات الزجاجية، التي يستحيل على شخصٍ واحدٍ مَلؤها بأشياءَ كالمربى مثلًا. لم تكن أمي لتضع فيها أيّ نوع من المربى أصلًا، لأن الأنواع المُعَدّة منزليًا أغلى بكثير من تلك القادمة من المصانع؛ ولذلك واصلتُ شراء مربى المصانع، والاحتفاظ ببرطماناتها حين تفرغ. على كل حال، لو نشبت الحرب فجأةً، فلن نعاني من أزمة برطمانات! لكن بخل أمِّي امتدَّ إلى نواحٍ أخرى من حياتها، وحرصت على استغلال تصريح التبوُّل لتحقيق توفيرٍ أكبر. إذا ركبنا باص، بادرتُ بسؤال سائقه عمَّا إذا كان وجود التصريح


الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يؤهلها للحصول على خصمٍ في سعر التذكرة. إذا ذهبنا إلى المسرح أو السينما، أخرجت عددًا كبيرًا من البطاقات، من حقيبتها، وأبرزت تصريح التبول من بينها. يتفاجأ الناس حينها، ويمنحونها خصمًا على السعر الأصلي، كي يتخلَّصوا من شكواها المستمرة. كان الفِصال والخصومات رياضةً وأسلوب حياةٍ لها، ولا تشعر بالارتياح أبدًا إلى أن تتلقى معاملة الطُلّاب المُعاقين، الذين يعانون من صعوبات التعلُّم. كانت ذروة أحلامها هي الإصابة بعَجزٍ يتيح لها الحصول على خصوماتٍ متتابعة. إنه الحلم الذي كنتُ سأسعد برؤيته يتحقق.

حين نركب السيارة في طريقنا لمكانٍ ما، وتباغتها رغبةٌ مُلِحّةٌ في التبوّل، فإنها تطالب بالتوقف في إحدى محطات البنزين، لدخول الحمَّام المُلحَق بها. لم يكن هذا يحدث قبل حصولها على تصريح التبوُّل، إذ أن المحطَّات تجعلك تدفع بعض المال نظير استخدام حمَّاماتها، ولذلك كانت تأمرني بالوقوف أمام أول شُجيرةٍ تقابلنا عل جانب الطريق، وأن أصرخ مُحَذِّرًا إذا رأيتُ شخصًا يقترب منّا. عقب قضاء حاجتها، تمسح أسفل جسدها ببعض الحشائش، ثم تجعلني أزيل ما علق بشعرها من إبَر الصنوبر. تغيّر الوضع بعد حصولها على التصريح، لأنه سمح لها بدخولٍ مجانيٍ لجميع الحمامات، في أية مُنشأة. وعلى الرغم من أن ذلك لا يوفر سوى مبلغًا زهيدًا للغاية في كل مرة، إلا أن أمي تحيَّنت الفُرَص لاستغلال ذلك التصريح. قال أبي عنها إنها "عضوٌ في جمعية المتبولين". رأى البعض أن وصفه لها على ذلك النحو لهو أمرٌ يفتقر إلى اللباقة؛ أمّا أنا فوجدت أنه ليس سوى تعليقٍ مَرِح. وبدلًا من أن تسارع أمي بدخول الحمَّام، تقف أمامه أولًا وتتبادل حديثًا مع عاملة النظافة المسؤولة عنه، وهي تشير إليَّ، وترفع سبّابتها نحوي، كما لو كانت مُسَدَّسًا. كانت تشكو إليهن ما سبَّبتُه لها من أذىً جسدي.

كرهتها، وقرَّرتُ الهروب.

لا بدَّ أن معاهدات حقوق الطفل، تضمّ مادّةً تتعلّق بحماية الصغار من أمهاتهم العاهرات اللاتى لا قيمة لهن. الأمهات السيئات.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوحوش. قوانين تحمي من الأمهات. كنتُ مقتنعًا بأن أمامي مستقبلًا رائعًا ينتظرني في منزلٍ آخَر. أو ربَّما استطعتُ الذهاب إلى بيت أبي، والبقاء معه هناك. في كل الأحوال، كنتُ قد بلغت المرحلة التي لم أعد فيها قادرًا على صنع المزيد من الزهور الورقية في حصص الفنون من أجل عيد الأم. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أستخدم فيها ذلك الورق الملون لإهدائه لتلك الأفعى.

بدت الرحلة السنوية (ليومٍ واحد) إلى البحر هي المناسبة المثالية لتنفيذ خطَّتي.

شاطىء "أوستند" في يومٍ صيفي. تلك اللحظة التي تستلقي فيها على بطنها، لتشوي جسدها تحت أشعة الشمس، وهي تعتقد أنني أجمع القواقع والأصداف من الشاطئ. سوف أهرب. قبل أن يخامرها الشك في أنني لقيتُ حتفي غرقًا، سأكون في بيت أبي، أو في منزل عائلةٍ بديلة.

ولكن، لسببٍ عجزتُ عن فهمه، أرادت أمي في تلك السنة أن تعرِّض الجانب الأمامي من جسدها فقط للشمس. إنها مُحِقّة، في واقع الأمر. ما جدوى سُمرة ظَهرها، إن لم يكن لديها مَن تستعرض جسمها له؟

واصلتُ الجلوس بظهرٍ مستقيم، مُمسِكةً بإبرتين طويلتين، وبجوارها كُرةٌ من خيوط الصوف الرمادي. أخذت تحيك "بلوفر" قبيحًا جديدًا، سوف تجبرني على ارتدائه كالعادة. راقبتني طوال الوقت، وكنتُ محطَّ نظراتها واهتمامها.

انهمكت في بناء قلعتين من الرمال، قادرتين على الصمود في وجه الغزاة البربر، لكنهما أضعف من احتمال قوة الأمواج. نادتني أمّي فجأةً. أرادت التبوُّل.

قلتُ لها:

- تبولي هنا. لن يلاحظ أحد.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت أستعد لإعداد حفرة لها، بجاروفي، حين تلقيتُ منها صفعةً قويـةً علـى وجهي، أقنعتني بمصاحبتها إلى حـدائق الشاطىء، حيث الحمامات العامَّة. كانت طوابير الناس أمامها طويلةً للغاية، جعلتني أدرك ما ينتظرني من حَرَجٍ ومواقفَ مُهينة. نعم، سرعان ما بدأ ذلك بتلويح أمّي بتصريح التبوُّل، لمن حولها، وهي تصيح:

- مرحبًا! عفوًا! انتباه من فضلكم! أحمل تصريح تبوُّل. لديَّ الحَقُّ في دخول الحمَّام قبلكم جميعًا.

أمَّا أنا، فكنتُ مضطرًا إلى مواصلة الوقوف في مكاني، مُمسِكًا يد أمِّي. لم تنشق الأرض وتبتلعني. عليَّ تحمِّل كل هذا الحَرَج، من جديدٍ مثل كل مرّة.

لكن العدالة تفرض نفسها دومًا. لم يهتم أيٌّ من روّاد الشاطىء المنتظرين أدوارهم في دخول الحمَّامات بالتنحي عن أماكنهم، وإفساح الطريق لها. تململ الوقوف، وغمغم بعضهم بعباراتٍ من نوعية: "نحن نقف هنا، يا امرأة، منذ نصف ساعة. نحن أيضًا في حاجةٍ مُلِحّة لاستخدام الحمَّام". لو التُقِطَت لي صورةٌ في تلك اللحظة، لرآني الجميع فيها بابتسامةٍ كبيرةٍ تملأ وجهي.

التفتتْ نحوي وسألتني:

- ماذا أفعل الآن؟

- تبولي في البحر!

- في البحر؟

ألا تدري هذه المرأة أين تنتهي قاذورات الصرف الصحِّي؟

غطّت أمي شعرها بقبعة السباحة، فبدا رأسها وكأنه مغطىً بورق حـائطٍ مبـهرج. تحسـست الماء بإصبع قدمها الكبير، ثم تهادت داخـل المـاء. كـانت هذه فرصتي في الهروب، واستغللتها على أكمل وجه.

آخر ما رأيته من أمي هو رأسها الذي يعلو الماء، وهي ترفع ذراعها



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأيسر، حاملةً تصريح التبوُّل. كانت مغمضة العينين، وهي تُسهِم في إضافة المزيد من القذارة إلى مياه المحيطات.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 7- رحلةُ حَجٍّ

كُنَّا في مفترق الطرق. حَدَثان متقاطعان؛ أو ما يصفه النُقَّاد البارزون بـ"موضع الانتقال في أحداث العمل الأدبي". هل كانت سيارة "جيردر" الـ"آلفا روميو" البيضاء، المستعملة، هي "موضع الانتقال" هذا؟ كُنَّا في الأريكة الخلفية للسيارة حين وقع الحدثان غير المحتملين. كل واحدٍ منهما على حِدة، ولكن في اللحظة ذاتها، وهو ما أصابني بالقشعريرة، ودفعني للتساؤل ما إذا كان أحدهما قد أدَّى إلى الآخَر، على نحوٍ ما. هل شَكَّلا ما أسمِّيه الآن بـ"مؤامرة القَدَر"؟

"كُنَّا" هنا تشير إليَّ، وإلى أبي، و"هيرمان"، و"جيردر".

أمّا الأحداث، فوقعت في يوم سبت، خلال شهر مارس. في ذلك النهار، كان أبي على وشك دخول "بيلجريم" - الاسم الذي يعني "الحاجّ" - وهي مصحَّةٌ شهيرةٌ لعلاج إدمان الكحول. تخلَّص من تردده وجميع شكوكه، وحسم أمره، فاتحًا باب الـ"آلفا روميو"، كي يخطو داخل المبنى شديد البرودة، حيث سيبقونه لأشهرٍ طويلة، بعيدًا عن أيِّ مشروبٍ كحولي. سألناه للمرة الأخيرة ما إذا كان متأكدًا من قراره، فأجاب:

- نعم!



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تلك اللحظة تحديدًا، لا قبلها ولا بعدها، ألقى أحد المرضى اليائسين نفسه من نافذةٍ في الطابق الثالث لمبنى المصحَّة. امتدَّ ذراعاه بعيدًا عن جسده، وانفرجت ساقاه كذلك، وارتطم وجهه بالأرض الصلبة، التي تولَّت إنهاء المهمة بنجاح.

لم يحدث أي شيء يمهد لقرار أبي. استيقظ من نومه في ساعةٍ متأخرة، ثم انضمَّ إلينا حول طاولة المطبخ، وأعلن:

- عليكم اصطحابي إلى المصحَّة اليوم. لم يعد بإمكاني الاستمرار.

كُنَّا ندرك أن مثل هذه الأفكار تراود الإنسان ليلًا، وتوقعنا أن يكون قد استلقى في فراشه مستيقظًا، يتملَّكه خوفٌ عظيم، وتهاجم جسده آلامٌ مختلفةٌ في كبده وبطنه وصدره؛ وأنه لم يعد يتحمَّل التدهور الصحِّي الذي يتعرَّض له. لعلَّه اكتشف أن عَرَقه صار عبارةً عن كحول. انهزم جسده، ولم يعد قادرًا على التخلُّص من كل الكحول الذي ينزُّ من مختلف مسامه. أصبح لأبي طعم البيرة. انبعثت منه رائحتها أيضًا، وبخاصّةٍ من إبطيه. ربَّما لاحظ الاصفرار المتزايد في عينيه، وفقدانه المستمر لوزنه. نادرًا ما يكون تابوت السِّكِّير ثقيلًا. يسعد الحفَّارون بحمله في الجنازات؛ ولو كانت المحاسبة على دَفن الموتى تعتمد على أوزانهم، لدفعت عائلتي مبلغًا زهيدًا في أبي. هل فكَّر، في تلك الليلة، في سعادة الديدان التي ستتغذى على جسده الغارق في الكحول، والمتحلل تحت التراب؟ سيساهم في جعل التربة خصبةً للغاية، وسوف يعمل الحفَّارون على زراعة الجزر والسبانخ بين القبور المُهمَلة للسِّكِّيرين.

ليس بوسعِه الاستمرار. نظرنا إليه بعدم تصديقٍ صامت. تمامًا كما نفعل حين يخبرنا المدخنون بقرارهم التوقف عن تدخين السجائر، واصفين إيَّاها بـ"لُفافات السرطان"، ثم نضبطهم في اليوم التالي مباشرةً، داخل أي بار، بسيجارٍ ضخمٍ بين أسنانهم.

استمعنا إليه بلا مبالاة. سمعنا قراره الجديد عديم الأهمية. إنها نزوة. هذه هي حقيقة الأمر. ردَّ فعلٍ ساذجٍ لتوهمٍ مَرَضي. جعله الخوف من الموت يتقلَّب في فراشه المتعرق، في ساعات الليل



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القصيرة، ينهشه القلق والتوتر. سوف تتأكد جدَّية قراره، من عدمه، فور رؤيته لكوب بيرة صُبَّ للتوِّ. شيطانُنا. يؤمن الناس بالربِّ، لكن الشيطان يؤمن بنا. علينا مراعاة الشيطان، وسوف يفعل أبي ذلك ما إن يتخلَّص من قراره الغريب هذا. كل ما علينا فعله هو انتظار أن يعطش، واكتشافه أن الماء لن يروي ظمأه. حاليًا، ليس بإمكانه الاستمرار فيما يفعله. حاليًا، لا يرغب في الاستمرار. حاليًا فقط.

كان يرتجف، ولم يستطع رفع الولَّاعة باتجاه فمه. أشعلتُ له سيجارته، وسحبتُ نَفَسًا منها، ثم ناولته إيَّاها. سحب نفسًا عميقًا للغاية، لدرجة أنه مزَّق ورقة السيجارة الـ"سان ميشيل". تنحنح ثلاث مرَّات. التصق بعض التبغ الرطب، للسيجارة الممزقة، بشفته السفلى. لم يعد أكثر من طفلٍ أخرق. تركني أزيل التبغ عن فمه. تدريجيًا، أدركنا أنه جاد. ليس بإمكانه الاستمرار حقًا. إنه محطَّمٌ تمامًا، وبحاجةٍ إلى إصلاحٍ شامل.

- هل أنت متأكد يا "بي"؟

لن تشرب ثانيةً. أبدًا. أبدًا. نهائيًا. بتاتًا. إطلاقًا.

لا بدَّ أنه لا يقصد ذلك.

لكنه أمسك دليل التليفون، وبحث عن رقم المصحة. اتصل بهم مستفسرًا إن كان بإمكانه دخولها في ذلك اليوم. قالوا له إنه السبت وإنهم يعانون من نقصٍ في الأسِرَّة. وأنهم لا يفتحون أبوابهم يوم السبت، إلا للحالات الطارئة. أجابهم أبي بجِدَّة:

- أنا حالةٌ طارئة!

أدركنا في تلك اللحظة أن ما قاله اعترافٌ صادق، وليس مناورةً على الإطلاق. تقرَّرَ أن تستقبله المصحَّة مساء ذلك السبت، في تمام الساعة الخامسة. مصحَّةُ "بيلجريم" في مدينة "شيلديفينديكه". انحدرتْ دمعةُ تعاطفٍ فوق خدِّ أمِّه، وسارعت باحتضانه بقوة، ولوقتٍ طويلٍ، مما جعلنا نشعر بعدم الارتياح.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال "جيردر"، الذي كان قد نال مؤخرًا رخصةَ القيادة، وحصل على بعض المال من مصدرٍ مجهول، سمح له بشراء سيارة "آلفا روميو" مستعملة:

- حسنًا، إن كان ذلك ما ترغب فيه فعلًا، فسوف آخذك إلى هناك.

أعلن "هيرمان":

- سوف أرافقكما.

وهكذا، تحول اصطحاب أبي إلى مصحَّة التخلُّص من إدمان الكحول، إلى نزهة.

ملأ حقيبته الرياضية الحمراء ببعض الملابس الداخلية والجوارب والقمصان النظيفة، والسجائر، وسروالين رياضيين. كولونيا ما بعد الحلاقة ممنوعة، لاحتوائها على الكحول. لن تكون المرة الأولى التي يقوم فيها أحدهم بفتح زجاجة الكولونيا وشربها، احتفالًا بعدم وجود سبب يدعو للاحتفال! بدا مستعدًا. غادرنا المنزل معًا، وانطلقنا. في المرة القادمة التي سيعود فيها للبيت، سيكون شخصًا مختلفًا تمام الاختلاف، وسوف نبذل جهدًا كبيرًا للتعرُّف عليه.

كانت الرحلة من "آرسينديجيم" إلى "شيلديفينديكه" طويلة، والمناظر على الطريق قبيحة، لكن الطريق مليء بالحانات. كنَّا لا نزال نلوِّح لجدَّتي السعيدة، ونحن على أول الطريق كمجموعةٍ من الأغبياء داخل باص، حين أعلن أبي نيَّته في أن يسكر تمامًا، للمرَّة الأخيرة. المرَّة الأخيرة، حقًّا، وبعدها لن يشرب أبدًا، أبدًا، أبدًا. سيكون شربه بمثابة أمرٍ رمزي. ومن باب المحافظة على تقاليدنا وطقوسنا الخاصَّة، سوف نزور كل حانةٍ على الطريق الممتدِّ بين "آرسينديجيم" و"شيلديفينديكه". رحَّب عمَّاي بهذا الاقتراح. تضيع الحضارة ما إن يفقد الناس احترامهم لتقاليدهم. لا شكَّ في سعادتهما بقراره؛ جزئيًا على الأقل. فإدراكُ أبي أنه بحاجة للمساعدة للإقلاع عن الشُرب، يعني توصلهما للقرار ذاته في القريب العاجل. لذلك، سعدا برؤيته وهو يميل بشاربه داخل



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كوب البيرة، ظهيرة ذلك اليوم. ازدادت سعادتهما حين لمحا بريق عينيه فور أن سالَ المشروب الأصفر داخل حنجرته. شكَّلَ ذلك انتصارًا. بعد عشر حانات، وعشرين كوبَ بيرة لكل واحدٍ منهم، نسي الثلاثة الهدف الأصلي من مغادرتهم البيت ذلك النهار. تحوَّل اليوم إلى سبتٍ تقليدي، ينتقلون فيه من حانةٍ إلى أخرى. نوعٌ من رحلةٍ مقدَّسة. في "بلو بايو"، لم يكتفوا بالشُرب فقط، بل لعبوا البلياردو أيضًا. في مكانٍ ما، في "فيتيرين"، قبلنا الانضمام إلى مجموعةٍ من لاعبي الـ"دارتس"، لإكمال فريقهم. حدث كل شيءٍ كما هو معتادٌ في أيِّ يوم سبتٍ بالنسبة لنا.

في "ستيشن"، أوشك نقاشٌ حادٌّ على التحوُّل إلى مشاجرةٍ عنيفة، وأراد "جيردر" المشاركة فيها، لولا تدخل أبي الذي قال:

- إنها الرابعة والنصف. آن الأوان.

كان جادًّا. شرب كوب البيرة الأخير، ببساطةٍ وسُرعة، حتى أننا لم نلحظ متى فعل ذلك، وفاتتنا فُرصة تصوير تلك اللحظة التاريخية. أبي مع كوبٍ كبير. كانت تلك الصورة ستصبح مصدرًا للضحك لاحقًا، حين نضعها أعلى قبره.

بطبيعة الحال، "جيردر" فضَّل البقاء في الحانة والمشاركة في الشجار الذي أشعله بنفسه. تعيّنَ علينا تحمُّل وصف الحضور لنا بالجبن بعد أن قررنا المغادرة، عقب أن خلع الشخص العملاق في الطرف الآخر معطفه استعدادًا للاشتباك معنا. لم نكن معتادين على الانسحاب. نحن لا نفعل ذلك، لكننا اضطررنا إلى ترك شُهرتنا الوشيكة في "فيتيرين" تفلت من أيدينا. ركبنا السيارة بتثاقل، والتزمنا الصمت طوال الطريق إلى "شيلديفيندیكه"، إلى أن وصلنا موقف السيارات التابع للمصحَّة، في الخامسة إلا عشر دقائق.

كُتِبَ على لافتة المبنى: "عيادةُ بيلجريم للطبِّ النفسي".

- هل هذه هي يا "بي"؟

- نعم هي.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لكنها عيادة طبٍ نفسي! إنها للمجانين!

- أقول لك إنها هي. صدقوني ولو لمرَّةٍ واحدةٍ لعينة في حياتكم اللعينة!

واصلنا التحديق بدهشة في المبنى الضخم، الذي كان ديرًا أو مدرسةً داخلية - على الأغلب - في بداياته. لاحظنا أنه المبنى المثالي لتحقيق البؤس الإنساني المنشود، في مثل هذه الأماكن.

غادر الجناح الأيمن للمبنى نساءٌ ذوات مظهرٍ رَثّ، وأطفالٌ بثيابٍ قديمة، ورجالٌ بأجسام نحيلةٍ يرتدون بِدَلات رياضية رخيصة. راحوا جميعًا يلوِّحون لأشخاصٍ آخرين يقفون في نوافذ الطوابق العُليا للمكان. بادلهم النزلاء ابتساماتٍ مُتعَبة، أظهرت أسنانهم السيئة. يبدو أن موعد الزيارات قد انتهى للتوِّ. في الأسابيع القادمة، سيقف أبي في إحدى تلك النوافذ ليلوِّح لنا بيدٍ رخوة. وسوف نجلس معه داخل حجرة الزيارة، المليئة بالصغار الذين لا يتوقفون عن البكاء، يحاوطنا أزيز ثلاجات بيع الكوكاكولا، ونسأله عن التقدُّم الذي حقَّقه في حياته منعدمة الطعم، بعد توقفه عن تناول الكحوليات. سوف يستقبلنا بجسدٍ منتفخٍ ووجهٍ متورم، ونتظاهر بتصديقه عندما يخبرنا بسعادته بتطهير جسده ممَّا يملؤه من قاذورات. لا مفرَّ من خضوعنا للمشهد الذي رأيناه للتوِّ: الزوَّار وهم يغادرون، عائدين إلى بيوتهم، تاركين النزلاء لمواجهة إحساسهم بالوحدة، واضطرارهم للاحتفاظ بباقي حكاياتهم لسردها خلال ساعة الزيارة الأسبوعية القادمة.

- هل أنت متأكِّدٌ يا "بي"؟ هل ترغب حقًّا في الدخول؟ بإمكاننا العودة إلى البيت الآن.

مدَّ "هيرمان" يده أسفل المقعد الأمامي، وأخرج زجاجة جين "جينيفر"، ناولها لأبي:

- خذ يا أخي. اشرب القليل منه قبل دخولك. آخر رشفة لك.

طافت الزجاجة بيننا، مُوَحِّدةً أفكارنا التي لم تستقر على موضوعٍ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واحدٍ بعينه، بل جالت داخل رؤوسنا بحُرِّية، إلى جوار الكثير من الأفكار التي مرَّ عليها سنوات.

- "بي"، هل تعرف ما سيفعلونه بك بالداخل؟ ستفاجأ بأصابعهم المغطاة بقفاز بلاستيكي، داخل مؤخرتك، ليتأكَّدوا من أنك لا تهرِّب شيئًا من الممنوعات إلى المصحَّة.

- هذا صحيح يا "بي"، وبعدها سيحتجزونك وحيدًا داخل حجرةٍ ضيقةٍ للغاية، لثلاثة أيام. سيملأون جسمك بأقراص الأدوية المختلفة، ويقيِّدونك إلى السرير. فمنذ الغد سيبدأون بإزالة السموم من جسمك. يسمُّون ذلك "ديتوكس". بعدها، سوف ترى حشراتٍ صغيرةٍ تزحف فوق خزانة الملابس؛ وقد لا يكون هناك خزانة ملابس داخل الغرفة، من الأساس. سوف تصيح وتصرخ وتحاول ركل ما حولك، وسيتركونك مستلقيًا هناك، لأي وقتٍ تستدعيه المسألة، إلى أن تهدأ وتشعر بالتحسُّن، وتطلب منهم بعض الطعام.

- هل أنت متأكِّدٌ يا "بي"؟ هل ترغب حقًّا في الدخول؟ سيمنحونك حجرةً خاصَّةً بعد ثلاثة أيام. صغيرة الحجم. يمكنك أن تعلِّق فيها "بوستر" كبير يمنحك شعورًا بالألفة. سيجعلونك تشارك في ألعابٍ جماعية، كما لو كنتَ طفلًا. مباريات كرة قدم وكرة البيسبول، والغمّيضة. في كل مساء، سيقيمون سباقات للمعلومات العامَّة. عن النجوم والممثلين مَرَّة، وعواصم البلدان مرَّة.

- نعم يا "بي"، وفي بعض الأحيان سيضعون في يدك فرشاة دهانات، ويجعلونك تصبغ المقاعد الخشبية، وما إلى ذلك. يسمُّون ذلك "علاجًا مهنيًا". كل ما يحدث داخل هذا المبنى "علاج"، بشكلٍ أو بآخر! سيجبرونك على مناداة نفسك، والصياح باسمك، من أجل اكتساب الثقة بالنفس. هذا ما يسمُّونه "الثقة بالنفس". وسوف تقف داخل مكتب أحد الأطباء النفسيين، وأنت تردِّد: "بيير. بيير. بيير"، ويرتفع صوتك خلال ذلك. ستصيح باسمك، كي تثبت أنك تحبُّ نفسك. الأسوأ من ذلك أنهم لن يسمحوا لك



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا بدَّ أن أبي فكَّر في المسألة ذاتها، في تلك اللحظة.

تبادلنا النظر. كانت أصابعه لا تزال حول مقبض الباب. قال أخيرًا:

- اهتموا بـ"ديمي" في غيابي. وعد؟

سارع بالابتعاد. رجلٌ ضئيل، بحقيبةٍ رياضيةٍ حمراء، مليئةٍ بملابس داخليةٍ مهترئة، وفرادى جواربٍ غير متماثلة. اختفى وراء أبوابٍ ضخمة، لن يعبرها ثانيةً قبل ثلاثة أشهر على الأقل. ابتلعه المبنى الكبير، بالكامل. سرعان ما سيضطر لعقد صداقاتٍ مع نزلاء آخرين.

- سوف نكتب لك يا "بي". رسائل طويلة.

لكنه كان قد دخل، قبل أن يسمع هذه الكذبة.

في تلك اللحظة، خرج الكثيرون من داخل المبنى، وأحاطوا بالجثمان الدافىء. لم يكن التفريق بين الأطباء والمدمنين، ممكنًا. وجدنا ذلك مُسَلّيًا. لا بدَّ أن مشكلة نقص الأسِرَّة قد حُلَّت، ولو بشكلٍ مؤقت. هناك احتمال أن يُمنَح أبي غرفة الرجل المنتحر، عقب انقضاء فترة العَزل الإجباري. العجلة تدور، على كل حال.

سألنا "هيرمان"، باضطرابٍ واضح:

- ماذا نفعل الآن؟

أجابه "جيردر" بحِدَّة:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعـود إلـى "فـيتيرين"، هنـاك مَن ينتظـر تكسـيرنا لعظامـه فـي "ستيشن".



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 8- جامعُ المقتنيات

قال لي "فرانكي" في أحد الأيام:

- أبلغني أبي بأنه لم يعد مسموحًا لي باللعب معك بعد اليوم.

"لعب"؟ في هذه السِن؟

صارت نظرتي للحياة أكثر قوّةً وعزمًا، بعد هذا الموقف.

كان "فرانكي" هو الابن الوحيد لإحدى الأُسَر الذين اشتروا أراضٍ في "آرسينديجيم"، ليبنوا عليها منازل كبيرةً في زمنٍ كانت الڤيلّات فيه رمزًا للسعادة. كل ڤيلا عبارةٌ عن صندوقٍ مبني من الطوب، بممرٍ يؤدّي للجراج. بيوت الوافدين الجدد متماثلة، ويحيط بكل واحدٍ منها سياجٌ شَجَري، للحفاظ على خصوصيات مَن فيها قدر الإمكان، من جهة؛ ولمنحهم فرصة لإشباع ولعهم بالمحافظة على النظام، من جهةٍ أخرى، من خلال تشذيب وتقليم تلك الأشجار خلال فترة الصيف. يضعون صناديق البريد قريبًا من الباب الأمامي. في أحد البيوت، تعيّنَ على ساعي البريد وضع خطاباتهم وطرودهم داخل برميلٍ صغير، أو حوريةٍ عارية. في منزلٍ آخر، كان الصندوق بالغ الجمال والتعقيد، حتى ظن ساعي البريد أنه عملٌ فني، وراح يضع صحفهم على عتبة الباب، بدلًا من استخدامه. للسُكّان الجدد كلابٌ لا يثقون في قدراتها، ولذلك حرصوا على تركيب أجهزة إنذار على حوائطهم الأمامية، قريبًا من شواياتهم المصنوعة من الطوب، والتي تقف بشموخ في



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدائقهم المعتنى بها بحرص.

احتوت بعض حدائقهم على بِرَكٍ لأسماك الزينة، ونافورات. وضع معظمهم غطاءً من السِلك فوق بِرَكهم، حمايةً لصغارهم من السقوط والغرق داخلها. في أيام السبت، يهاجم أصحاب هذه الثروات المُترَفة سياراتهم بخراطيم مياهٍ، لغسلها؛ أو يملأون الدنيا ضجيجًا بآلات جَزِّ العشب والحشائش. تضمُّ الجهة الخلفية لكل بيتٍ شرفةً فسيحة، وحين يكون الطقس صحوًا، أو حين يكون السياج الشجري قد خضع للتقليم منذ فترةٍ قريبة، يصبح بإمكانك أن تلمح امرأةً، وهي تكوي الملابس خلال مشاهدتها للتليفزيون.

كانوا عائلاتٍ دون جذور. وُلِدوا في أماكن ما، ونشؤوا في أماكن أخرى متفرقة. ليس لديهم أيَّة جذورٍ تربطهم بـ"آرسينديجيم". قدومهم إلى هنا مرتبطٌ فقط بوجود أراضٍ تصلح للبناء، وهو الأمر الذي بات مستحيلًا وباهظ الثمن في المُدُن الكبرى. لم يهتم أيٌّ منهم بتعريفنا بنفسه، كما ينبغي على الجيران الجدد أن يفعلوا. لم يحضروا أيًّا من حفلاتنا، ولا ترددوا على حاناتنا. لم يشاركونا في أيِّ شيءٍ، مطلقًا. ابتعدوا تمامًا عن المهرجانات السنوية. وعلى عكسنا، حرصوا على وضع أموالهم داخل البنوك، بأمان. لم يصرفوا ما لديهم في الحانات، كما فعلنا نحن. كنا نلمح نظراتهم المرتابة حين يشاهدوننا عائدين في حالة سُكْر، من لعبة (الشرب الخماسية game of fives). كانوا يسارعون بالدخول إلى بيوتهم، عندما نركل زوجاتنا الخائنات في مواضع حسَّاسةٍ من أجسادهن، أو عندما نقذف قطع الأثاث فوق الأرصفة، لتكسيرها. المؤكَّد، مع ذلك، أنه لو عرض أحدٌ مسلسل تليفزيوني عنَّا، لحرصوا على متابعته بمنتهى الشغف.

- ولماذا؟

- لماذا ماذا؟

- لماذا لم يعد مسموحًا لك بلقائي بعد اليوم؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- والدك مجنون. إنه حبيس مستشفى الأمراض النفسية.

- وأمي داعرةٌ يا "فرانكي"، بالمناسبة. ألم يخبرك أبوك بذلك؟ إنها عاهرةٌ، وأنا ابن حرام، لذلك ألقتني في الشارع. أبوك لا يعرف شيئًا.

- قال إنكم أقلُّ منّا. ضعفاء. الأمر الوحيد الذي يبقيكم على قيد الحياة، حتى الآن، هو الشؤون الاجتماعية؛ لولاها لكنتم تعفنتم منذ زمنٍ طويل. كانت الفئات الأقوى، ستسحقكم تمامًا، لإبقاء القوى متوازنة. عائلة "فيرهولست" مجموعةٌ من السِّكِّيرين. عائلة "فيرهولست" تشتبك في مشاجراتٍ عنيفة، وتعيش عالةً على الدولة. إنهم مستغِلّون وطفيليون. لا تغضب منِّي. أنا أخبرك فقط بما يقوله أبي. لستُ أنا مَن يقول ذلك.

لم أغضب. وكأنني سأهتمّ بعدم السماح لنا بالتواجد معًا بعد الآن. إنها مشكلة "فرانكي" وحده. إنه مُمِل. غبيّ أيضًا. صحيحٌ أنه ينحدر من سلالة قرود، مثلنا، لكنه يفتقر إلى أي ذكاءٍ أو مهارة. ليست له شخصية، أبدًا. لا جيدة، ولا سيئة. وعلى حدٍّ عِلمي، فإنني الوحيد من الفتيان الذين يقاربونه في العُمر، والذي يحرص على لقائه بين الحين والآخَر. لن ينجح في أيِّ شيء. أدركتُ ذلك من مجرد لمحةٍ خاطفة. اجتماعيًا، سيكون غريب الطباع، وسوف يتخصص في الكمبيوترات أو ما شابَه ذلك. سوف يعاني طويلًا، دون أن يدرك أبدًا نِعمة الوِحدة. لقد قطع شوطًا طويلًا في هذا الدرب، حتى تلك اللحظة. لم يكن يعرف شيئًا عن كرة القدم؛ أمّا عظمة سباق الدراجات فكانت شيئًا أعلى من قدرته على الاستيعاب. حين تمرُّ بنا الفتيات الأكبر مِنّا عُمرًا، ونحن جلوسٌ على الرصيف، لم يكن يلاحظ أبدًا الفرق بين مؤخرةٍ عادية وأخرى فاتنةٍ لدرجة تصيبك بالجنون. لا يفقه شيئًا في الموسيقى، ولا يقرأ، ويعتقد أن السجائر ضارَّةٌ بالصحّة. إنه حالةٌ ميؤوسٌ منها! الأمر الوحيد الذي يثير اهتمامه في هذه الدنيا هو الأشياء التي يقتنيها.

لا بدَّ أن هناك دراساتٍ عِدَّةٍ نُشِرَت حول هواية جَمع أشياءَ معيّنة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أتذكَّر - بغير وضوح - أنني قرأتُ في مكانٍ ما عن أن من يمارسون هذه الهواية يشعرون بأن لهم سُلطةً على غيرهم، وأن ذلك يسعدهم ويمتعهم. إنهم أشخاصٌ غير متزنين، لا يملكون القدرة على التحكُّم في مُجريات حياتهم، ويعوِّضون ذلك بالتحكُّم في جَمع شيءٍ أو آخَر. ما يجمعونه غير مهم، في الواقع. طوابع بريدية، أو قواعد أكواب خاصَّةً بالبيرة، أو الحلقات الورقية أو المعدنية الخاصَّة بالسيجار، أو الخوذات العسكرية. قد تكون الأشياء التي يجمعها الهواة غريبةً وغير مألوفة. على سبيل المثال - طالما أننا تطرقنا لهذا الموضوع - فإنَّ عمِّي "جيردر" يجمع شَعر العانة. من غير اللائق بطبيعة الحال أن نتعامل مع مجموعته بجدِّية، وإن كان هو شديد التعلُّق بها. كان يحرص على قَصِّ بعض شعيرات منطقة العانة، من كل فتاة يضاجعها، ثم يضعها في ألبوم خاصّ، ويسجِّل اسم صاحبتها وتاريخ اللقاء بها أسفل كل مجموعة شُعيرات. هذا كل ما في الأمر. لن تخطر ببال "جيردر" فكرة استبدال مجموعة شُعيرات بأخرى يمتلكها هاوٍ ثانٍ. لو فعل ذلك، لفقد العلاقة الخاصّة التي تربطه بهذه المجموعة. يمكن أن نطلق عليه "صائد التذكارات" مثلًا. هو الذي يحدِّد جائزته في مسابقة الصيد هذه. لكنه ليس "جامع مقتنيات" بأيِّ حالٍ من الأحوال، وإلا كان على هواة جمع الطوابع، الاكتفاء بتلك الواردة إليهم عبر الخطابات المعنونة إليهم فقط؛ ولاكتفى جامعو حلقات السيجار، باللفافات التي يدخنونها بأنفسهم. ستفقد سُلطتك على شيءٍ معيَّن، إن اضطُررتَ للحفاظ على علاقةٍ شخصية به.

يجب أن تكون قطع المجموعة قابلةً للتبادل، أو يكون لها نُسَخٌ مقلّدةٌ طِبق الأصل يمكن بيعها بشكلٍ غير قانوني في اجتماعات الهواة.

كان "فرانكي" يجمع نماذج القطارات التي تصنعها شركة "ماركلين". ليست قِطَعًا فريدةً أو متميّزة، ولكن ماذا تتوقع من شخص عادي مثله؟ على جامِع المقتنيات أن يكون جديرًا بمنافسة غيره من الهواة في المجال ذاته. هناك أعدادٌ غير



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محدودةٍ من الأشياء القابِلة للجَمع، لكن المجموعات الحقيقية فِعلًا لا تتجاوز المائة مثلًا من المقتنيات الأساسية. جامعُ المقتنيات الحقيقي يبحث دائمًا عن أشياء يسعى حمقى غيره للحصول عليها. أنا متيقنٌ من أن بوسع علماء الأحياء تقديم تفسيرٍ يثير الضحك لهذا الوضع.

النماذج التي يجمعها "فرانكي" هي نسخٌ عن القطارات التي تعود إلى ما قبل أربعينيات القرن العشرين. لم يسبق لـ"فرانكي" ركوب مثل هذه القطارات؛ لا هو ولا والده صاحب الدقَّة المُفرِطة. كانت تلك القطارات الصغيرة بالغة الجمال، في الحقيقة، لا أستطيع ادّعاء العكس. وكل واحدٍ منها باهظ الثمن، أو هكذا سمعت. لم يكن اقتناء مجموعة من قطارات "ماركلين" أمرًا صعبًا، فعدا تصميماتٍ حصريةٍ معدودة، كانت بقية النماذج متاحةً في الكثير من المتاجر، أو في المعارض التي تنظمها الشركة. بإمكانك الحصول على أجملها، مقابل مبالغٍ ماليةٍ ضخمة. الأمر لا يتطلب أكثر من ذلك. مقارنةً بجَمع شعيرات العانة، نجد أن الأخيرة هواية ديموقراطية، حتى لو اتصفت بانتفاء الذوق والقبح والرعونة والسلوك الذكوري الفَج. لطالما كانت عائلة "فيرهولست" ديموقراطية.

خلق "فرانكي" عالَمًا خاصًّا لنفسه في القبو الخاصِّ بالڤيلَّا. هناك فَرقٌ شاسعٌ بيني وبينه: فبينما أنامُ أنا في الحجرة ذاتها مع أبي وأعمامي، امتلكَ هو القبو بأكمله لممارسة هوايته.

امتدّت شبكةُ سككٍ حديديةٍ على ألواحٍ من نوعٍ جيِّد. تمرُّ القطارات عبر أنفاقٍ، وفوق جسور. هناك إشارات مرورٍ تعمل بكفاءة، وبوَّابات، ومحطَّاتٌ تضم ساعاتٍ متناهية الصغر. وجبالٌ بقممٍ وحوافٍّ صخرية، تتناثر عليها الأشجار. هناك وديانٌ خضراء، ترعى فيها نماذج دقيقةٌ لأبقار تبدو حقيقية، بضروعٍ ممتلئة. بحيراتٌ وقنواتٌ مائية، تعلوها يخوتٌ صغيرة، ونماذجٌ لصيَّادي سمك. لم يصطدم قطارٌ بآخر، أبدًا؛ ولا حتى من أجل الضحك. كان هذا ما سأفعله، لو امتلكتُ شبكة سككٍ حديدية، مثل هذه. كنتُ سأجعل القطارات تصطدم ببعضها، وأدفع النماذج البشرية


الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصغيرة للانتحار تحت عجلاتها، عقب مشاداتٍ مسرحيةٍ مع عشاقهم. ذلك النوع من المواقف. من باب التسلية والضحك. ليس "فرانكي"، بطبيعة الحال. كان مَلِك تلك النسخة الزائفة عن العالم الحقيقي، والمتحكِّم الوحيد في أحداثها. كل شيءٍ في موعده بالضبط. أيّ تأخيرٍ طفيفٍ يسبِّب له الازعاج. دفعه الحرص على دقّة المواعيد إلى كتابة خطاباتٍ غاضبةٍ إلى قسم خدمة الزبائن في شركة "ماركلين". على كل حال، إنها هوايته هو، ولا شأن لي أنا بها.

كلَّما أحضر عربة قطارات، أو محرِّكًا جديدًا، وجَّه لي الدعوة - أو توسَّل إليّ بمعنى أصح - كيْ ألقي نظرةً عليه في قبو منزلهم. المشكلة الوحيدة في تلك الزيارات، هي كلبهم الذي يحمل اسم "هارار". كائنٌ بشع، لكن ذلك ليس ذنبه، بطبيعة الحال. وهكذا، باتَ لديّ عدوَّان من الكلاب. أحدهما كلبة "باميير"، التي لم يُعثَر عليها حتى الآن، والتي ستهجم على عنقي وتقضي عليّ، فور رؤيتها لي؛ والآخر هو "هارار"، الذي يكرهني دون أي سبب. لسوء الحظ، كان أقوى بدنيًا من كلبة "باميير" المثيرة للشفقة. كلما لمحني "هارار"، تحوَّل إلى وحشٍ شرسٍ، متعطشٍ للدماء. كان "فرانكي" يلجأ لتقديم قطعة لحم "ستيك" كبيرةٍ وطريّةٍ له، كي ينشغل بالتهامها وأتمكَّن أنا من دخول المنزل. يجرُّني "فرانكي" إلى القبو، ممتلئًا بالزهو، وهو يستعرض مقتنياته الجديدة. يُمطرني بمعلوماتٍ مفصَّلةٍ عن نماذجه الجديدة. أكتفي بإيماءاتٍ من رأسي، دون أن أصغي إليه، مُدَّعيًا الاهتمام. يفرح بهذا التظاهر بشدَّة. لكن كل ذلك انتهى الآن، فلا أحد غيري سيأتي لرؤية مجموعته. قدَّمتُ له مزيجًا من العطاء والإيثار وحَلِّ مشكلاته النفسية. كرَّر قائلًا:

- لا تغضب منّي. إنه أبي. حقًّا. إنه يخشى أن تعلِّمني التدخين أو شُرب الكحوليات، أو ما شابَه. أو أن تدفعني للسرقة. عليّ أن أكتفي بالأشخاص الذين يشبهونني فقط.

- لستُ غاضبًا منك يا "فرانكي".



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنتُ قد بدأت أشعر بالغثيان من ضعفه. أردفتُ قائلًا:

- صدِّقني. أتفهمُ الموقف. أنت ووالدك شخصيتان منفصلتان؛ لكنني لا أدري إلى أيَّة درجةٍ تعرفاننا.

- ماذا تقصد؟

- عائلتي. "فيرهولست". إن كان والدك يعرف عائلتنا حقًّا، لأدرك أن أيًّا من أفراد "فيرهولست" لا يتخلى عن الباقين أبدًا.

لم يفهم ما أعني. ربَّما كان غبيًا بالفِعل. قلتُ موضِّحًا:

- ليس بإمكان أحد التفريق بيننا. كل واحدٍ منَّا يحرص على دعم الآخر، تحت أيِّ ظَرف. نحن نتّبع التقاليد القديمة فيما يخصُّ هذا الشأن. هل تفهم مصطلح "تقاليد قديمة"، يا "فرانكي"؟ الشَرَف. هل سبق لك أن سمعت بذلك؟ سوف تسمع عنه قريبًا، عندما يهشِّم عمِّي "جيردر" رأسك. لا تغضب منِّي، "فرانكي". إنه عمِّي. حقًّا. عمِّي وليس أنا. سيتولى أعمامي تأديب والدك أيضًا، لأنه وصف أبي بال"مجنون". لا بدَّ أنك تقدِّر ذلك، فعلينا المحافظة على اسمنا وسُمعتنا. آه.. أمَّا بخصوص كلبكم الأبله "هارار"، فسوف نفكِّر له بشيء. سنترك ذلك لعمِّي "هيفي"، فهو يجيد التعامل مع الكلاب. سوف يستمتع بذلك فعلًا.

في تلك الفترة، كان عمِّي "هيفي" مهووسًا بممارسة الكاراتيه وكمال الأجسام. لم يكن يفعل شيئًا له قيمة. يمزق دليل التليفون الضخم بيديه. يحطِّم قوالب الطوب إلى نصفين. يبتلع أقراصًا تحوي فيتامينات نادرة. ولإبراز عضلاته أكثر، يستلقي تحت الضوء المنبعث من أجهزة تسمير البشرة، بالساعات، وهو يقرأ رواياتٍ عن رعاة البقر. سرعان ما سيتمكن من المشاركة في مسابقات كمال الأجسام، أو الرقص في حفلات توديع العزوبية النسائية، حيث تسترخي الفتيات والسيدات، ويستسلمن لغرائزهن الحيوانية، لليلةٍ واحدة، يتحسسن فيها راقصين مثل عمِّي، بأجسامٍ قويةٍ وبشرات تميل للسمرة وعضلاتٍ متماسكة. كنت محظوظًا لكونه عمِّي، فكلَّما انزعجتُ من أحدٍ هدَّدته بإبلاغ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عمِّي "هيفي". أظهرَ التعبير المرتسم على وجه "فرانكي" فهمه لما أشير إليه.

لا ضرر في اختفاء الناس من حياتنا. في الفترة الأخيرة، صرتُ أكتب على كل صفحةٍ في دفتر العناوين الخاصّ بي. حين كنتُ صغيرًا، كنتُ معجبًا بالناس الذين تمتلىء دفاترهم بالأسماء والأرقام والعناوين، والمواعيد. لديهم حياة. لديهم حياةٌ متسعةٌ ومليئةٌ بتفاصيل يعجزون عن تذكُّرها، ويضطرون لترتيب دوائر معارفهم وأصدقائهم داخل دفاتر خاصّة. لا أظن أنني اشتريتُ دفتر مذكِّرات، حتى بلوغي الخامسة والعشرين. وعندها، لم أكن بحاجةٍ حقيقيةٍ له، إذ كانت ذاكرتي أقوى من حياتي الاجتماعية. تدريجيًا، تحوَّل الدفتر إلى سِجِّلٍ للأحداث والمناسبات التي لم تقع. لا أزال أفعل ذلك حتى اليوم: مواعيد ولقاءاتٌ تخضع لإعادة توقيتها في تواريخ لاحقة، وينتهي الأمر بإلغائها كُليةً؛ وهو أمرٌ قليلًا ما أندم عليه. لم يصبح دفتر العناوين هامًّا، بالنسبة لي، إلّا بعد أن استسلم أصدقائي لمختلف الاختراعات في عالم الاتصالات، وصار لديهم تليفونات وأجهزة فاكس، بل وإنترنت أيضًا. ولمَّا كنتُ أواجه صعوبةً بالغةً في تذكُّر الأرقام، فقد اضطررتُ لتسجيلها في دفترٍ خاص، رغم أن أحدًا منهم لا يجيب على تليفونه، ولا أسمع إلا طلبًا بترك رسالةٍ صوتيةٍ عقب سماع موسيقى مثيرةً للضجر، وصوت صفارة.

على كل حال، امتلأ دفتري فجأة بأسماء وأرقام. سرعان ما اشتريتُ واحدًا آخر، أكبر حجمًا، وعقدتُ النيَّة على نقل أسماء الدفتر القديم، بكافَّة تفاصيله، إلى الجديد. امتلاكي لدفتريٍّ عناوين في الوقت ذاته، أمرٌ غريب، وبخاصّةٍ أنني في كل مرة أقرر فيها البحث عن عنوان أحدٍ أو رقم تليفونه، أبدأ بالدفتر الخاطىء. في تلك الأثناء، توصلتُ إلى اكتشاف. هذه الدفاتر مليئةٌ بأشخاصٍ عرفناهم في مرحلة من حياتنا. بعضهم على نحوٍ جيّد، وبعضهم على نحوٍ ممتاز. ظهر لي اسم صديقي المقرّب أكثر من مرّة؛ لكن ذلك خطؤه، فهو لا يبقى مع أيّة امرأةٍ أكثر من ثلاث سنوات، وبعدها ينتقل إلى عنوانٍ جديد. حين قرّر الزواج، فجأةً،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في نهاية المطاف، اشترينا له منزلًا متنقلًا (كارافان) قديمًا. عندما تخالط أشخاصًا من تلك النوعية، يمتلىء دفتر العناوين الخاصّ بك، بسرعةٍ بالغة. لا يبدأ اسم أيٍّ من معارفي بحرف الZ، ولذلك تبقى تلك الصفحات خاوية. لم أجد في ذلك عيبًا أو قصورًا. لكن الصفحات من الألف للياء، بين الاسمين "آبراسارت" و"يسوين"، تمتلىء بسلسلةٍ طويلةٍ من الأشخاص الذين لم أرهم منذ سنوات، والذين لن ألتقي بهم ثانيةً، وعلى الأغلب لن أشعر بالضيق من ذلك. لا عيب في اختفاء الناس من حياتنا. حين توصلتُ إلى هذه الحقيقة، توقفتُ عن تدوين كل تلك الأسماء والعناوين.

كان "فرانكي" أحد الأشخاص الذين ظهروا في دفتري الجديد، وكان ذلك عجيبًا، إذ لم يكن موجودًا في القائمة الأولى لأسماء أصدقائي. حين ناولني بطاقته التي تحمل عنوانه - والتي نقلتُ تفاصيلها في دفتري الجديد لاحقًا - كانت قد مرَّت عشرون سنةً تقريبًا على آخر لقاء لنا؛ أعني تلك المرَّة التي أخبرني فيها بأن والده يمنعه من التعامل مع الحثالة.

تقابلنا صُدفةً في بلدةٍ صغيرةٍ تُدعى "تشيني". كنتُ هناك في مهرجان الحَكي السنوي، الذي بات يحقق نجاحًا متزايدًا. توزعت خيام البيرة وأكشاك الكتب في مختلف أنحاء مركز البلدة. عُرِضت تيشيرتات للبيع، تحمل عباراتٍ مضحكة، بالإضافة إلى حقائب من صوف حيوان اللاما التشيلي (واكتمل المشهد بمجموعة من عازفي الـ"بان فلوت"). على أحد النواصي، تجمَّع الناس حول مُغَنٍ يؤدّي أغاني الفادو البرتغالية، بصوتٍ بشع، وحزنٍ مصطنع. حوَّل الفنانون المحلِّيون الـ"جاراچات" الخاصة بهم إلى معارض، ووضعوا لوحاتهم ذات البقع اللونية المتداخلة فوق إطارات سيارات، وعبوات زيت فرامل. بين الحين والآخر، يدخل الناس فصولًا دراسية، أو مخازن حماية القَشِّ في المزارع، للاستماع إلى حكَّائين محترفين، جُلِبوا بالطائرات من أفريقيا وأستراليا من أجل المهرجان خِصِّيصًا. لم يكن الحدث ضمن الأشياء التي أحبُّها. مشيتُ مغادرًا، باتجاه سيارتي، لأعود إلى حياتي التي أألفها فوق أريكتي، حين لمحتُ "فرانكي" وسط



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجمـوع. تلاحـظُ الـدميمين بطريقـةٍ أسـهل مـن أولئـك الـذين يتمتعون بالجمال. ورغم أنني حين رأيته آخر مرَّة، كان لا يزال مراهقًا رقيقًا، بوجهٍ يخلو من الشعر، إلا أنني استطعتُ تمييزه على الفور. لا يمكن لهذا الشخص أن يكون أحدًا غير "فرانكي". بدا واضـحًا أنـه لا يزال يـهوى جمـع المقتنيـات. رأيتـه يتفحـص محتويـات الصـواني المعروضـة؛ شـكَّلت بالنسـبة للبعـض منجـم ذهب، وللبعض الآخر مجرَّد قمامة. إلى جانب الجرائد التي تغطي الرطوبة صفحاتها، اشتملت المعروضات على نماذج بلاستيكية صغيرةٍ لشخصيات "السنافر" الكارتونية، يعود تاريخ بعضها إلى العام 1970. سنافر على هيئة محامين وبنَّائين وممرضين. "بابا سَنفور" على هيئة ساحِر. سنافر يركبون ألواح التزلُّج المائية، أو يعزفون على الجيتار الكهربائي. كانت هذه النماذج في الأساس هدايا مجانيةً توزَّع مع أحد أنواع الجبن. "سنفور لكل شخص"، لا بدَّ أنها كانت الفكرة التي شاعت في السبعينيات؛ وبعد ثلاثين سـنةً تنـبّه النـاس لـها وبـدؤوا فـي جَمـع هـذه التفاهات. زوَّار المهرجان، مِمَّن يمتلكون أموالًا لا يعرفون فيمَ ينفقونها، يمكنهم أيضًا شراء دُمى على هيئة بطليّ المغامرات "سبايك" و"سوزي"، أو تمـاثيل مـن شـخصيات "والت ديزنـي"، وغيرها من التفاهات المرتبطة بالطفولة الخالدة. كثيرًا ما نتجاهل أن الفضول مصدرٌ رئيسـيٌ للبؤس، ولذلك قررتُ معرفة الأشياء التي يفتِّش عنها "فـرانكي" فـي هـذا المكـان. اتجـهتُ إلـى أحد الأكشاك، ونبشتُ إحدى صواني المعروضات. كانت مكانًا يفيض بالميكروبات، دون شكّ، ولكن لا مشكلة في ذلك، على كل حال.

اخترتُ "سنفور" له مظهرٌ مُبهِج، ويحمل كوبًا كبيرًا من البيرة في يده. سألتُ البائع:

- بكم هذا؟

- أربعة يورو.

- أربعة يورو؟ من أجل "سنفور" يشرب بيرة ألمانية؟

- إنّه فريدٌ من نوعه!



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لكنه مصنوعٌ في "تايوان"! مكتوبٌ أسفل حذائه "صُنِع في تايوان". عِمالةُ أطفال، على الأغلب، أيضًا!

- أربعة يورو. سعرٌ نهائي.

اشتريتُ السنفور، الذي يقف في هذه اللحظة فوق طاولة مكتبي. لكنه لم يكن بدايةً لهواية جَمع المقتنيات.

عبر حواري مع البائع، استطعتُ لفت انتباه "فرانكي". كانت تلك خطَّتي، منذ البداية، بطبيعة الحال. خاطبني قائلًا:

- هيه! ألستَ..؟

قاطعتُه:

- "فرانكي"! هل سمح لك والدك بالتحدُّث إليَّ، أخيرًا؟

ارتسمت ابتسامةٌ مضطربةٌ على شفتيه، أكَّدت لي أنه لا يزال يتذكر حوارنا الأخير. تجاهل الإجابة عن سؤالي، وكانت تلك طريقته في إظهار أقصى صور الوقاحة. توقعتُ أن يقول لي إنه مَرَّ وقتٌ طويل؛ ومع ذلك فوجئتُ بالعبارة حين نطق بها:

- يا إلهي! لقد مرَّ وقتٌ طويل!

يتوقف الأمر على مفهومك لـ"الوقت الطويل". لطالما مرَّت عليَّ أيامٌ صعبة، رأيتُ فيها عقربيّ الساعة وهما يدوران حول بعضهما بتثاقل، كعاشقين يتعمَّدان تأجيل الوصول للحظة الذروة في فراشهما؛ لكن العشرين سنةً التي ابتعدتُ فيها عن "فرانكي" مرَّت سريعًا كنسمة هواءٍ لطيفة. أدركُ كم أنا وقحٌ أحيانًا. لا أستطيع تناسي الإساءة، ولا أمتلك القدرة على التسامح. أغضب من كل مَن يعلن الحرب عليَّ، حتى لو فعل ذلك لوقتٍ قصيرٍ للغاية. هذا طَبعي. كل منَ أزعجني، بطريقةٍ أو بأخرى، في أحد الأيام، أو احتكَّت سيارته بسيارتي مخلِّفةً خدشًا على سطحها، أحفر اسمه على قائمةٍ خاصّة! تضمُّ هذه القائمة اسم "فرانكي" أيضًا. كرَّر ثانيةً:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا إلهي! مَرَّ وقتٌ طويلٌ جدًّا!

تملَّكني شعورٌ بأنه لن يرضيني أيُّ شيءٍ، عدا تحطيمه وتدميره. سأفرض على كل شخصٍ في قائمتي الانتقام من "فرانكي". بتلك الطريقة، أسوِّي حسابي معهم جميعًا. سأجعله يدفع ثمن إساءته لأبي، ولأعمامي بالمَرّة! لا أزالُ أحرص على فكرة الوحدة وشرف العائلة. وصفهم بالحثالة والقمامة، وقال إن أبي مجنون. لا يمكنني السماح بذلك. ماذا لو أهنتُ "فرانكي" على الملأ؟ هنا، في التوِّ واللحظة؟ حسنًا، رغم كل شيء، لستُ من النوع المغرور، الذي يُباهي بإنجازاته، ولذلك اقترحتُ عليه أن نتناول بعض البيرة معًا. هذا من سوء حظي. أعني أن أقترح شيئًا لا أرغب فيه مطلقًا. نادرًا ما يفهم الناس أنني لا أعني حقًا ما أطلبه منهم. لا أودُّ أن يشاركوني الشُرب، أو تبادل الحديث معهم حول السنوات التي ابتعد فيها أحدنا عن الآخر، ومحاولة تعويضها الآن على نحوٍ أفضل. سؤالهم إن كانوا يرغبون في تناول المشروبات معك، هو طريقةٌ غير مباشِرةٍ لإهانتهم. وهكذا، وجدتُ نفسي أجلس مع "فرانكي" داخل خيمةٍ للبيرة. قلتُ له:

- لا تزال تهوى جَمع الأشياء، كما أرى.

- طالما بدأتَ هذه الهواية، فإنك تستمرُّ فيها إلى الأبد.

- ما الذي تجمعه هذه الأيام؟

عادةً، يتعمَّد هواة جَمع المقتنيات عدم ذكر الأشياء التي يجمعونها، لإتاحة الفرصة لمن يحاورهم الاستفسار عن المسألة.

- أهوى جمعَ الـ"جودايكا" هذه الأيام.

- "جودايكا"؟

كرَّر قائلًا:

- "جودايكا".. المنتجات والفنون المرتبطة بالديانة اليهودية، مثل قبعات الرأس الصغيرة، والشمعدانات، وغيرها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنتُ أعرف معنى المصطلح، بطبيعة الحال، لكن منبع دهشتي هو سماعُه منه. "جودايكا"؟ كيف واتته الفكرة، أصلًا؟ قابلتُ أشخاصًا يهوون جَمع تماثيل طيور البُوم الزجاجية. وخطر لي السؤال ذاته، كذلك: كيف واتتهم الفكرة أصلًا؟ هل تلقوا بومةً زجاجيةً، كهديةٍ، في أحد الأيام، واكتشفوا بعدها رغبتهم في اقتناء ألف طائرٍ من الزجاج؟ كيف تتم هذه العملية؟ هل يشتري الناس خزانةً خشبيةً إضافية، ثم يقررون أن أرففها بحاجةٍ لأشياءٍ بعينها؟ هل يستيقظ الإنسان من نومه، صباح أحد الأيام، ويقول لنفسه، فجأةً: "سوف أجمع منتجات يهودية، بدءًا من اليوم"؟

استطردَ قائلًا:

- بطبيعة الحال، عليك الاكتفاء بأشياء معيَّنةٍ في هذا المجال.

رأى أن الحوار لم ينتهِ بالنسبة إليّ، ولذلك أضاف:

- حين تكتفي بمنتجاتٍ معيَّنة، فإنك تجعل مجموعتك متميزةً وفريدةً، وأكثر قوَّة. بطبيعة الحال، يمكنني جَمع كل ما يقع تحت مصنَّف الـ"جودايكا": القبعات اليهودية الصغيرة والشمعدانات، والنسَخ القديمة من التوراة، وكتب الطهي وِفق الشريعة اليهودية، والعديد من الأشياء. لكن ذلك لن يكون مُسَلِّيًا. عليك أن تبحث عن أمورٍ بعينها، وتفتِّش عنها.

- آه، نعم.

بدأتُ أشعر بالقلق، فكيسُ التبغ لن يكفيني طويلًا إذا استمرَّ هذا الحوار أكثر ممَّا يجب، لكنني سألته:

- هل تكتفي بجمع القبعات الصغيرة إذًا؟

- كلَّا. أجمعُ تماثيل لشخصياتٍ يهودية. التماثيل الصغيرة الحجم، تحديدًا.

بدا شخصًا تقليديًا، ومثيرًا للضجر. سألته:

- وهل مثل هذه الأشياء موجودةٌ أصلًا؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشعرني تظاهري بالاهتمام بأنه كان ينبغي عليَّ أن أكون معالِجًا نفسيًا.

أجابني:

- بالتأكيد! إنها موجودةٌ طبعًا! عليك فقط أن تبحث عنها جيِّدًا.

- أمَّا أنا، فأهتمُّ بجَمع السنافر.

واصلتُ ادِّعاءاتي:

- أنت تعرفهم. أولئك الأقزام الملاعين، بلونهم الأزرق. كنا نشاهدهم في طفولتنا. لديَّ الآن ألفٌ وأربعمائةٍ وثلاثةٌ وثمانون سنفور. والآن، مع هذا الذي اشتريته للتوِّ، صاروا ألفًا وأربعمائةٍ وأربعةً وثمانين واحدًا. أظنُّ أنها النوستالجيا. ذلك ما يجعل الناس يتصرفون بغرابة. لدي أصدقاءٌ يبدأون في الرقص بحماس، فور سماعهم لأغانٍ معيَّنة، كانوا يكرهونها في صباهم. أمَّا أنا، فأجمع السنافر. لن تصدِّق عدد السنافر التي أنتجتها المصانع. هناك واحدٌ لكل شخصيةٍ بشريةٍ تقريبًا. في الحقيقة، أفكِّر في إجراء دراسةٍ عِلميةٍ عن ظاهرة السنافر، كأفضل انعكاس لحقبة السبعينيات. ترى أمورًا مثل حُرِّية المرأة، أو إتاحة استخدام التكنولوجيا للجميع، منعكسةً في حلقات السنافر لو فكَّرتَ في المسألة بعُمق. لفتَّ نظري لأمرٍ آخر، يا "فرانكي". هناك سنافر على هيئة عمَّال بناء، أو مُدمني كحوليات، أو هنود أو ممرضين أو مطربين، أو ذوي شعرٍ كثيف.. كل ما يمكنك تخيُّله؛ ولكن هاجمتني فكرة للتوِّ.. بوم!.. فجأةً.. تُرى هل هناك "سنفور يهودي"؟ هل تظن أنه موجود؟ أعني بخصلتيِّ شَعرٍ ملتفَّتين، من تحت قبعته؟ أعرف أن هناك "سنفورَ زنجيًا"، مثلًا. لديَّ ثلاثةٌ منهم. ولكنْ "سنفور يهودي"؟

لم يكن باستطاعة "فرانكي" الإجابة عن سؤالي. السنافر ليست تخصُّصه.

- سوف أقيم حفلةً عند وصول عدد السنافر التي لديَّ إلى ألفٍ وخمسمائة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالغتُ فيما كنت أفعل وأقول. أدركُ ذلك. أنا نفسي كنتُ مندهشًا من قدرتي على سرد كل تلك الأكاذيب عن السنافر. أستطيع ارتكاب أمورٍ غير متوقعةٍ أحيانًا! هأنا أخاطر بجعله يصدِّقني. لكن ثرثرتي المتواصلة نجحت في جعل "فرانكي" يشعر بالضجر، ويعمد إلى تغيير الموضوع.

- يا لها من صدفةٍ أن أقابلك بهذه الطريقة! خطرتَ ببالي الأسبوع الماضي فقط! هذا صحيح. كنت أسير بجوار قبر والدك، وقلتُ لنفسي: "لقد نسيت هذا الرجل تمامًا! أتساءل عمَّا حدث لابنه".

حسنًا، لهذا أكره الحوارات. في لحظة، تتكلم عن السنافر، وفي الأخرى تتحدّث عن قبر والدك.

قبر والدي. أُحيِّيه في بعض الأوقات، حين أقود سيارتي قريبًا منه. تقع مقبرة "آرسينديجيم" على الطريق العامِّ المؤدِّي إلى الساحل. أرى جوانب مقبرته من وراء مقود السيارة. أومىء للحظة، وأحيِّيه داخل رأسي، رغم ما في ذلك من سخافةٍ بعض الشيء. "هاي بابا! هذا أنا من جديد! زحام مروري. أنا في طريقي إلى هنا أو هناك.. ومعي حبيبتي. من المؤسف أنك لم ترها خلال حياتك. إنها بنتٌ جميلة". أقول أشياءَ شبيهةً بذلك. أو عندما أتحدث عن البحر، والذي باتت رؤيتي له تذكِّرني بأبي على الدوام. البحر. البحر نفسه الذي تأمَّله ذات ليلة، مفكِّرًا في موته، ومتسائلًا إن كان انتحاره سيكون غرقًا فيه؛ لكن أبي كان يجيد السباحة. أحبَّ المياه التي ترفع جسده بسبب الضربات المنتظمة لذراعيه في بحر الشمال؛ ولو اختار الانتحار غرقًا فيها، تلك الليلة، لأحسَّ بالخيانة تجاهها. لذلك، استقلَّ القطار صباح اليوم التالي، عائدًا إلى المنزل، سليمًا ومعافى، ودون طحالب بحرٍ داخل رئتيه، أو محارٍ ملتصقٍ فوق ظهره. أعلن لنا، ونحن حول مائدة الإفطار:

- لم أستطع تنفيذ ذلك.

أفضِّلُ لو كان البحر قبره. ليس من العَدل دفن شخصٍ اعتاد



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإفـراط فـي الـشُرب فـي أرضٍ جـافَّة. أنـدم لأنـه حـين غـابت ابتسامته المألوفة وراء قناع الموت، لم ننثر رماده فوق سطح هذه المياه، ونحن نردد صلاة "كاديش"، وأصوات صافرات الإنذار، التي تحذِّر السفن وقت الضباب، وتنبعث في الخلفية. ها هو يرقد باستسلامٍ في قلب أرض "آرسينديجيم"، التي تعصف بها الرياح، دون حتى الجَرَّة الخزفية التي اعتاد الإغريق وضعها على القبر، كي يصبَّ فيها الأحياء بعض النبيذ لإسعاد موتاهم. أتوقَّع خطابًا قريبًا من مجلس المدينة، يذكِّرونني فيه بأن فترة إيجار مقبرة أبي أوشكت على الانتهاء، ويستفسرون منّي إن كنت أرغب في تجديد العَقد، وتحديد المُدَّة الجديدة، وهل يمكنني إرسال المبلغ المعيَّن إلـى الحساب المصرفي المحدَّد؟ لن يتركوه في سلام. سابقًا، كان مُلَّاك المساكن الوضيعة التي أقمنا فيها يطردونه إلى الشـارع، فـي نـهاية كـل مُدَّة إيجـار، وبعدها يلاحقه المُحضِريـن طويـلًا، إلـى أن اضطررنا للانتقـال إلـى بيت جدَّتي. سرعان ما سيلقون برُفاتِهِ إلى الشارع، لتأخره عن سداد إيجار قبره.

سألني "فرانكي":

- هل تزور "آرسينديجيم"؟

لا أعـرف التـواريخ المحـددة لزيـاراتي، لكنـني أزور قبر أبي كل خمس سنواتٍ تقريبًا. لا أرى سببًا مباشرًا لهذه الزيارات؛ أو ربَّما لا أرغب في رؤيته أساسًا. الواقع أنه تنتابني رغبةٌ مُلِحَّةٌ ومفاجئةٌ في الذهاب للمقبرة. ثم أقف هناك. لا أقرب ولا أبعد من المسافة التي كنَّا نجلس فيها متجاورين فوق الأريكة، في البيت. نحن معًا، على كل حال. هكذا أذكِّر نفسي، وإلّا ما جدوى زيارتي؟ لا أدري كَم أقـف هنـاك. لا أعتقـد أنـي وقفـت حزينًا، تحت المطر الغزير؛ ولكن لا بدَّ أنني زرته تحت رذاذٍ خفيف، كما أظن، مرَّةً أو اثنتين ربَّما. في كل مرة، أشعل سيجارةً أمام قبره. عرفت أنني لم أكـن الزائـر الوحيـد عنـدما رأيـتُ أعقـاب السـجائر الأخـرى، فـي المكـان. الغـريب هـو ضـآلة عـدد زجـاجات المشروبات الكحوليـة الفارغة حول قبره. والأغرب هو إنني لم أفكِّر يومًا في الشُرب هناك. لكنني، في كل مرة، أتوجه إلى الحانات التي تصادفني في



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طريقي، عقب مغادرتي للمقابر. أتخيَّله فيها، مستندًا إلى الطاولة المرتفعة للبار، وهو يعيد قَصّ حكاياته، على شخصٍ نصف نائم. السيجارة التي أشعلها، هي أول الطقوس المرتبطة بزياراتي له. إنها جانبٌ من أدعيتي له. دعاءٌ مُسَمّمٌ بمزيجٍ من النيكوتين والنيتروميزاين والفورمالديهايد والبنزين. ثم أطوفُ بنظراتي حول المقبرة، التي تتَّسع مساحتها قليلًا في كل زيارة. هناك دائمًا امرأةٌ ما، تجلس على ركبتيها، منهمكةً في فَرك شاهد أحد القبور القريبة، بإسفنجةٍ تغمسها في دلوٍ من الماء. في بلدةٍ كهذه، أن تترك المرأة زوجها يتحلل تحت شاهدٍ حجريٍ قذر، لهو دليلٌ على أنها زوجةٌ سيئة. أشعر بنظراتهن المتسللة نحوي، وأكاد أجزم بأنهن يفكّرن: "آه، إنه أصغر أفراد عائلة "فيرلهوست"! إنه يأتي إذًا لزيارة أبيه أحيانًا". في بعض الأحيان، أرفع يدي محييًا، فيشعرن بأنهن ضُبِطن متلبسات، ويسارعن في فَرك الشواهد بقوةٍ أكبر. في اليوم التالي، يتردد اسمي في كل مكانٍ في البلدة. لقد رأينني. شوهد ابن عائلة "فيرهولست" في "آرسينديجيم"، من جديد، وهو يدخّن سيجارة، في فترة الظهيرة، أمام قبر "بي" المجنون. شوهد ليلًا أيضًا في بار "سوشال"، بنظراتٍ باردة، جرَّاء الشُرب. حين أتأكَّد من خلوِّ المكان، وبأننا بمفردنا، أخيرًا، أخاطبه قائلًا:

- بابا، حان وقت الاستيقاظ.

إنها العبارة الوحيدة الحقيقية، والتي اعتدتُ ترديدها عليه وهو في فراشه، مستغرقًا في نومٍ عميقٍ وسُكرٍ شديد. أغادر المقابر، كل مرَّة، وأنا أفكِّر: "سوف يتأخر على عمله، لكن عليه أن يتحمَّل خطأه. لقد حاولتُ إيقاظه، لكنه استمرَّ في نومه". يرافقني شعورٌ يستمرُّ معي لخمس سنواتٍ أخرى.

ولكن، لنعُد إلى موضوعنا. أجبتُ "فرانكي" على سؤاله:

- نعم. بين الحين والآخر.

في المرَّات القليلة التي أزور فيها "آرسينديجيم"، يكون ذلك بمثابة "عودة الابن الضال"، أو "الابن البار".. لا يهم، المهم هو كَوني

94 63%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"ابن". أنتقل بين الحانات المختلفة، مدركًا أنني سأعثر على أعمامي، في أحدها، سريعًا. أراهم في أماكنهم المعتادة. مقاعدهم التي لا يجرؤ أحدٌ على الجلوس فوقها، وكأنهم كتبوا أسماءهم عليها بالدم. أحبُّ النظرة التي يقابلني بها "جيردر". إنها باقة وردٍ يلقيها نحوي من وراء أكواب البيرة الكبيرة. ذلك اللمعان الشديد في عينيه. ذلك اللمعان الذي يشبه الطبقة التي تعلو بيضةً مقلية مستوية النضج. لـ"هيرمان" العينان ذاتهما. لا شكَّ في أن نظرات "هيرمان" تلك، تنجح في لفت انتباه النساء، وهو في طريقه للمنزل في حالةٍ مُزرية. في كل مرَّةٍ يناديني "جيردر" بـ"أخي الصغير". لا شيء يسعدني أكثر من ذلك اللقب، وهو يخرج من فم هذا الخنزير الشرِّير. ثم نحتضن بعضنا، ويقبِّل كلٌّ منَّا الآخَر؛ رغم أننا لا نحبُّ التقبيل. بعدها، نشرب معًا. نتناول الخمس زجاجاتٍ الأولى من البيرة، في غمضة عين. أول من يشعر ببعض الارتباك والتشويش بيننا، هو "هيرمان". يضطرب بذكريات شقيقه الراحل التي أثرتها فيه بغتةً. يرفع صوته مخاطبًا كبار السِن من حوله:

- انظروا! هل تذكرون هذا الشاب؟

ودون أن ينتظر إجابتهم، يستطرد قائلًا:

- هذا "ديميتري". ابن أخي "بي".

تلوح الدهشة على وجوههم، ويحاولون اعتصار ذاكرتهم المترهلة، ثم يستعيدون بعض ملامحي التي عرفوها في طفولتي. يقول أحدهم:

. "ديمي" الصغير! آه.. نعم. أعرفه جيِّدًا. أتذكَّر حين كان ينام هنا، فوق طاولة البلياردو، بينما أرافق أبيه لاقتناص النساء. كان رجلًا خفيف الظل. لن يتكرر. "بي" الظريف. كم مضى عليه الآن؟

أمَّا الشبَّان الصغار، فلا يهتم أحدٌ منهم بالنظر نحوي. لن يعطِّلوا لعبهم على الآلات المختلفة، لمجرَّد وصول شخصٍ لا يعرفونه أصلًا. تتردَّد في المكان كلماتٌ تناسبهم تمامًا. إنها أغنية "روبرتا فلاك": "الشُبَّان الحزانى يتحوَّلون إلى مُسِنِّين". تدور الأغنية على



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جهاز الـ"جيوك بوكس". لا أتعمَّد اختيارها، لكن أحدهم يضغط على الرقم الخاطىء في الجهاز. إنهم الجيل الجديد. أدرك أنني خدعتُ القَدَر برفضي أن أكون واحدًا منهم، يمارس لعبةً داخل حانة، وهو يشرب البيرة. لقد احتل هؤلاء الفتية مكاني. أتمنى ألاَّ ينتبهوا لذلك. أمَّا أولئك الخنازير، أعمامي، فإنهم يتقدَّمون في العُمر. باتَ من النادر أن يدعوهم أحدٌ للاشتراك في مسابقات شُرب. لم يعد هناك من يجدهم جديرين بالمنافسة في مسابقات "ريست"، والتي تحدِّد الشخص الأكثر تفاهةً في البلدة! بدؤوا يفقدون سُمعتهم في هذا المجال.

هذه هي "آرسينديجيم" التي أعود إليها، بين الحين والآخَر. هذا الجانب من البلدة الذي يجهله "فرانكي" تمامًا، رغم أنه لا يزال يقيم فيها، ويلمح أعمامي في طرقاتها، كأشباحٍ وفَشَلةٍ وصراصير. لكننا نملك رؤيةً أكثر واقعية للعالَم. حُبِّي لأعمامي كبيرٌ جدًا، ويستعصى على فهم أيِّ شخص، ولكن مَن الذي يجرؤ على محاولة فهم الحب؟ أحسَّ "فرانكي" بأن عليه انتقاء كلماته بحذر. تجنَّب ذِكر أسماء أعمامي. تحدَّث عن "آرسينديجيم" لا أعرفها. مكانٌ غير موجودٍ من الأساس في رأيي.

أخبرني عن الشهادة التي نالها، ووظيفته وزوجته والأطفال الذين يُعَدُّون مبررًا كافيًا لوجودها في حياته، والمنزل الذي تدور أحداثه وعلاقاته حول شاشة التليفزيون، على الأرجح. أدركُ أن هناك حقائق يعمد الناس إلى تغييرها، حين يلتقون بعضهم مرَّة أخرى، عقب انقطاعٍ طويل. طبيعة الوجود. إنه أمرٌ متعبٌ أحيانًا. عليَّ أن أغادر. عبَّر عن سعادته برؤيتي. ناولني بطاقة عملٍ تحوي عنوانه. نقلتُ معلوماتها في دفتر العناوين الجديد، ثم مزَّقت تلك الورقة، لاحقًا، ما أفقدني المعلومات المتعلقة بالأشخاص الذين تبدأ أسماؤهم العائلية بحرف "ت"؛ ذلك أن اسمه بالكامل هو "فرانكي تينبونت". نحن من نصنع الأخطاء الغبية، ولذلك أعطيته رقم تليفوني، بدوري.

صوته أيضًا قبيح. جاءني عبر التليفون، عقب ثلاثة أشهر من لقائنا غير الضروري. اتصل بى ليسألنى إن كنت أودُّ زيارته. لم



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكن أرغب في ذلك، حقيقةً، لكنني سألته:

- متى؟

أجابني:

- في أي وقتٍ يلائمك.

لم يلائمني أيُّ وقتٍ في الواقع. لكنني في يوم الأحد التالي كنتُ أجلس على مقعدٍ وثيرٍ في غرفة المعيشة في منزله. أقنعتُ نفسي بأنها حجَّةٌ لرؤية "آرسينديجيم"، وإشباع الإحساس بالحنين الذي يأتيني أحيانًا. تلك كذبة، وإحدى علامات الشيخوخة.

كان منزله مثلما توقعتُ بالضبط. يسكنه بمفرده. لا أتوقع أن يتغيَّر الوَضع قريبًا. رغم أنه أخبرني ونحن في "تشيني" عن أبنائه، إلا أنه لم يكن هناك ما يوحي بوجود أيِّ صغارٍ في المكان. الأطفال مثل الحيوانات الأليفة تمامًا، يمكنك أن تشمَّ رائحتهم أينما كانوا. تملَّكني إحساسٌ بأن زوجة "فرانكي" هجرته، مصطحبةً صغارهما معها. لم أرَ صورةً لها فوق أي رف، أو ملصقة على ورق الحائط. واصلتُ الجلوس على المقعد الجلدي القبيح، وقد تزايد شعوري بأن زوجة هذا الفتى قد تركته. اقترب إحساسي من اليقين. فعلتها زوجته مع شخصٍ آخر. أحسَّتْ بالحُبِّ أخيرًا، بعد خمس سنواتٍ في هذه الزيجة. امتلكت الشجاعة الكافية للإصغاء إلى قلبها. حاول "فرانكي" كبت شعوره الدائم بالوحدة. كمَّمه وحاول شَغل نفسه بزوجةٍ وطفلٍ ولحم خنزيرٍ يشتريه في طريق عودته للمنزل. لكنه أدرك فجأة كم هو وحيد. كم مضى عليه وهو بهذه الوحدة. حاول محاربة هذا الشعور بالعودة إلى الأشخاص القلائل الذين عرفهم في فتراتٍ مختلفةٍ من حياته. لم أسأله عن أبنائه أو زوجته. الدلائل على غيابهم موجودة، واستطعتُ تمييزها بسهولة. وحدهم مَن يعانون الوحدة يميِّزونها. سألته:

- أخبرني إذًا، ما الأخبار؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا تعني؟

- لماذا طلبتَ منِّي زيارتك؟ لا بدَّ أن هناك سببًا لذلك. أعني هكذا هو الأمر لبعض الناس، على الأقل. تبدو واحدًا منهم.

- لا يوجد سببٌ معيَّن. كان لقائي بك لطيفًا، وفكَّرت: "لمَ لا نعوِّض الزمن المفقود"؟

"لطيفًا"؟ هل استخدم هذه الكلمة حقًّا؟

- حسنًا.

لم يلمس أحدنا سلطانية البطاطس الشيبس الموجودة على طاولة غرفة المعيشة. استمتعتُ بمراقبة معاناته وهو يحاول العثور على موضوعٍ للحوار. بدأت قسماته تشبه ملامح والده. إنه وجه رجل يمنع ابنه من التواصل مع ولدٍ من عائلة "فيرهولست". ثرثرَ "فرانكي" لبعض الوقت. نسيتُ المواضيع الفاشلة التي حاول التحدُّث فيها. تركته يواصل معاناته. في تلك الأثناء، أزعجني صوت أزيزٍ متواصل، لم أستطع تحديد مصدره. هل هي التدفئة المركزية؟ أم لعلَّه موتور الزيت الخاصِّ بتدفئة جدران هذا المنزل الشبيه ببيت الأشباح؟

انتهت ثرثرة "فرانكي"، كما يبدو، ولم يجد ما يقوله، إذ أعلن فجأة:

- لقد تركتني زوجتي.

أجبته دون أدنى إحساس بالدهشة، بل بقليلٍ من الاستمتاع ربَّما:

- أعرف ذلك.

- ماذا تعني بأنك تعرف؟ كيف عرفت؟

- أعرف وكفى. هذا هو المهم.

- هل أخبرك أعمامك؟

لماذا سيخبرني أعمامي بشيءٍ يخصُّ زوجة هذا التافه؟ لن يهتم



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيٌّ منهم بأسرة هذا الشخص.

أردف قائلًا:

- هناك شيءٌ عليَّ أن أخبرك به.

تواصلَ الأزيز، محطِّمًا أعصابي.

واصل "فرانكي" حديثه:

- زوجتي. لقد..

قاطعته قائلًا:

- ضاجعت شخصًا آخر؟ تحدث هذه الأمور على الدوام يا "فرانكي". بأي حال من الأحوال، لستُ مستشارًا جيِّدًا في مثل هذه المشكلات.

- لقد ضاجعتْ عمَّك "هيفي".

يا سلام! يا لها من حكايةٍ رائعة! مدام "فرانكي" قاسمت واحدًا من الـ"فيرهولست" فراشه! أعمامي ينتقمون لي في كل وقت!

قلتُ لأزيد من ألمه:

- هذا يجعلني وإيِّاك أسرةً واحدة، إذًا!

صبَّ لنفسه كأسًا من الويسكي. إنه مشهدٌ من مسلسل "دالاس"، بامتياز!

- لقد تركتني. هجرتني زوجتي. ضربتُها حين صارحتني بما حدث. أعلم أنني أخطأت، لكنني لم أستطع السيطرة على نفسي. صفعتها على وجهها، أمام الأطفال، وها قد رحَلَتْ. مرَّت أربعة أسابيع، تقريبًا، دون أن أسمع منها كلمةً واحدة. لقد أخذتْ الصغار. لا أدري حتى إن كانوا يشتاقون إليَّ. هل بإمكانك أن تخبرني ما إذا كانت زوجتي لا تزال مع "هيفي"؟

- المسألة لا تخصُّني على الإطلاق، يا "فرانكي". إنها مشكلتك.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أفضِّل البقاء خارجها.

- لا أفهم! زوجتي وعمُّك "هيفي"!

- ما الذي لا تفهمه يا "فرانكي" بالضبط؟ الاستمتاع الذي تشعر به زوجتك في رفقة واحد من الـ"فيرهولست" المتوحشين؟ أم وقوعها في غرام سِكِّير من "كيرفيلد رود"؟ أم هجرها لك من أجل أحمقَ لعينٍ لا يحمل أيَّة مؤهلات، ويعاني من البطالة، ويفتقر إلى التهذيب والإتيكيت، حتى أنه يسند كوعيه إلى مائدة الطعام؟ هل هذه هي الأمور التي لا تفهمها يا "فرانكي"؟

فهم ما أقصده. لم يقل شيئًا.

- هل طلبتَ مني زيارتك لهذا السبب؟

أومأ، مواصلًا صمته. كان عليَّ أن أطلب منه أن يدفع لي ثمن البنزين الذي استهلكته للوصول إلى هنا.

- كي أكون صريحًا معك يا "فرانكي"، أظنُّ أن ما حدث لك أمرٌ رائع. يكاد يدفعني لأن أصبح مؤمنًا ومتدينًا! هذا الغضب الذي تشعر به، يناسبك تمامًا. إنه رائع. أنت تستحقُّ ما يحدث لك.

- عمُّك "هيفي" يكبر زوجتي بعشر سنوات.

- لستُ مهتمًا يا "فرانكي". صدِّقني. إنها مشكلتك. لست مهتمًا بهذه الحكاية الملعونة على الإطلاق! ولذلك، اخرس!

- هل يمكنك فقط أن تخبرني إذا كانت زوجتي لا تزال تقيم لدى عمِّك "هيفي"؟ هذا كل ما أطلبه. أشعر باليأس.

- "فرانكي"، حاول أن تفهم بعقلك الغبي هذا. دعني أخبرك للمرَّة الأخيرة، بأنه ينبغي عليك أنت وحدك أن تحلَّ مشكلتك.

يبدو أنه أدرك تصميمي على موقفي، لأنه سكت أخيرًا، وراح يحدِّق في الفراغ، ببؤسٍ يلائم شخصًا هجرته زوجته. كم مرةً ستسنح لي فرصة رؤية رجلٍ يجلس على مقعد، فارجًا ساقيه، وساندًا كوعيه فوق ركبتيه، واضعًا رأسه بين يديه؟ امتلأت عيناه



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدموعٍ حبيسة، وهو يحاول السيطرة على مشاعره. كنتُ أدرك بأنه سيفشل. بعد دقائق، ستتساقط دموعه ببطء، فوق خدَّيه، تاركةً آثارًا لزجةً فوقهما، كتلك التي يخلِّفها الحلزون. سوف يبكي، بحُرقة، لنحو خمس دقائق، ثم يعتذر لأنه تصرَّف كطفلٍ رضيع، ويتجه إلى الحمَّام ليغسل وجهه. حياته مرتبكةٌ ومأساوية. انهار كل ما بناه، وتساقط حوله. يمارس القدر ألاعيبه، يوميًا، في كل مكان، لكن ما يحدث هذه اللحظة هو الأكثر متعةً ولذَّة. أواصل الجلوس على المقعد الوثير، وأصغي لصوت بكائه المرتفع، وأنا أراقب اختلاج عضلاته. لو كان امرأة، لقيل إنها تمرُّ بحالة هستيريا. تركته يستمرُّ فيما يفعل، دون أن أتدخل. هذا مشهدٌ أساسيٌ في مسلسلنا الأمريكي! في نهاية الأمر، سيشعر بصداعٍ مؤلم، وسيتوقف عن العويل.

- "فرانكي"، هلَّا أخبرتني ما هذا الصوت المزعج الذي يتردد في غرفة المعيشة؟ ثم أطفئه، بعد ذلك.

مسح دموعه بمنديل أحد صغاره، الذي يحمل صورةً للغزال "بامبي"، وسألني:

- ماذا قلت؟

- أطفىء هذا الأزيز الملعون! ربَّما تركتك زوجتك هربًا من هذا الإزعاج!

- أيُّ إزعاج؟

- أيُّ أزعاج؟ هذا الـ"فيررررر.. فيررررر"! لستُ مضطرًا لتقليده لك. يمكنك سماعه بكل تأكيد.

- آه! هذا! إنها قطاراتي.

- قطاراتك؟ تلك القطارات الصغيرة التي كنتَ تملكها قديمًا؟ هل لا تزال تجمعها؟

هذا هو حال أيِّ شخصٍ يملك عقلًا محدودًا: قبل لحظةٍ واحدة، كان يشعر بتخلِّي الربِّ عنه، ويعاني من هجر زوجته له. كان


الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جسده يرتجُّ من فرط الانفعال وهو منخرطٌ في بكاءٍ مرير، وها هو الآن يتحدَّث بحماسٍ عن قطاراته، شاعِرًا بالامتنان لاهتمام أحدٍ بهوايته المفضَّلة، ومتناسيًا آلامه وبؤسه.

- تتحرَّك قطاراتي بشكلٍ متواصل، دون توقف. لقد بنيتُ شبكة سككٍ حديدية متكاملة، في القبو. تشبه ما كنتُ أملكه قديمًا، لكن الجديدة أكبر بكثير، وتمرُّ بها جميع قطاراتي، في ذات الوقت. هل ترغب في مشاهدة مجموعتي؟

بطبيعة الحال، لم أكن أرغب في رؤية مجموعته. كل ما أردته هو العودة إلى بيتي.

- حسنًا، إن كان ذلك يسعدك يا "فرانكي". سوف ألقي نظرةً على قطاراتك التي لا تتوقف عن الحركة. لا بأس.

- سوف تشعر بالصدمة! لم تعد مجموعتي كما كانت في آخر مرَّة رأيتها. ولكن دعني أذهب وأغسل وجهي، أولًا.

بينما كان يتخلَّص من آثار دموع الضعفاء التي تغطي وجهه بالماء البارد، محاولًا العودة إلى عالم البَشَر الأحياء، أشعلتُ سيجارة. كان من الواضح أن هذا منزلٌ لا يُسمَح فيه بالتدخين. مسكنٌ ينبغي أن يحمل روائح المنظفات المقدَّسة طوال اليوم. ولأنني لم أعثر على مطفأة سجائر في أي مكان، أطفأت سيجارتي داخل إصِّيص أزهار. لا بأس. سوف تذبل الأزهار قريبًا، لسببٍ أو لآخَر، لأنها لا تبالي بالبقاء على قيد الحياة من أجل شخصٍ واحد. تجولتُ في المكان وأنا أنفخ دخان سيجارتي. تفحصتُ محتويات أرفف أسطوانات الموسيقى، والمكتبة التي تضمُّ أعمالًا كثيرةً تركِّز على موضوع الحرب العالمية الثانية. أقلِّب صفحات الكتالوج الخاصِّ بقطارات "ماركلين"، الموجود فوق طاولة غرفة المعيشة. أقذف بعقب السيجارة من أعلى سور البلكونة، بحركةٍ واحدةٍ من سبَّابتي.

عاد من الحمَّام معتذرًا:

أنا آسف. فقدتُ التحكُّم بأعصابي للحظات. تصرَّفتُ كطفلٍ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صغير. لا بدَّ أنك تظن أني شخصٌ مثيرٌ للشفقة.

لم أستطع الإنكار. قال:

- هل لي أن أسألك سؤالًا؟ هل دخَّنتَ هنا؟

- كُفَّ عـن التوتـر واختـلاق المشـكلات! إنـها رائحـة إبطـيَّ يـا "فـــرانكي"! إنـها رائحـةٌ نتوارثـها فـي العائلـة. جمـيع أفـراد "فيرلهوست" يعانون منها. اسأل والدك. أو زوجتك.

تبعته إلى القبو. إنه طفلٌ كبير. أنظر إلى مجموعته. لا أحصي القطارات، ولكن عـددها كبـيرٌ للغايـة. تصـعد التلال، وتهبط إلى الأوديـة. طوال



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأسـبوع. خـلال الإجـازات. صـباحًا. ظـهرًا. ليـلًا. يوميًا. طـوال الوقت. لكنها، مع ذلك، لا تصطدم ببعضها. عليك أن تكون وحش رياضيات كي تتمكن من تشغيل هذه القطارات وفق جدولٍ محدَّدٍ يمنع وقوع أيَّة حوادث، ويجعلها تواصل الحركة في أرجاء قبو



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منزلك. الخلفية والأراضي الممتدة حول السكة الحديد أكثر واقعية ممَّا كانت عليه قديمًا أيام طفولته. كان قد وضع اليهود الصغار الذين بدأ في جمعهم، داخل العربات المخصَّصة لنقل المواشي.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 9- رجلٌ جديد

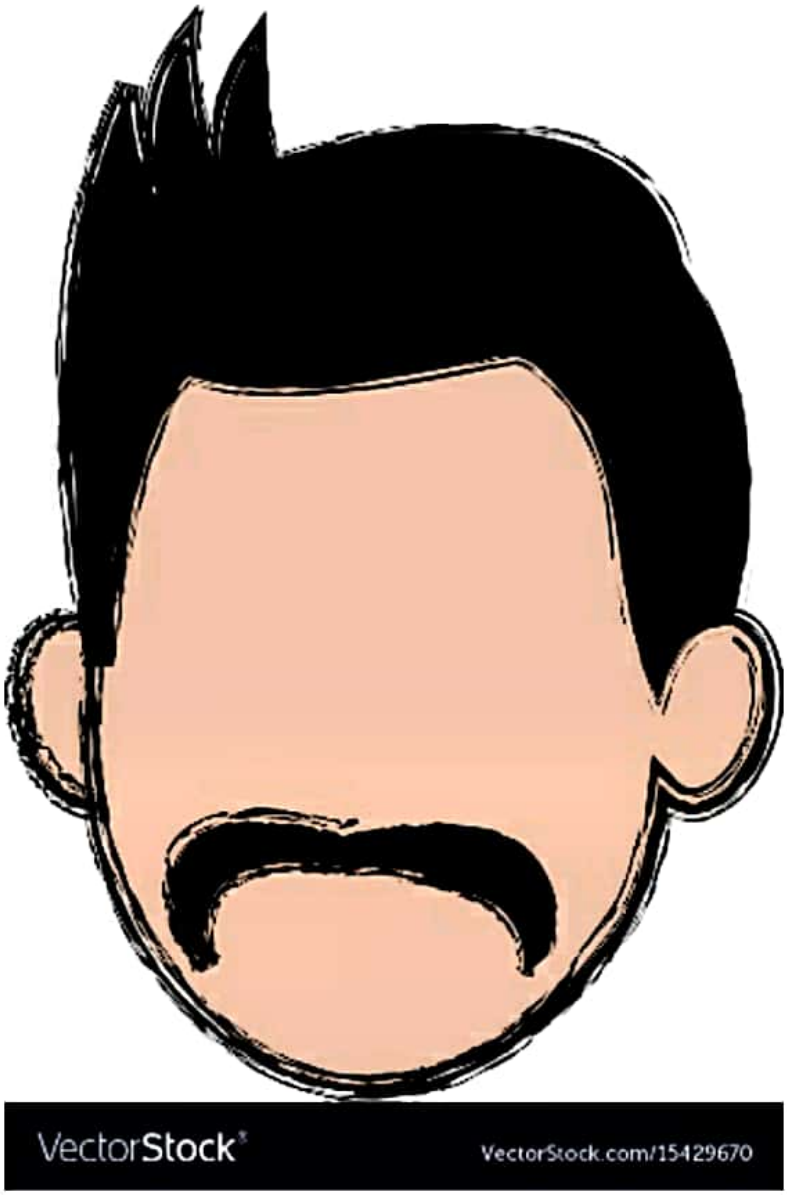


نجحوا في تسمينه قليلًا. في بداية الأمر، ظننا أن وجهه يبدو أكثر امتلاءً بسبب قَصَّة شعره الجديدة، والحادَّة بعض الشيء؛ لكننا حين تفحصناه جيِّدًا، تأكَّدنا أنه اكتسب وزنًا إضافيًا، لا يقلُّ عن 12 كيلوجرام، بأيِّ حالٍ من الأحوال. قبل عودته إلينا ذلك الصباح -والتي انتظرها بفارغ الصبر- شذَّب شاربه الكَث، وغسل شعره بأفضل شامبو استطاع الحصول عليه، ثم سرَّحه بـ"البريليانتين"، فبدت خصلاته كأمواج بحرٍ هادىء. علينا التسليم بأنه شديد الوسامة. أكثرنا وسامة، في الواقع، وكان يدرك ذلك ويتعامل مع المسألة ببساطة. أهدته عمَّتي "روزي" بدلةً رياضيةً رائعة، وغالية الثمن على الأغلب. زرقاء سماوية، تليق به حقًّا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاءنا بها، من باب الامتنان لعمَّتي على الأرجح، ولإظهار سعادته بالهدية أيضًا. كان كل ما فيه يفيض بالثقة بالنفس. لو تمتَّعنا بشيءٍ من الذكاء، لالتصقنا به، علَّنا نحظى بالقليل من ذلك الإحساس.

لم نعلِّق الزينة أو البالونات، ولم تحتوِ الثلاجة على كيكةٍ أحضرناها له خصِّيصًا، ولم يكن من اللائق أن نحتفي به بجلب زجاجة شمبانيا؛ كل ما كنَّا نملكه في استقباله هو أذرعٌ مفتوحةٌ تتهيَّأ لاحتضانه ومعانقته فور رؤيته. هذا أبي، وأنا فخورٌ به. معجبٌ به. أعشقه. لم يكن أكثرنا وسامةً فقط، بل هو أوسم رجل رأيته على الإطلاق. إلهٌ متنكِّر في هيئة بَشَر. أكمل الثلاثة أشهر في المصحَّة، بنجاح. سوف يجلس معنا بعد قليل ليحدِّثنا عن تجربته هناك. عليه الآن مواجهة الاختبار الحقيقي، الأصعب على الإطلاق: قضاء يومين وليلةٍ في أرض الواقع التي قُذِف إليها عقب انتهاء الأشهر الثلاثة. الحُرِّية. كان يتشوَّق لاستعادة حُرِّيته، على عكس المُنتَكِسين الذين يعودون لمشكلاتهم القديمة فور خروجهم من المصحَّة في إجازةٍ قصيرة. كانوا يتوسلون للقائمين على المكان لإبقائهم بالداخل، ويودُّون لو كان باستطاعتهم البقاء مقيَّدين إلى أسرَّتهم إلى الأبد، والخضوع لنظام المصحَّة الصارِم. لكن أبي كان متحمِّسًا للمغادرة، ومشتاقًا للقائنا.

وضع حقيبته التي تحوي القليل من ثيابه القذرة، على الأرض. بعض الجوارب والملابس الداخلية والتيشيرتات. لم يكن على جدَّتي غسلها، فالمصحَّة تضمُّ غسَّالاتٍ كهربائيةٍ يمكن للنزلاء استخدامها؛ لكنها مع ذلك، تناولت الحقيبة بامتنان، تغمرها السعادة لتقديم خدمةٍ صغيرةٍ لابنها الشجاع. هذا طبعها. لثلاثة أشهرٍ كاملة، افتقدتْ نَقع ملابسه المتسخة ببقايا البراز وبقع القيء، داخل دلو، طوال الليل، ثم غسلها بيديها، لأن الغسَّالة الكهربائية تعجز عن إزالة هذه الآثار وتنظيفها تمامًا. أخرجتْ ثيابه من الحقيبة، على أرضية المطبخ، وبدأت تفرزها وِفقًا لبرنامج الغسيل الذي تتبعه. لاحظنا أن أبي لم يتبوَّل أو يتبرَّز في ثيابه الداخلية، وأنه يعتني بنفسه على نحوٍ ممتاز. إنه تحت



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السيطرة، كما أخبرنا.

كان أعمامي لا يزالون نائمين. مُتعَبين من سهرة ليلة الجمعة، التي يحرصون عليها لإثبات مكانتهم في جميع الحانات، وسيطرتهم على جميع نسائها. عادوا منها مُرهَقين، ويشعرون بالصداع، وبحاجةٍ ماسَّةٍ للنوم، استعدادًا لسهرة ليلة السبت، ملكة جميع الليالي. عليهم المحافظة على سُمعتهم في هذا المجال. وقفت جدَّتي أسفل السُلَّم، وراحت تناديهم. بَدَت كذئبةٍ تنادي جِراءها. صاحت:

- "هيفي". "هيرمان". "جيردر". استيقظوا. لقد عاد "بي"!

رغم التعب الشديد، والحالة الأقرب للإغماء التي كانوا عليها، إلا أنهم استيقظوا على الفور، وأزاحوا الملاءات عن أجسامهم، وهرولوا إلى الطابق السُفلي بفرحةٍ طفولية، لاستقبال مهرِّج العائلة.

- "بي"! لقد سمنتَ قليلًا يا ملعون!

لاحظ الجميع امتلاء جسده. عقب سنواتٍ من الشُرب المتواصل، فقد شهيته تمامًا. حدث ذلك على مراحل. في البداية، لم يكن يستطيع تناول لقمةٍ واحدةٍ صباحًا. المدخنون أيضًا يصلون لهذه المرحلة. حتى لو نجحوا في التوقف عن التدخين، تظلُّ وجبة الإفطار هي الأصعب بالنسبة لهم، ولذلك يمتنعون عن تناولها في الأغلب. لكن أبي تجاوز تلك المرحلة منذ زمن، إذ لم يعد قادرًا على تناول الأطعمة الصلبة. حينما يأكل، يتناول الأطعمة الدسمة، المليئة بالدهون، التي يلجأ إليها السُكَّارى عادةً للسيطرة على آثار الشُرب المُتعِبة، فتعمل على إنهاك الكبد أكثر: البيض، والجبن الطري القديم، ذو الرائحة النفَّاذة، والسردين المحفوظ في الزيت، والبطاطس المقلية المغطاة بالكثير من الصلصة البُنِّية. قبل أن يتمكن جسده من امتصاص القيمة الغذائية لهذا الطعام، يكون قد تقيأه بالكامل. كُنَّا محظوظين، لأن بطوننا ليست كبيرةً جرَّاء شُرب البيرة المتواصل، كما هو المعتاد. كنا نميل للهزال، ما أتاح لمرض السرطان أن يهاجمنا - بمختلف أنواعه - بسهولة. لطالما



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت البنطلونات التي نلبسها واسعة، وترفرف حول سيقاننا؛ قبل حتى عودة هذه الموضة من جديد. لا شيء بهذا القبح يغيب طويلًا. كان لا بدَّ لهذه الموضة أن تعود. على كل حال، جلس أبي معنا، شاعرًا بالعظمة، مزهوًّا بنفسه كطاووس. مال بجسده قليلًا تجاه سطح طاولة المطبخ المستديرة، بمفرشها البلاستيكي الذي تغطيه آثار حرق السجائر. ردَّد إخوته بعد قليل، بإعجاب:

- يا إلهي يا "بي"! لقد اكتسبتَ وزنًا إضافيًا!

أخبرنا عن الـ"كورن فليكس" الذي يتناوله كل صباح مع حليبٍ خالي الدسم. لم يسبق لأحدٍ منَّا رؤية "كورن فليكس" من قبل. لم نكن نعرفه، في الواقع، لكن فكرته مقزِّزة، على كل حال. "كورن فليكس" لعين، وقطع تفاح، وعصير برتقالتين، وبعض الزبادي. كل هذا كفيل بتحريك الأمعاء رغمًا عنها! وكل هذا أصلًا في وقتٍ اعتاد فيه أن يكون بطنه ممتلئًا بالبيرة. كيف نجح في ذلك؟ أخبرنا عن الرياضات التي يمارسها هناك، يوميًا. كرة القدم والكريكيت وكُرة السَلَّة والسكواش، وكيف أن جسمه تأقلم مع هذا الكَمِّ من الرياضة والتمرين. استعرض عضلاته. نعم، صار قويًا، ولن تلقيه الرياح يمينًا ويسارًا كلما خرج في يومٍ عاصف. مساءً، يشتركون في ممارسة ألعابٍ ومسابقاتٍ مختلفة. غبية بعض الشيء، لكنها ممتعةٌ ومُسلِّية. تعلَّم هناك بعض المهارات اليدوية، المفيدة في الحياة اليومية. لكنه مَرَّ بأوقاتٍ بالغة الصعوبة في البداية. كان في جحيمٍ حقيقي. تراءى له أن إبليس يسكب الويسكي والكونياك على الطعام، ثم يشعله، قبل تقديمه لهم؛ أو أن هناك كلابًا من نارٍ تطوف بينهم، لها رائحة الخمر، أو أن هناك "بارمان" يحمل اسم "إبليس" يقدِّم المشروبات الروحية، جولةً تلو أخرى، للمُرتدِّين عن الشرب. عليه أن يعود إلى المصحَّة غدًا في موعدٍ أقصاه الخامسة مساءً. إن كان في حالةٍ جيِّدةٍ، ولم يتناول أيَّ مشروبٍ كحولّ، فسوف يسمحون له بالعودة في نهاية كل أسبوع، من الآن فصاعدًا. أمَّا إذا كان قد تناول شيئًا من الكحوليات خلال اليومين اللذين خرج فيهما، فسوف يبقونه في المصحة، تحت نظام بالغ الصرامة، لثلاثة أشهرٍ أخرى، دون أن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يغادرها بتاتًا. لكنه كان على أتمِّ استعداد للعودة، بكامل لياقته، للمصحَّة. كان قد تخلَّص من عادته في الشُرب المتواصل. لم يفكِّر في البيرة، ولا مرَّة. تعامَل معها كعدو. كأسِ مرارةٍ لن يتجرعه ثانيةً، أبدًا. لمعت عينا أمِّه، عند سماعها ذلك. شعرتْ أنها أسعد امرأةٍ في العالَم. استعادت شبابها ورونقها، في لحظات.

ظهرًا، أثبت لنا كم أن شهيته مفتوحة، بتناوله طبقًا كاملًا من لحم الخنزير المشوي، إلى جانب قرنبيط بصلصة الجبن. فيما كان أعمامي يدخنون السجائر بشراهة، عقب تناولهم القليل من الطعام، استمرَّ أبي في التهام المزيد من الطعام، وهو يصف المصحَّة، والمؤخرات الفاتنة للممرضات. قال إنه استمدَّ الإلهام والإصرار على الشفاء من رؤيته لحالات أخرى تحرَّرت من الإدمان. كان وضعهم أكثر صعوبةً منه، ومقارنةً بهم - حسب وصفه - لم يكن سوى كوب صغير من البيرة. كانوا من مدمني المخدِّرات بأنواعها المختلفة. تآكلت أنوف بعضهم، من كثرة الشَم. عجز بعضهم عن العثور على وريدٍ جيِّدٍ يحقنه بالمخدرات، فاضطر لأخذها في وريد خصيته، بإبرةٍ ملوَّثة. عاهراتٌ يبتلعن كل ما تقع عليه أيديهن من أدويةٍ ومركَّباتٍ كيميائية. حالاتٌ من ذلك النوع. نجح أصحابها في الإقلاع عن الإدمان. طالما أن أمثالهم نجحوا، فهو بدوره قادرٌ على تحقيق ذلك! كان يتحدَّث بجدِّية واقتناع. مرَّت ثلاثة أشهرٍ كاملةٍ منذ أن لمس كوبه الأخير من البيرة، وباتَ مستعدًّا لبدء حياةٍ جديدةٍ تمامًا. استغرق الأمر حوالي إبريقين قهوة، وثلاثة أرباع عبوة سجائر، لكي يُنهي قَصَّ حكايته علينا. حين انتهى، أخيرًا، سألنا:

- وكيف أحوالكم هنا؟

"كيف أحوالنا هنا"؟ كيف يمكنها أن تكون؟ كما هو معتاد، بكل تأكيد، لكنها أكثر هدوءًا دونه.

كرَّر سؤاله، بصيغةٍ أخرى:

- ماذا حدث في الثلاثة أشهر الأخيرة؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما يحدث دائمًا. كان أعمامي يحاولون استيعاب أسلوب الحياة الجديد الذي يحاول أبي الترويج له. لا يزالون يفرطون في الشرب، ويلاحقون النساء. حين تنفد نقودهم، يضطرون للعمل في مواقع البناء، بشكلٍ مؤقَّت، إلى أن يتمكنوا من جَمع ما يكفي لمعاودة الشُرب من جديد. يزورنا المُحضِرون، طوال الوقت. يمضون بعض الوقت في السجن، بين الحين والآخَر، بسبب واقعة ضربٍ أو مشاجرة. تمَّ إيقاف معونة الشؤون الاجتماعية عنهم، مرةً أخرى. لا شيء جديد.

نظر إليَّ، وسألني:

- وأنت؟ كيف أحوالك المدرسية يا بطل؟

أريته شهاداتي في الأشهر الثلاثة. غطَّتها الدوائر الحمراء.

- هل بذلتَ أقصى جهدك؟

أجبته بإيماءةٍ من رأسي.

- هذا هو المهم. أنا سعيدٌ لأنك بذلتَ أقصى ما تستطيع.

أحسَّ أعمامي بالعطش، فانسحبوا من المكان بهدوءٍ بالغ، وخرجوا دون أن يوجهوا الدعوة لأبي لمرافقتهم.

لا بدَّ أن أبي فوجيء برائحة حجرة النوم حين دخلها. أصابته بصدمةٍ بالغة، دون شك. شكَّلت رائحة الكحول، العالقة بأنفاس أعمامي وشخيرهم، نوعًا من الإغراء له. عليه أن ينام الليلة هنا، مستنشقًا إيَّاها في كل نَفَس. وسوف يستيقظ من نومه المضطرب، قُرب الفجر، على صوت إخوته وضجيجهم وغنائهم، ويدرك بغتةً بأنهم أسعد حالًا منه بكثير. فتح الشُبَّاك بهدوء. التمسُ العذر لكل مَن ظن أن أبي سيستسلم في تلك اللحظة، ويتوقف عن المقاومة.

قال لي:

- ارتدِ حذاءك، مع جورب نظيف. لديَّ مفاجأةٌ لك.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكأنه لم يفاجئني بالفعل! بعد نصف ساعة، كنَّا نجلس متجاورين فـي بـاص كئيب، فوق مقعد مزَّقه شُبَّان البلدة، وزيَّنوه برسومٍ لأعضاءٍ ذكرية في حالة انتصاب. على سطح النافذة المجاورة لنا، كتبوا بأصابعهم أرقام تليفونات فوق طبقةٍ من الغبار، أرفقوا بها عبـاراتٍ جنسـية، مـن نوعيـة: "علـى استعداد تامٍّ لِلَحس جسـدك مجَّانًا". بطبيعة الحال، كل من يملك سيارة، يرفض أن يطأ أيَّ باص بقدمه. لا يركب المواصلات العامَّة سوى تلاميذ المدارس، الوقحـين والمشـاغبين، والفقـراء، والجـدَّات العجـائز مـن وإلـى السوق، والسُّكَارى الذين يغطُّون في النوم فور ركوبهم، ويفوتهم النزول في محطَّاتهم. كنتُ معتادًا على الباصات ونوعية راكبيها. هـذه المـرة أيـضًا، اسـتقلَّ البـاص شـخصٌ سـكران. عنـدما لا ينـام السـكارى، فإنـهم يزعجـون الراكبـات. هـذا مـا حـدث هـذه المرَّة. أحسَّت السيـدة بما ينوي فعله، فتظاهرت بالثقة بالنفس. ترنَّح نحوهـا، مسـتندًا إلـى الأعمـدة، إلـى أن وصـل إلـى الأريكـة التي تجلس عليها وألقى بجسده إلى جانبها. أحاط رقبتها المتوترة بذراعه. كم هي جميلة. أعلن لها ذلك. وأضاف أنه كان من الأفضل لو تزوجها، بدلًا من تلك الساقطة التي هجرته من أجل رجلٍ آخر. لا بـدَّ أن أبـي تعـرَّف علـى نفسـه فـي هـذا الرجـل وتصرُّفاته. شخصيته القديمة. لاحت في عينيه نظرةُ انتصار. رغم أن الشُّرب هـشَّم رغبتـه الجنسية وسحقها إلى فتـات، إلا أنه كـان يتحرَّش بالكثير من الفتيات، دون شك. في كل مرةٍ أركب فيها المترو، في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، في أيٍّ من المُدُن الكبرى، وألمح شخصًا سكرانًا يقترب بوجهه وأنفاسه الكريهة من راكبةٍ تستقل المترو بمفردها، أتذكَّر أبي على الفور. ربَّما شعر أبي بمزيجٍ من الأسى والنـدم، تلـك الظـهيرة، لإدراكـه بأنـه أهـان الكثـير مـن الفتيـات والسيدات، على مدار سنواتٍ طويلة، وهو في حالة سُكر. نادرًا ما تتصرف المرأة بشجاعة، وتهين الرجل المتحرش، أو تصفعه على وجـهه. حتـى سـائقو البـاصـات، ذوو العضلات المفتولة، يخشـون مواجهة المشاغبين والمتحرشين. كل ما يرغبون فيه هو العودة للجراج "ج" الرئيسي بسلام، والتوجه إلى بيوتهم بعد ذلك.

تقع المفاجأة التي وعدني بها أبي في "بلويمكول ستريت"، وهو



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طريقٌ رئيسيٌ يؤدّي إلى مركز مدينة "آلست". هناك، حيث الأحياء القديمة التي لا تحتاج للمطر كي تبدو كمشهدٍ في فيلمٍ أيرلندي. يضمُّ الشارع أيضًا متجر "كولمار"، أحد أغلى وأفضل الأماكن المتخصصة في بيع الأدوات الرياضية. هناك، جعلني أبي أختار حذاءً رياضيًا، دفع ثمنه من النقود التي ادَّخرها خلال وجوده في المصحَّة. لأول مرَّة، يصبح الحصول على حذاء ركض جيِّدٍ، أمرًا ممكنًا. سيتبقى بعض المال أيضًا، ما سيمكِّننا من زيارة طبيب الأسنان، ليفحصني أخيرًا؛ ومن شراء معطفٍ سميكٍ حقًّا، يجعلني أشتاق لفصل الشتاء.

حذاءٌ رياضي. هذا صحيح. كنتُ أركض في تلك الأيّام، وأمتلك عَزمًا وإصرارًا. أقطع مسافاتٍ طويلة، وأعبر حقولًا شاسعة، وبخاصَّةٍ في شهريّ أكتوبر ونوفمبر، حين يكتسب الريف رائحةً جميلة، وتظهر البذور على رؤوس الحشائش والأعشاب الطويلة. لم أكن صاحب موهبةٍ فذَّة، لكنني اعتدتُ تحقيق مستوياتٍ متقدِّمة، وكنتُ أعود من السباقات بميدالية أو كأس، بين الحين والآخَر، عن طريق الصُدفة على الأرجح، بعد أن يباغِت الإنهاك المتسابقين الأفضل. تناسب مثل هذه الرياضات مَن يعانون من الفقر، إذ لا تتطلب أيَّة معدَّات، على الإطلاق. يمكنك الركض في أيِّ مكان، دون دفع أيَّة رسوم. في تلك السنوات، أثبت بعض الرياضيين، مثل "زولا بَدّ"، بأنك لا تحتاج إلى حذاءٍ رياضي أصلًا. حطَّموا أرقامًا قياسية وهم حُفاة. كما ظهر في تلك الفترة جيلٌ كاملٌ من الرياضيين القادمين من "أثيوبيا" و"كينيا"، رسَّخوا مفهوم أن الفقر الشديد حافزٌ أكثر إلهامًا من زوجٍ من الأحذية الرياضية. لكنني، مع ذلك، كنت سعيدًا بحذائي الجديد. أصبحت إمكانية فوزي بالسِباق، شِبه مؤكَّدة. لياقتي البدنية جيدة، بل ممتازة، في الواقع، إن كان يُسمَح لي ببعض الغرور هنا؛ ومع ذلك، لا أظن أنني سأتمكن من قَطع مسافة خمسة آلاف متر في أقل من نصف ساعة. هذا ما أظنُّه، على الأقل، لأنني لم أفكِّر - مجرَّد تفكير - في السَّير ببطءٍ حتى، وليس العَدو، مرتديًا "شورت" رياضي. لم أتحمَّل فكرة الخروج من المنزل في "شورت"، من الأساس. لاحقًا، عندما قرأت "عزلة عدَّاء المسافات الطويلة"



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لـ"آلان سيليتو"، أدركتُ أن المشاعر التي مررتُ بها منطقيةٌ تمامًا، وأن اختياري لممارسة الركض كان طبيعيًا أيضًا. الركض هو رياضة المدارس الداخلية وملاجىء الأيتام وإصلاحيات الأحداث ودُور رعاية الأولاد، وهي جميعها جانبٌ من المصير الذي كان ينتظرني. كانت المدارس تفخر ببطولات تلاميذها، وتعمد إلى ربط اسمها وسُمعتها باسم الطالب الفائز، وكأنها تثبت بذلك أن نظامها الصارم وأساليب تدريسها العفنة هي التي جعلت منه بطلًا. لا عجب أنني فشلت في كل سباقٍ يجمع بين المدارس المختلفة. مثل بطل هذه الرواية القصيرة، كنتُ أمقت فكرة كسب كأس بطولةٍ باسم مدرستي.

إلى جانب ذلك، كان الركض هو الرياضة التي ورثتها عن أبي. تميّزَ فيها، في صِباه، وكثيرًا ما سمعت في طفولتي المبكّرة أن موقد الغاز الذي نملكه هو الجائزة التي فاز بها في سباق "العَدو الريفي". أحسَّت أمِّي بالفخر والسعادة، ولا بدَّ أنها توقعت أن يُفرَش بيتهما كاملًا بقوّة ساقيّ أبي. سمعتُ كيف تولّى والده تدريبه. كان يرافقه على درَّاجته البخارية الصغيرة، بسيجارٍ يتدلّى من فمه، طوال المسافة المقررة للسباق. لذلك سعد أبي باختياري لهذه الرياضة، وأراد إهدائي حذاءً باهظ الثمن. شعر بالفخر لأن يتبع ابنه خطاه.

- عليك أن تلبس هذا الحذاء قبل السباق.

عصر اليوم ذاته، اصطحبني أبي بملابسي الرياضية إلى حقلٍ فسيح، ترتفع فيه الذُرة لمسافاتٍ عالية، خلال أشهر الصيف، وتتيح لشُبّان وفتيات "آرسينديجيم" مكانًا خَفيًا للمضاجعة. تلك حكايةٌ متكررةٌ في كل قرية وبلدةٍ تضمُّ حقول ذُرة. عَدَونا معًا، جنبًا إلى جنب. قال يوجِّهني:

- تنفَّس عند كل خطوةٍ رابعة.

فكّرتُ بأنه أحمق. رجلٌ ثلاثيني تقليدي، يشعر بالذعر من تقدُّمه في السِن، ويبالغ في ممارسة مختلف الأفعال والأنشطة، تعويضًا عن كل ما فاته، ومحاولةً لاستعادة قوّته البدنية المفقودة. صالات

60 دقيقة متبقية من ... 73%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الـ"جيم" الرياضية تحقق أرباحًا هائلةً بسبب زبائن يشبهونه. صحيحٌ أنه توقف عن التدخين، لكن الضرر الذي خلقه لنفسه، سيبقى جاثمًا داخله. على كل حال، لا يزال يدخن بشراهة، وها هو يحاول طرد البلغم الذي يسكن رئتيه، بمحاولة ممارسة الرياضة. لكنه نفَّذ تعليماته بدقَّة. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، نَفَس. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، نَفَس. زادَ من سُرعة الإيقاع، تدريجيًا، إلى أن واجهتُ مشكلة في مجاراته والتنافس معه. الصراع الخالد بين الأب والابن، والذي لا يهدأ أبدًا إلى أن يتدخل العُمر ويقرِّر مَن هو المنتصر للأبد. مَن الأقوى. يواصل الآباء تقديم السلاح الذي سيقتلهم، لأبنائهم. يتوسلون الهزيمة. اليوم قادم، لا محالة. لسنا بحاجة لأن نمزح معًا عبر خوض جولاتٍ من المصارعة، فالحقيقة واضحةٌ وأنا الطرف الأقوى الآن، دون لعبٍ أو مزاح. يشعر بالزَّهو لوصول ابنه إلى نضجٍ جسدي كامل، ويشعر - في الوقت ذاته - بألمٍ منبعه أنه بات عليه البدء في الانسحاب من الساحة. ليس الآن. لا يزال أبي هو الأسرع. كاد طحالي أن ينفجر. طلبتُ منه أن يُبطىء من سُرعته. رحَّب بطلبي، لأنه هو نفسه كان مُتعَبًا. استمدَّ طاقته من إرادته، وليس من ساقيه.

قال بأنفاسٍ لاهثةٍ ومتقطِّعة:

- أنت عَدّاءٌ جيِّدٌ يا بُنيّ.

كان شاحبًا، والأغلب أنني كنتُ أكثر شحوبًا منه.

استطرد قائلًا:

- هل حذاؤك الجديد مُريح؟

ليس هناك ما هو أكثر راحةً من هذا الحذاء الرياضي الجديد الذي أنتعله.

- هل ستشارك في سباق الغد؟

أجبته بإيماءة. لا شكَّ في أنني كنتُ كثير الإيماءات في ذلك الوقت.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سأكون هناك، لمشاهدتك.

أعرفُ ظاهرة الآباء المُشَجِّعين. أسمعهم كل أسبوع، وهم يردِّدون أسماء أبنائهم من على جانبيّ الطريق، يتبعونها بكلمة "هَيَّا!". في بعض الأحيان، يرفقونها بنصيحةٍ سريعةٍ، تفتقر إلى المنطق. الأكثر إزعاجًا هم أولئك الآباء الذين يركبون دراجاتهم الهوائية، ويقودونها في ذات المسار المخصَّص للسباق. أمكنني التعايش على نحوٍ جيِّدٍ دون هذا التشجيع؛ لكن القاضي المختصَّ بشؤون القُصَّر لم يكن مقتنعًا بذلك. كنتُ قد بدأت أدرك أن لي أبًا يهتمُّ بي. حضوره السباق لم يكن سيزيد من ذلك الإحساس. وحتى لو لم أشعر بذلك، ما كان وجوده سيولِّد ذلك الإحساس داخلي. على كل حال، تفهمتُ رغبة والدي في إظهار أبوَّته، لنفسه قبل أي شخصٍ آخر. لقد أمضى ثلاثة أشهرٍ في المصحَّة، ومن الطبيعي أن يشتاق لابنه ولمشاعر الأبوَّة. وجوده في اليوم التالي، وهو يشجِّعني، سيجعلني أشعر بأنه ينبغي عليّ الفوز بأحد المراكز الثلاثة الأولى، على الأقل. كنتُ قد سمعت الكثير من الحكايات حول فكرة الآمال والتوقعات، حتى بِتُّ أفهم معناها. حسنًا، طالما أنه يرغب في رؤيتي وأنا أتسابق، فما المانع؟

لم يكن ليلومه أحد لو قرَّر الاستلقاء على الأريكة، وأخذ قسطٍ من الراحة عقب تمرين الركض، إلّا أن والدي لم يفعل ذلك. ظل مُتعَبًا وسعيدًا، في آنٍ واحد. جالَ في أرجاء البيت، يصحبه بعض التوتر، إلى أن وجد شيئًا يفعله. عثر على صفيحة طلاءٍ قديمة، فغمره الارتياح لبعض الوقت. انهمك في دهن باب المخزن بحماسٍ رغم أنه لم يكن بحاجة لتجديد. ولأن دهن الأبواب لا يستغرق ساعات، فسرعان ما انتهت مهمته. أمسك بآلة جَزِّ الحشائش بعدها مباشرةً، وشذّب حشائش حديقتنا بالغة الصغر. تلك أيضًا مهمةٌ لا جدوى منها. لا توجد أبوابٌ وآلات جَزِّ حشائش تكفي لمنح مُدمِنٍ سابقٍ الارتياح الذي ينشده، والذي لا يجده سوى في صندوق بيرة.

قَرَضَ أظافره بأسنانه، وتحمَّل سخافة البرامج التليفزيونية. أشعل سيجارةً تلو أخرى. عبث بشاربه وأصابع قدميه. شرب



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكثير من القهوة، بشكلٍ متتابع. أخيرًا، تمكن من كبح توتره بعض الشيء، وتناول عشاءه المكوَّن من سبعة شرائح من الخبز، مع لحم الخنزير، وطبقاتٍ كثيفةٍ من المستردة. كان يجرُّ نفسه جَرًّا، عبر ساعات اليوم، من وجبةٍ دسمةٍ لأخرى. تشاغل بِعَضِّ أقلام الحبر الجاف، وأعواد تنظيف الأسنان. كان بإمكانه مضاجعة أكثر من عشر نساء، في حالته تلك، إلى حدِّ إنهاكهن، دون أن يُشبع ذلك نهمه لما يشتاق إليه حقًّا. سأله "جيردر" عن هذه النقطة، حين عاد إلى البيت لتناول الشاي، استعدادًا لسهرةٍ طويلةٍ من الشُرب المتواصل.

- ثلاثة أشهرٍ في تلك المصحَّة! لا بدَّ أن أصابعك متقرِّحةٌ الآن من كثرة ممارستك للعادة السِرِّية!

- لو أنك تعلم ما يجري حقًّا في تلك المصحَّة، لجحظت عيناك في رأسك الدميم هذا! كل مَن هناك يضاجعون بعضهم. كل واحد داخل سروال الآخَر! فريق العَمل، مع بعضهم بعضًا. النزلاء مع بعضهم بعضًا. وفريق العمل مع النزلاء.

- فعلًا؟ هل أنت جادٌّ؟ في هذه الحالة، سأدخلها أنا أيضًا. إنها طريقةٌ مُسَلِّيةٌ للإقلاع عن الخمور!

- هذا ما تظنه أنت. أرغب في رؤيتك وقد توقفتَ عن الشُرب!

في تلك اللحظة، وصل "هيرمان". عندما رأيت حركة عينيه، أمكنني التخمين بأنه شرب نحو عشرين كوب بيرة، حتى الآن. سأل أبي إن كان سيرافقهم إلى الحانة، لاحقًا.

- عليك أن تُريهم وجهك يا أخي. يظنون أنك مجنونٌ لأنك أمضيت ثلاثة أشهرٍ داخل مصحة. يقولون لنا: "شقيقكم بي مجنون". أشعر بالغثيان من تكرارهم لهذه العبارة. سأضطر لضربهم وتحطيم وجوههم اللعينة. لستُ دائمًا في مزاجٍ يدفعني للضرب! أرجوك. تعالَ معنا ليروا بأنفسهم أنك لا تزال طبيعيًا.

علَّق "جيردر":



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعم يا "بي". الناس يسألون عنك، طوال الوقت. إنهم يشتاقون إليك. كل من نعرف سيكون هناك. إنها ليلة البلياردو. "ويلي"، ساعي البريد. و"بيتر ستوكينج" و"آندريه" النحيل، و"سوا" السمين، والخوري الألثغ، بالإضافة إلى "رودي" و"آرليت" و"جان بول كانوت"، و"فريدي" الحلّاق، و"كامييل" من "مايل".. جميعهم بانتظارك.

أضاف "هيرمان"، محاولًا أن يكون دبلوماسيًا:

- ثم إن وجودك في الحانة لا يعني أنه ينبغي عليك أن تشرب. إنهم يبيعون "تورتِل" هناك.

كانت "تورتِل" هي أول ماركةٍ سمعنا عنها للبيرة الخالية من الكحول. كنّا ننظر إليها باحتقارٍ بالغ. يمكن اعتبار المسألة نوعًا من "التشاؤم الثقافي". تابعنا حالة من الرداءة المماثِلة تجتاح المجتمع: فجأةً، ظهرت على أرفف المحلّات والدكاكين عبوات قهوةٍ خاليةٍ من الكافيين، رفضنا شراءها بطبيعة الحال. ثم بدؤوا يبيعون سجائر خاليةً من النيكوتين، دون أدنى شعور بالخجل من أنفسهم. وصارت الزبدة الخالية من ذَرَّة دهونٍ واحدةٍ هي التي تعبِّر عن الأمهات العصريات! ألقينا باللوم على الأمريكان، الذين يفرضون وحشيتهم على العالَم بأكمله، من خلال اختراع منتجاتٍ غير مناسبةٍ للاستهلاك الآدمي.

قال "هيرمان":

- الخطوة التالية هي اختراع لحمٍ خالٍ من اللحم!

لطالما كان يميل للمبالغة.

كان أبي يرفض "تورتِل"، تمامًا. مقارنتها بالبيرة الحقيقية تشبه - في رأيه - مقارنة دمية جنسية بامرأةٍ من لحم ودم. لن يتناولها لمجرَّد أنه توقف عن شُرب الكحوليات. يفضِّل أن يمضي الليلة وهو يرتشف أكوابًا صغيرةً من الماء.

- لا بأس. تعالَ واشرب أكوابًا من الماء، طوال الليل. ما همّنا؟ ما



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي ستفعله هنا؟ تجلس على الأريكة وتشاهد برامج التليفزيون الألماني مع ماما؟ لا تكن غبيًا. تعال والعب البلياردو.

ليس بإمكان أبي تفادي الكحوليات مدى الحياة. هو نفسه يدرك ذلك جيدًا. عليه أن يعود لوظيفته، في يومٍ من الأيام، ويقوم بتوصيل الخطابات، من جديد. لا يمر أيُّ ساعيَ بريدٍ آخَر على هذا العدد من الحانات في المناطق المحددة له إلّا هو. كان يعدُّ نفسه محظوظًا، لكثرتها. "جيراردزبيرجين جيت" و"لانج زوت" و"كورتي زوت"، وميدان السوق. تقع أحقر الحانات في هذه المناطق. تجتمع داخلها حيواناتٌ آدمية، طوال الليل. تعرف صاحبات تلك الحانات واجبهن تجاه ساعي بريد المنطقة، ولذلك يحرصن على صَبِّ شرابٍ له، كلما أحضر لهن الرسائل والصحف. شتاءً، كن يقدِّمن له مشروبات قويَّة، مثل الـ"بورت"، تعينه على تحمُّل البرد القارس والرياح العاصفة، واعتبرن ذلك عملًا خيريًا. كلَّما كان المشروب قويًّا، تضاءلت كمِّيته. رشفة "كونياك" مثلًا. يعاني كبد ساعي البريد خلال أشهر الشتاء الطويلة، ويتوق لرؤية الربيع. حين يتوجه ساعي البريد لتوصيل الراتب التقاعدي لأحد المُسِنِّين، يتعيَّن عليه الجلوس إلى طاولة المطبخ، حيث تنتظره زجاجة "جينيفير" وكأسين، إلى جوار صندوقٍ من السيجار الرخيص، يزيِّنه رسمٌ لملك فرنسي قديمٍ يرتدي جوارب ضيقةً من النايلون. خلال أيّام، سيعلن أحد أطبَّاء المصحَّة، رسميًا، بأن أبي تخلَّص من إدمانه على الكحوليات. سيودِّعه، متمنيًا له حظًّا سعيدًا، وبعدها سيتعيَّن عليه أن يقابل كل هذا الكرم الذي يستقبله به الناس، خلال ساعات عمله، بالرفض. لا مزيد من الـ"جينيفير" والـ"بورت" والبيرة. كلّا. كلّا. بتاتًا. "شكرًا"، هكذا سيجيبهم. على الإنسان أن يكون مهذَّبًا عندما يرفض كأسًا تؤدِّي إلى انتكاس حالته. ولكن كيف سيتمكن من فعل ذلك، وهو غير قادر على مجرَّد لعب البلياردو في حانة "سوشال"؟

- أنتَ مُحِقٌّ. سآتي معكم، وألعب البلياردو. لكنني لن أبقى طويلًا.

خلال هذا الحوار، التزمت جدَّتي الصمت، وراحت تعبث بمريلة المطبخ التي تلبسها. ذلك ما تفعله دائمًا عندما تعانى من توتر



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شديد. كُنَّا سنفعل مثلها، على الأغلب، لكن بدلًا من مريلة المطبخ، فنحن لدينا شواربنا لنمسدها في اللحظات الصعبة والحرجة. تحدَّثت أخيرًا، وسألته:

- "بيير"، لن تتصرف بحماقة، أليس ذلك؟

- سأكون عاقلًا، يا ماما. لا تقلقي. لعبة بلياردو مع أصدقائي، أعود بعدها إلى البيت. صدِّقيني، سأعود أسرع مما تتخيلين.

- ولكن...

- لكن ماذا يا ماما؟

- لا عليك.

كان قد استحم. لو كان بإمكان التحمِّم أن يخلِّصه من أفكاره المُلِحَّة، لتحمَّم خمس مرَّات. كل ما سيفعله الآن هو ارتداء معطفه، والسير وراء إخوته. قبل أن يصفق الباب وراءه، التفتَ نحوي، ناظرًا إليَّ:

- تذكّر يا بطل، سأكون هناك في الغد، أتابع السباق. اذهب للنوم مُبَكِّرًا، لتستيقظ نشيطًا وفي كامل لياقتك.

أمضيتُ بقية المساء مع جدَّتي. شاهدنا برامج التليفزيون الألماني. كانت مهووسةً بتلك البرامج التي تتركها في مزاجٍ كئيب. حملت لها تلك الأغاني العاطفية مشاعر متناقضة. تعيدها إلى الحرب، وتؤلم بطنها الذي عانى من جوعٍ متواصلٍ في تلك الأيام. تعيدها أيضًا إلى شبابها، الذي تخللت أيامه غاراتٌ متوالية. أيامٌ مارس الناس فيها الحُبَّ، ورقصوا، رغم جميع الظروف والمخاطر. حين انتهت الحرب، كانت جدَّتي تغيِّر حفاضات صغارها، وتنتظر عودة زوجها الذي شاخت ملامحه مُبَكِّرًا بسبب إفراطه في الشُرب. كان يعاشِرها، ويجعلها تحمل في المزيد من الأطفال، وهو في حالة غضبٍ وانزعاج. لم تعرف أيامًا سعيدة، كما فاتها الاستمتاع بالانتقال من حياة البؤس الشديد إلى حياةٍ أكثر رخاءً. تستمع إلى الأغاني المؤدَّاة على



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آلات النفخ النحاسية. تشاركهم الغناء، وتمسح دموعها بمنديلٍ تحتفظ به في ثَنيةِ كُمِّ الـ"بلوفر" لمثل هذه الأوقات. تلك الفرق الموسيقية، التي تعتمد على آلات النفخ النحاسية، والجمهور الذي يرقص على نغماتها. وثياب الفرق: قبعة صيدٍ تعلوها ريشة طائر "التـدرج"، وبنطلونـات واسـعة تضيق وتنتـهي عند الـرُكبتين، يلبسون معها حمَّالات. يترك أولئك المغنُّون أثرًا عميقًا في روح جـدَّتي، أمَّا المغنـيِّن الجـدد فأصـواتهم أقـرب للـبَط. أسـتمتع بمشـاهدة بـرامج الغنـاء الألمانيـة معهـا مسـاء السبت، وأحـبُّ الاسـتماع إلـى ذكرياتـها عـن رقصة الـ"شارلستون"، وعن العصر الذهبي للشاشة الفضية، حينما كانوا يقولون "سنذهب للأفلام"، وليس "سنذهب للسينما". في تلك الأيام، كانت الرُكّبة العارية تُعَدُّ مثيرةً جنسيًا.

في أمسيات السبت، تجلس جدَّتي بجسمها الآخذ في التضاؤل، وشعرها الأبيض، على مقعدها المُريح، وهي تدندن مع الأغنيات الألمانيـة، بصوتٍ خافتٍ جدًا، حتى لا أتبين مدى حزنها. كانت ملاكًا حقيقيًا. كانت الحكايات حصادُ أيامها. والآن، كلَّما تقدَّم بي العُمر، صرتُ مثلها، وباتَ الماضي والحكايات هما الجانب الأكبر والأهمُّ من حياتي. تقبَّلتُ ذلك. ربَّما كان عليَّ أن أرفض جعل هذا الـجزء الهامشـي محـور حيـاتي، لكن حبيبتي سمعت حكاياتي عشرات المرَّات، وأصبحت تقاطعني كلَّما سردتُ إحداها. أصبحنا أيـضًا مثـل جـدَّتي، نجلس على مقاعـدنا المريحـة كـي نقصَّ الحكايات. سيصير أحدنا حكاية الآخر. لديَّ شعورٌ بأنها هي التي ستسرد القصة الأخيرة. ربَّما كنتُ أنا. سأثير ضجر الآخرين، خلال أمسية لا أرغب في قضائها بمفردي، وأنا أجبرهم على الاستماع إلى ذكريات السعادة، التي نتشاركها أنا وهي اليوم؛ لكنني أضطر إلى الصمت والاحتفاظ لنفسي ببقية العبارات التي حملتها طويلًا، في نهاية الأمر.

يمكـن للنـاس انتقـاد البـرامج الألمانيـة كيفما شاؤوا، لكنها - في الـواقع - مُبهِجةٌ للغاية، وتمنـح المشاهدين إحساسًا بأن الحيـاة حفلٌ كبيـر. تسـتغرق فـي متابعتـها، باسـتمتاع، إلـى أن يفاجئك



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المذيع في اللحظات الأخيرة للحلقة بعباراتٍ وداعية، مُعلِنًا أن الحلقة القادمة من البيرة والأغاني ستُسَجَّل في "وستفاليا" أو "ميونيخ" أو في أيِّ مكانٍ آخر يحوي ساحة احتفالاتٍ فسيحة.

لم يعد أبي إلى المنزل.

نعرفُ أن ساعتنا لا تقدِّم ولا تؤخِّر. يمكن للعبة البليـاردو أن تستغرق وقتًا طويلًا. عقب انتهاء البرنامج، تابعنا فيلمًا بإضاءةٍ خافتـةٍ لا تُظـهِر عُري البطـلات بوضـوح. ارتفـع صـوت لـهاث الممثلات، وهن يمارسن الجنس. كانت المشاهد متحفظة، ولم تخرج عن الإطار الأخلاقي المقبول، لكنها - مع ذلك - ممتعة للغاية لفتى في عُمري. كان للبطلات أبناء، ومشكلات زوجية. لا بأس ببعض الأمراض القاتلة، وبخاصّة أنها ستؤدّي إلى اقتراب النهاية الأليمة والكئيبة. يمكنك بعدها إضافة الكثير من التفاصيل التي تبعـث علـى الارتيـاح إلـى السـيناريو، مثـل عثـور الأم المصـابة بالمرض القاتل على أسرةٍ محترمةٍ ترعى أطفالها، عقب وفاتها. أو تعرُّض الزوج الخائن لكارثةٍ لا يُحسَد عليها.

انتـهت جمـيع الممثـلات، علـى جمـيع القنـوات التليفزيونيـة، من اللهاث، وارتدين ملابسهن ثانيةً، وبرد العرق الذي تصبب منهن، على أجسادهن؛ ومع ذلك لم يعد أبي. أعقب ذلك أفلامٌ أخرى. لم تكن الأعمال الفنِّية التي تُعرَض في تلك الساعة من الليل تلائم الفئة العُمرية التي أنتمي إليها. إضاءتها أفضل، ومشاهدها أكثر وضوحًا. لم أكن متأكدًا من أن جدَّتي ترغب في مشاهدتها، حتى لو لم أكن موجودًا. اتجهتْ إلى الحمَّام، خلعتْ طقم الأسنان من فمـها، ولبسـت ثيـاب النـوم. أزالـت الأسـلاك الكـهربائية للأجـهزة المختلفة من مقابسها، تحسُّبًا لأيِّ عاصفةٍ رعدية مُحتَمَلة؛ لم تعلن الأرصـاد الجويـة عـن عاصـفةٍ رعـدية.. عـادةً مـا تكـون تنبؤاتها خاطئةً ومعكوسة! ومثلما أفعل كل يومين، حملتُ الدلو الخاصّ بها إلى حجرتها في الطابق العلوي.

يمكن للعبة البلياردو أن تستغرق وقتًا طويلًا.

لا شكَّ أن جدَّتي «كانت» مستلقيةً في فراشها، تفعل مثلما أفعل، 153 صفحة متبقية 78%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي الوقت ذاته أيضًا. كنَّا نتلفت حولنا في انتظار أي صوتٍ أو حركة. لا بدَّ أن أمِّي الغبية أمضت ليالي طويلةً وهي تراقب الوقت على المُنَبِّه. تكبر آمالها كلَّما سمعتْ صوت سيارةٍ تقترب ببطء، وتظن بأنه تاكسي يُنزِّل أبي أمام المنزل. لم يعد الحال الذي يرجع عليه إلى المنزل مُهِمًّا، الأهمُّ أن يعود. كل حفيفٍ لورقة شجرٍ تحت نافذتها، فرصةٌ لتقنع نفسها بأنه هو، وأنه يضع يده داخل جيبه بحثًا عن مفتاح الباب. في نهاية الأمر، تستغرق في النوم، دون أن تدرك متى استسلمت لنعاسها. تستيقظ في غرفةٍ خاوية، لم يطأها أحدٌ خلال الليل.

لم يكن أبي في المنزل حين تناولنا إفطارنا. ولم يكن في البيت وقت العشاء، حين أبقت جدَّتي الفاصوليا الخضراء دافئةً في حال عودته. لم يعد أعمامي كذلك، لكنهم لم يطلبوا منَّا انتظارهم قبيل مغادرتهم، مثلما فعل. كنتُ قد شاركتُ في السباق، عصر ذلك اليوم، وأنا ألبس الحذاء الرياضي الجديد، دون أيِّ ضغطٍ نفسي قد يسبِّبه تشجيع أبي بجواري.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# نسل العائلة

"أكـرهُ شـخصين". أفـكِّر فـي ذلـك وأنـا أعبـر المـدخل الرئيسـي للمستشفى. امرأتان. ولَدَتني إحداهما، والأخرى تَلِدُ ابني الآن، في الـداخل. هنـاك روابـطٌ عِدَّةٌ تجمـع بـين المـرأتين، لكن تحديدها مسألةٌ صعبة. تشعرُ باضطراب عندما تكون على حافَّة التحوُّل المفاجىء من البنوَّة إلى الأبوَّة. سوف أفكِّر في المسألة بعُمق، لاحقًا؛ لهذا السبب لدينا "لاحقًا". لكل إنسانٍ شخصيته المستقلَّة، بعيوبها القبيحة ومميزاتها. تفحُّص العيوب، والتوصل إلى عدم قدرتي على التعايش مع أصحابها، هي مهمَّتي ومسؤوليتي. كان عليّ أن أكون أكثر عقلانية. من المؤسِف أنني ساهمتُ في خَلق طفل، قبل تفحُّص عيوب الطرف الآخَر. لا شكَّ أن الأم الموشكة على الولادة، تشعر - بدورها - بالأسف. بغضِّ النظر عن الوضع، فإنني مضطرٌ لهجرها، آجلًا أم عاجلًا، إن كنتُ أملك الشجاعة على



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقبُّل السعادة. إذا تخلَّيتَ عن امرأةٍ حامل، فإنك على قدرٍ من الحقارة؛ لكنك لم تتمتَّع بالقدر الكافي من الحقارة، لتركها قبل مضاجعتها. لقد أدَّيتُ إحدى مهامِّي الرائعة، المعتادة. جلبتُ التعاسة لشخصٍ جديد. ربَّما ساهمتُ فقط في إضافة المزيد من التعاسة لحياتها البائسة أصلًا، أو التي ترغب في جعلها على ذلك النحو. مِن الناس مَن يطمح لذلك، لأن التعاسة هي الطريق الأسهل، والأقل مقاومة.

طفلٌ.. هديةُ وداع. لا بأس. بعض النساء يتلقين هدايا أقل قيمة من ذلك.

- هل أنت على ما يرام؟

لاحظتْ ممرضةٌ ذات مظهرٍ بشعٍ ملامح التقزز التي تعلو وجهي، وظنَّت أنني مصابٌ بالغثيان من شدَّة التوتر. كنتُ على وشك أن أمنح العالَم بأسره كامِل كراهيتي. العالَم هو الذي يسعى لاستفزاز مشاعري. إنه واحد من تلك الأيام اللعينة! على كل حال، هل أبدو كشخصٍ ينتظر من الآخرين أن يسألوه عمَّا إذا كان على ما يرام؟ لستُ مفرِط الحساسية. حتى لو تدلَّت أحشاؤها من جسدها، فلن أتأثر أبدًا.

- سأذهب لتمشية قصيرة.. أريد التخلص من تلك الدبابير التي تطن في رأسي.

ما إن قلتُ ذلك، حتى تنبَّهتُ لسخافة هذا التعبير الدارِج للتعبير عن الحيرة والاضطراب. ما علاقة الدبابير بالحيرة؟

- رحم زوجتك آخذٌ في الاتساع. لو كنتُ مكانك، فلن أبتعد أو أغيب طويلًا. لن ترغب في أن تفوتك لحظة الميلاد.

- إنها ليست زوجتي. لسنا متزوجين. هل هناك ماكينة بيع سجائر هنا؟

أجابت باستنكار:

- من فضلك! نحن في مستشفى! هل تظن بأننا سنضع آلات بيع



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السجائر في المكان؟

غبيَّة! بقرة! هناك أجهزة لبيع المشروبات الغازية في مختلف ممرات المستشفى. تلك المشروبات هي السم بعينه.

لحسن الحظ، لمحتُ مريض سرطان، في المدخل الرئيسي. يمتلكون سجائر، عادةً.

هناك دكَّانٌ داخل هذا المبنى القذر، يبيع الصحف والمجلات، والروايات الرومانسية المليئة بالأطباء، والأزهار، وسلالًا من العنب. إذا لم أكن مخطئًا، فإنهم يبيعون السجائر أيضًا. لكننا لا نزال ليلًا. شمسُ الصيف توشك على بدء رحلتها اليومية الكئيبة، وتُنبىء عن يومٍ حارٍّ للغاية. الواجهة المعدنية للدكَّان لا تزال مغلقة. أتسوَّل سيجارةً من مريض السرطان.

أحاول بدء حوارٍ معه. أقول له:

- إنهم قُساةٌ هنا. يمنعون إشعال السجائر في كافَّة أنحاء المبنى. قبل سنوات، كانت المستشفيات تضم غرفًا مخصصةً للتدخين. صحيحٌ أن رائحتها كانت خانقةً جدًّا، لكنك لم تكن مضطرًا للذهاب إلى الخارج لتدخن. في هذه الأيام، يتمُّ التعامل مع المدِّخنين كما لو كانوا مرضى جذام!

بدلًا من أن يتجاوب مع انتقاداتي، كما توقعت، سألني:

- هل زوجتك هنا للولادة؟

- ليست زوجتي!

كانت هذه إجابةً كافيةً على سؤاله. قال:

- قبل سبعة عشر عامًا، وقفتُ هنا، مكانك بالضبط، في انتظار أن تلد زوجتي. ولدت قيصريًا، في نهاية الأمر.

- أوه..

ما الذي ينبغي عليَّ قوله؟ لماذا سأهتم بطريقة ولادة زوجته؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هكذا تسير الأمور. دورة الحياة. خلال سنواتٍ قليلة، سأكون مكانه.

شعرتُ بالارتياح حين أنهى سيجارته وتوجَّه إلى غرفته. قلتُ له:

- أراك لاحقًا.

كلانا يعرف أنها كذبة. هأنا أقف في هذا المكان، منزعجًا. لم تسنح لي أبدًا فرصة لقاء شخصٍ يكره الأطفال أكثر مِنِّي. كُرهي للصغار، جعلني شخصًا غير مرغوبٍ في وجوده، بالنسبة لصديقاتي من الأمّهات، اللاتي استنسخن أنفسهن في صُوَرٍ مُصَغَّرةٍ عنهن. ليس مسموحًا لك أبدًا انتقاد تلك الكائنات، لأنهم أذكى ممن في أعمارهم، ويتكلَّمون جيدًا مقارنةً بِمَن يماثلونهم سِنًّا. كل واحدٍ منهم " أينشتاين " صغير!

لم يرفض أحدٌ فكرة الإنجاب أكثر مِنِّي، ومع ذلك هأنا أقف هنا، قريبًا من غرفة الولادة، التي ترقد فيها امرأةٌ تعاني آلام المخاض كي تلد طفلًا. طفلي أنا، لا غير. موقفٌ غايةٌ في السخف. كيف كنتُ متيقنًا، لسنواتٍ طوال، بأن خصوبتي ستوائِم نفسها مع قناعاتي؟ وبأن رفضي للإنجاب سيغادر عقلي متجهًا إلى خصيتيَّ؟ شخصيةٌ مثلي لا توجد سوى في التراجيديات الإغريقية، أو في المسلسلات الرخيصة التي تبتعد عن المنطق وتركِّز على الغباء وانعدام المنطق. لدي أملٌ ضعيفٌ في أن يولَد الطفل ميتًا، أو مشوهًا في هيئة الوحش الأسطوري "كيمّير"، ولن يبقى على قيد الحياة إلا لساعاتٍ معدودة. في تلك الحالة، لن أستطيع كتم سعادتي. حتى لو كنتُ أؤمن بوجود الله، فإنه لن يستجيب لدعائي بأن يولد الطفل ميتًا (أتوسَّل إليك..). إن أفضل ما يمكن أن يحدث لي الآن هو أن تنظر إليَّ الممرضات بأعينٍ مليئةٍ بالتعاطف، وإحداهن تناولني مولودًا أسمر اللون. عندها، لن يلومني أحدٌ عندما أحزم حقائبي مغادِرًا. سيشعرون بالأسى تجاهي، وسيدعمون موقفي. ما الفرق بين تصرُّفي في الحالتين؟ هذه المَرَّة تعرَّضتُ للخيانة. هل تمنَّى الأحد الخيانة مثلما فعلت في تلك اللحظة؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دخَّنت السيجارة حتى وصلت إلى الفلتر. الطعم بشع، لكنني أريد واحدةً أخرى فورًا. أيُّ رجلٍ غيري، كان سيدخل المبنى، لخلق ذكرياتٍ مشتركةٍ مع رفيقة حياته، بغضِّ النظر إن كانت جميلةً أو مؤلمة، أو مزيجًا من الاثنتين. لستُ أنا. ليس بوسعي فعل ذلك. لاحقًا، ربَّما. أمَّا حاليًا، فاستطعتُ إقناع نفسي بأنه لا مكان أفضل من المدخل الرئيسي للمستشفى.

فكّرتُ وقلتُ لنفسي: "أرأيت؟ ليس عيبًا ألاَّ ترغب في إنجاب طفل. يولَد الصغار في المستشفيات. إنهم ليسوا سوى مرض. أن ترغب فيهم، مرضٌ أكبر".

زمجرَ كلبٌ في مكانٍ قريب. رغم مرور سنوات، لا تزال الشكوك السخيفة تطاردني، ولذلك خطرت "بلوندي" ببالي. كلما سمعتُ صوت كلبٍ شرس، فكَّرتُ بـ"بلوندي"، ورغبتها في الانتقام منِّي أنا و"جيردر". مرَّت أعوامٌ طويلةٌ منذ أن فكَّت قَيدها. حيوانٌ مثلها، سيحافظ على ذاكرته في أنفه. سوف تتشمم طريقها نحونا، في جميع أنحاء الكوكب، إن استدعى الأمر، وتعثر علينا في نهاية الأمر. يمكن للحقد والرغبة في الانتقام أن يُطيلا العُمر. لا شكَّ في وجود نماذج أسطورية تؤكِّد ذلك. كان على صوت العقل مواجهتي بحقائق تعيدني إلى صوابي، ولكن أين هي الحقائق؟ لقد أغرقنا جِراء "بلوندي". اعتصر الألم قلوبنا، لكن الكلبة لا تعرف ذلك. وحتى لو كانت تعرف، فإنها ستتجاهل براءتنا. أيُّ انتقامٍ بالنسبة لـ"بلوندي" أبشع من الإصرار على البقاء على قيد الحياة إلى أن أنجبَ جَروي؟ هل رآها أحدنا عقب تحررها من قيودها؟ كلَّا. هل رأيناها ميتة؟ كلَّا. إذًا؟

اقتربت زمجرة الكلب من مكاني. إنه صوتٌ يتعلَّم سُعاة البريد أخذه على محمل الجَد.

- اجلس. اجلس. بسرعة. ابقَ جالسًا.

إنه صوت شخصٍ لن يُعرَض عليه أبدًا العمل في التسويق التليفوني. عليه أن يدرك أنها ميزة. كان كلبه قد انزعج من رؤية كلبٍ ذكر آخر. أمسك به صاحبه من طوقه، حتى لا ينقضَّ على



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكلب الثاني. أفقتُ من أوهامي بشأن "بلوندي"، وأدركتُ مدى سخافة أمنياتي في أن تأتي كلبةٌ شرسةٌ عرفناها منذ عشرين سنة لكي تغرز أنيابها المتعفنة في رقبة صغيري. صغيري أنا. قد أتقبّل أي فكرةٍ خيالية في هذا العالَم، إلا أن يصبح لديّ طفل.

أنظرُ إلى ساعتي. إنها عادةٌ مزعجة، تعلّمتها من غير المُدخنين. ربّما وُلِد طفلي بالفعل داخل ذلك المبنى الضخم. ربّما تتراكض إحدى الممرضات في جنبات المكان، كبقرةٍ مجنونة، بحثًا عني، حتى لا تفوتني تلك اللحظة العظيمة. سوف يُفتَح الدكّان الذي يبيع السجائر بعد ساعة.

خرج رجلٌ من الباب، بابتسامةٍ شاردةٍ، تؤكّد أنه أصبح أبًا. الممرات العلوية تمتلىء بآباءٍ مثله. لا بدّ أنهم يتوقعون أن أسير بينهم، بابتسامةٍ عريضةٍ. سيتكوّن مستقبلي القريب من رجالٍ ذوي ابتساماتٍ سعيدة. سأراهم في مكتب تسجيل المواليد التابع لبلدية المدينة. سأكون واحدًا منهم. سأذهب لتسجيل طفلي. سأحتاجُ اسمًا يميّزه، كما لو كان مَركبًا أو "ڤيلّا" سَكَنيةً قبيحةً أو إعصارًا. تميّز الرجل الذي خرج للتوّ بالأناقة. ارتدى أفضل ملابسه لهذه المناسبة، خصّيصًا. أخرج تليفونه من جيب الـ"جاكيت"، وصاح:

- صباح الخير يا جَدّة! صباح الخير يا جدّو! أعتذر عن إيقاظي لكما في هذه الساعة المُبَكّرة.

هذا ما صار عليه الشخصان على الطرف الآخر من الخَط: جَدة وجَدّ. صاح من جديد:

- صبي! صبي!

بدأتُ أقلق من أن يكون الصراخ وتكرار كل كلمةٍ مرّتين، من أعراض الأبوّة!

لن أتصل بأحد. سوف تستيقظ أمّي - إن كانت لا تزال على قيد الحياة - دون أن تدرك بأنها صارت جَدّة. من المحتمل أن يحدث لي ذلك، أنا أيضًا، في يومٍ من الأيّام. عليّ أن أتقبّل الأمر بكل



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تفاصيله السخيفة. سوف أصبح جدًّا، حتى لو كان ذلك بعد سنواتٍ طويلة. ماذا عن أبي؟ هل كان سيسعد بالخبر؟ هل كان سيتبوَّل وابتسامة مرتسمة على شفتيه؟ هل كان سيُبدي تفهمًا لموقفي؟

(ماذا؟ الطفل غير مرغوبٍ به؟ غلطة؟ أيها الغبي! لم تعد هناك غلطات، مع حبوب منع الحمل والواقيات الذكرية وعمليات الإجهاض المنتشرة هذه الأيام. أنا أعرف معنى الغلطات، لكنك تجهلها. حين حملت بك أمك، كانت تلك غلطةً حقيقية. تدمَّرت حياتي تمامًا، لكنني لم أقف داخل مستشفى الولادة بوجهٍ متجهم، وغاضبٍ، مثلما تفعل الآن).

أعرف الحكاية. يمكن أن نصفها بالـ"كلاسيكية". يسردها أبويَّ وهما يجلسان مع أصدقائهما حول مائدة الطعام. جميعهم أزواجٌ في مقتبل العُمر. أثارت ولادة طفلٍ حماسهم، ودفعتهم لمناقشة المسألة. إمَّا أن يناقشوا حكاية مولدي، أو يتعمدَّوا إطلاق نكاتٍ ودعاباتٍ لزجة، تُشعِر النساء المتواجدات بالرُخص، وبأنه لا فرق بينهن وقِطع اللحم التي يسيل منها الدم في صحونهن. تقدِّم أمِّي معها "كروكيت البطاطس" الذي يمتصُّ السوائل الفائضة في الصحن، والذي له طعم أوراق الجرائد. إنهما تخصّص أمّي في عالَم المطبخ. نتناولهما ونحن نكيل لها المديح، وسوف نواصل فِعل ذلك إلى أن تضطرنا الظروف لتناول الطعام من يديّ امرأةٍ أخرى.

ترددت أمي على المستشفى لثلاث أو أربع مراتٍ ذلك اليوم. في كل مرةٍ تفحصها الراهبات اللاتي يُفتَرَض بهن مساعدتها على الولادة، ثم يرسلنها إلى المنزل، لفشلهن في إدخال ثلاثة أصابع مجتمعةٍ في رحمها، ناهيك عن قبضةٍ كاملة. بمعنى آخر، لم يكن الرحم قد اتسع بما يكفي لبدء عملية الولادة. إلى جانب معاناتها من أُتوهم المرضي، كانت أمي تخاف الألم جدًّا. إنه مزيجٌ معروفٌ، أصاب به أنا أيضًا في بعض الأحيان. لديّ فرضيةٌ أخرى كذلك تتعلَّق بعدم ثقة أمّي بتلك الراهبات.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا ألومها، نهائيًا. لا يفترض بأي امرأةٍ أن تشعر بالارتياح للولادة في مستشفى كاثوليكي، حيث يمكن للراهبات اللاتي يشعرن بالغيرة أن يستسلمن لميولهن السادية ما إن يلمحن الأعضاء التناسلية المُغارقة في الخطيئة. هنا، يبدأن في الانتقام لحياتهن المتقشفة، الخالية من كل شيءٍ عدا الصلوات، فيبالغن في استخدام الملاقط الطِبِّية، أكثر ممَّا يتطلب الوضع حقًّا. يمكنني تخيّل الراهبات على تلك الصورة، بمنتهى السهولة: امرأة منافقة، بابتسامةٍ متكلّفة، لا يتجاوز طولها المائة وستين سنتمترًا. تفرج ساقي المرأة التي تعاني من المخاض بأدوات معقَّمة بطريقةٍ سيّئة؛ وكتبريرٍ لقسوتها وإهمالها تستشهد بآيات الإنجيل التي تصف الولادة بعقابٍ مُتعِبٍ وموجِع، ينبغي على جميع النساء تحمّله، لا لشيء إلّا لأن أولى نساء الأرض اتّصفت بالحماقة. لذلك، أتفهم ارتياب أمّي، وصراخها الحادّ كلّما أحسَّت باقتراب ولادتها لي.

عادت المرأة التي تزوجها أبي، مضطرًا، بعد فشله في السيطرة على رغباته المُلِحَّة، من المستشفى، ثلاث أو أربع مرّات، دون مولود. لا شكَّ، أبدًا، في أنه سخر منها دون رحمةٍ في كل مرة. حين هاجمتها آلام المخاض الحقيقية، ظهيرة يوم أحد، مليء بشرائح الكيك ومباريات كُرة القدم، لم يصدِّقها. اضطرت للتوجُّه إلى مُعَذِّبيها بمفردها. يمكنها الاتصال به في حانة "لاس فيجاس"، عندما تضع مولودها حقًّا هذه المرة. لم يكن لدينا تليفون، ومن المنطقي أن يوجد في مكانٍ يمكنها الاتصال به بسهولة.

صباح يوم الإثنين، كانت السماء تمطر بغزارة، حين سحبت الأخت "فيلومينا" رأسي من رحم أمّي. بدايةٌ غير موفقة. لم يكن أبي موجودًا، وتعيَّن علينا انتظاره لوقتٍ طويل. كانت فرصةً لأن أتعوَّد على انتظاره، على الدوام. وكما اتفقا، جلس في "لاس فيجاس"، الحانة ذاتها التي أنهى فيها مرحلة العزوبية، قبل 22 أسبوعًا، داخل الحمَّام. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل، حين رنَّ تليفون "لاس فيجاس". تصايح الزبائن الذين أتوا لكؤوسٍ مُبكِّرة:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هيه! "ويلي"! إن كانت هذه زوجتي، أخبرها بأنني غير موجود.

عقب تمام العاشرة، بقليل، رفع "ويلي" السمَّاعة، وقال:

- مَن؟ كرِّري الاسم مرّةً أخرى.

صاح بعدها:

- "بي"! المكالمة لك. من مستشفى الولادة.

لا بدَّ أن الصمت سادَ الحانة في تلك اللحظة. فصلوا الكهرباء عن مشغِّل الموسيقى "جيوك بوكس"، وحدَّقوا في أبي وهو يستمع إلى المتحدِّث في الطرف الآخر. لاحت السعادة في عينيه، ففهم مَن حوله أنه بُشِّر بولادة طفله. وضع السمَّاعة، وأخذ نَفَسًا عميقًا، استعاد به رجولته وسيطرته، ثم أراح رفاقه من فضولهم المتزايد، مُعلِنًا:

- ولد! عندي ولدٌ! مشروبات للجميع!

أنزلَ "ويلي" أكواب البيرة الكبيرة عن رفوفها. تلك الأكواب التي يشتريها سنويًا من مهرجانات البيرة البافارية. ملأها بالبيرة. بيرة. بيرة. بيرة لكل شخص. مَن صار أبًا للتوِّ، ينبغي أن يسكر تمامًا. التقاليد تفرض ذلك. لا يمكنك أبدًا رفض التقاليد.

كان سيحمل باقةً من الورود لأمِّي دون أدنى شَك، لولا أن البلد بأكمله كان في حالة شللٍ تام، لإضراب الموظفين المدنيين وأصحاب المتاجر. اعترضت الفئة الأولى على أجورها، فيما اعترضت الثانية على الضرائب المفروضة عليها. وعدا بعض الحانات القليلة، لم تفتح المحلات والمتاجر أبوابها. توقفت الباصات والتاكسيات أيضًا. فضَّل الجزَّارون وباعة اللحوم المختلفة ترك أكباد الدجاج تتلف على بيعها. بطبيعة الحال، أغلقت جميع محلّات الورود أبوابها. من جانبٍ آخر، انتهى موسم الورد والزهور. خَلَت الحدائق والحقول منها. ليس هناك ولا زهرة "جلبان" واحدة، ولا "زينيا". لم تعد نبتة "لحية التيس" موجودةً على ضفاف الماء؛ كما اختفى ورد "النجم" مع الهَبَّة الأولى للرياح



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخريفية. لذلك، اختار أبي أن يجمع بعض نبات القراص من جانب الطريق. لَفَّها داخل ورقٍ شفّافٍ لاصق، خاصٍّ بتغليف الأطعمة، أرفق بها قاعدة كوبٍ مصنوعةٍ من الورق المقوى، أخذها من الحانة، عوضًا عن بطاقة تهنئة. كتب عليها: "إلى ماما". وثب راكبًا درَّاجة مكتب البريد، ووضع باقة النباتات في الحقيبة الأمامية للدراجة المخصصة للرسائل، آمِلًا أن يعمل ماء المطر على إفاقته قليلًا. هل غنَّى في تلك اللحظات؟ "أغنية قاطف الكرز" ربَّما؟ "عصر المعجزات لا يزال هنا. الجوُّ جافٌّ وثماري رطبة". ربَّما "الرجل الذي يتبرز في حديقة المدينة"؟ تلك التي تقول: "ليس سهلًا أن تتبرز في الحديقة. ليس سهلًا أن تنتظر حلول الليل. ليس معك ورقٌ تمسح به مؤخرتك. استخدم ورق الشجر والحشائش.." وتمضي الأغنية على ذلك النحو. لعلَّه واصل ترديدها إلى أن بلغ مستشفى الولادة. لا بدَّ أنه غنى شيئًا، لأننا - في عائلتنا - نغنِّي كلما شعرنا بالسعادة؛ أو نشرب إلى أن نشعر بالسعادة.

أحسَّت الأخت "فيلومينا" بالارتياح، وأدركت صواب قرارها بالرهبنة ما إن لمحت أبي وهو يترنَّح في ممرّات المستشفى، وقد بلَّله المطر. ربَّما لم تكن علاقتها الإفلاطونية بـ"يسوع" تُرضيها تمامًا، لكنها باتت تدرك الآن أنها خيارٌ أفضل بكثير من الارتباط بأيِّ رجلٍ من أنحاء بلدتنا. يأتي الواحد منهم إلى المستشفى في حالة سُكرٍ واضحة، وهو يحمل نباتاتٍ قبيحة المظهر، للمرأة التي ولدت طفلهُ، قبل ساعات.

- اسمك؟

- "بيير فيرهولست"! وُلِد ابني هذا الصباح. هل بإمكانكِ أن تدلِّيني على الجناح الذي توجد فيه زوجتي؟

نظرتْ إلى الساعة. ينبغي أن أقول إنها عادةٌ غريبةٌ بالنسبة لامرأةٍ تؤمن بالأبدية. قالت له:

- كنتُ قد بدأتُ أشكُّ في أن لهذا المولود أب. يؤسفني القول إنها أصبحت ظاهرةً منتشرةً في هذه الأنحاء، في السنوات الأخيرة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل كان الروح القُدُس موجودًا أثناء ولادة طفله؟

تجاهلت سؤاله، ونظرت إلى نبات القراص الذي يحمله:

- هل هذه هي باقة الورد التي جلبتها لزوجتك؟

- محلات الزهور في حالة إضراب. ألا يُسمَح للراهبات بقراءة الصحف؟ على كل حال، هذا ليس من شأنك. في أي جناحٍ ترقد زوجتي؟ هذا كل ما ينبغي عليكِ أن تخبريني به.

بعد قليل، وفي مشهدٍ لا بدَّ أنه كان مؤثرًا للغاية، أحاطت بي أنفاس أبي الغارقة في الخمر للمرّة الأولى.

عقب خمس دقائق، أو ربَّما عشر دقائق، كانت الأخت "فيلومينا" تصيح في وجه أبي بحنق:

- إلى أين تظن أنك ستأخذ هذا الصغير؟

كنتُ بين ذراعيه.

- إنه ابني. آخذه أينما شئت.

- سيّد "فيرهولست"! لم تمضِ على ولادته سوى ساعات!

- إنه ابني. إذا أردتِ أطفالًا تتحكَّمين بهم، اخلعي غطاء رأسك، وارفعي ثوبك عن ساقيك. سيحدث الباقي من تلقاء نفسه.

خرج بي عبر باب المستشفى.

توقف المطر. هناك حرص على ذِكر هذه التفصيلة، في كل مرة. وضعني أبي في حقيبة الرسائل، في مقدِّمة الدرَّاجة، ثم توجه بي إلى جميع حاناته المُفَضَّلة، ليستعرضني أمام أصدقائه. بطبيعة الحال، أفرطوا في الشُرب، بطريقةٍ حيوانية. بطبيعة الحال أيضًا، أمضيتُ ساعاتي الأولى في الحياة، وسط دخان سجائر كثيف، وضجيجٍ مرتفع. بطبيعة الحال كذلك، مع مرور الساعات، شكّلت قيادته للدراجة، في خطٍ مستقيم، تحدّيًا كبيرًا. وبطبيعة الحال، أعادني أبي إلى مستشفى الولادة، في ساعةٍ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متأخرةٍ من تلك الليلة. لا بدَّ أن القلق كان قد استبدّ بأمّي، حتى كادت تُصاب بسكتةٍ قلبية. لو استمع أحد من العاملين في الجمعيات والمنظمات المسؤولة عن حقوق الأطفال، تفاصيل هذه الحكاية، لأصيبوا بدهشةٍ بالغة. شخصيًا، أظنها رائعة. حَملٌ مفاجىء، غير مُخَطَّط له، حظي بكل هذا الاحتفاء. هناك العديد من الولادات التي يُخَطّط لها، ولا يُستَقبَل فيها المواليد بكل هذه السعادة والبهجة.

فتح دكّان السجائر أبوابه.

كنتُ أدرك أنه حين يولَد طفلي بعد قليل، فلن أبتهج مثل أبي. لن أغني، بكل تأكيد. وإذا سكرت، لاحقًا (أشكُّ في ذلك، ولكنني لا أستطيع التنبّؤ بكل شيء) فلن يكون للاحتفال بميلاده.

قد يولَد ميتًا، في نهاية الأمر، وستكون جميع مخاوفي هذه لا أساس لها. ربّما لو أجرينا تحليل دم، فسوف يثبت أنه ابن رجل آخر. لنأمل في الأفضل. هيَّا. استدرتُ وصعدتُ إلى الطابق العلوي، حيث كانوا بانتظار عودتي، في قلق.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 11

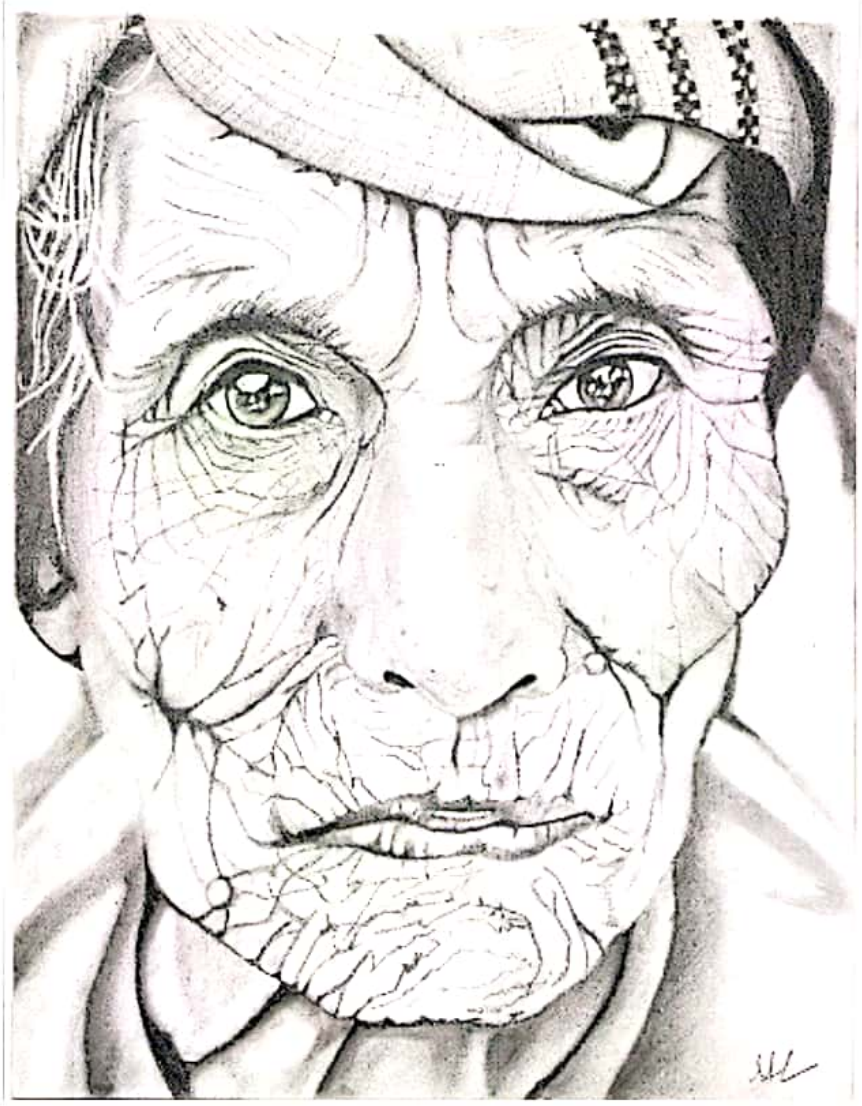



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# - باحثٌ في الفلكلور

نظرتُ إليها كما ينظر العاشق لحبيبةٍ سيُحرَم من رؤيتها ثانيةً. تساءلتُ إن كانت قد أحسَّت بذلك. قد يكون ما رأيته في عينيها مجرَّد انعكاسٍ لشيخوختها وضعفها، وقد يكون حزنًا عميقًا. ربَّما أعاد لها الخرف وفقدان الذاكرة ذكاءها الفطري وحدسها السليم، ما جعلها تدرك أني جئتُ لتوديعها، وأنني سأرحل عنها بعد قليل، شاعرًا بغصَّة؛ وأنني شخصٌ أَحَبَّها وأَحَبَّته. واحدٌ ينتمي لماضيها البائس. ولكن مَن يكون؟

لاحظتُ قبل أشهرٍ أنها توقفت عن مخاطبة الناس بأسمائهم. بتلك الطريقة، لن يضطر أحدٌ إلى تصحيح الخطأ الذي نطقت به، ولن يـذكِّروها بأنـها بـاتت تخلـط بـين أبنائـها وأحفـادها، بـل وأبنـاء أحفادها. فهمتُ ذلك. بدوري أصارع ارتباكاتٍ شبيهة. هذه المرأة، هذا الكائن الضئيل، المتقلِّص، ذو الرائحة الكريهة.. جدَّتي. ولكن لو تحدَّثتُ عن أمي الفِعلية، فإنني أقصدها. ستظل كذلك داخل



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلبي إلى الأبد، وستبقى كذلك حين أحمل نعشها على كتفي، مع "جيردر"، الذي أعتبره أخي، وليس عمِّي.

أرفض ذِكر الاسم الشاعري لدار المُسِنِّين، التي يفترض بها أن تمضي فيها آخر أيّامها، بكرامةٍ واحترام. لطالما فكَّرتُ في أن أسماء دور رعاية المُسِنّين متناقضةٌ ومثيرةٌ للسخرية. نزلتُ دارًا لرعاية المراهقين، عقب أن أوصلتُ الأسرة البديلة التي تولت مسؤوليتي - في تلك الفترة - حدَّ الجنون. حملتْ اسم "مروج الربيع"! ليس هناك اختلافٌ كبيرٌ بين أسماء دور الرعاية فجميعها متشابهة. مساحة الحجرة التي تقيم فيها جدَّتي - والتي مات فيها النزلاء السابقون - تتجاوز قليلًا المترين في ثلاثة أمتار. مكانٌ ضيّق، له رائحةٌ كريهةٌ وخانقة، لا أستطيع احتمالها. أصطحبها دائمًا إلى الكافيتيريا، رغم صعوبة قيامها بما أطلبه منها. أولًا، تتفحصني جيدًا، لترى إن كنتُ أستحق أن تمنحني ثقتها؛ فربَّما كنتُ شخصًا يخطِّط لاختطافها أو سرقة ممتلكاتها. تحتفظ تحت سريرها بصندوق سيجار قديم، تدَّخر فيه عملاتٍ بلجيكيةٍ لم تعد لها أيُّة قيمة منذ بدء استخدام اليورو. لكنه كنزٌ تعتزّ به، وتتأمله كل ليلة، قبل أن تخلد للنوم. من المؤسف أن صندوقها لا يُصدِر موسيقى عند فتحه، مثل علب المجوهرات القديمة.

- نانا، تعالي نشرب شيئًا في الكافيتيريا. أنا سأدفع.

بعدها، تشبك ذراعها في ذراعي، ونسير معًا ببطءٍ في ممرٍّ مليءٍ بأسرةٍ يرقد عليها أشخاص لا تدري إن كانوا لا يزالون على قيد الحياة، أم أنهم غادروها بهدوءٍ تحت أغطيتهم. هل سيُدفَع سرير أحدهم إلى الحمَّام، بعد قليل، حيث يتمُّ غسل جثمانه بخرطوم ماء، ثم تعطيره، ووضعه في المشرحة؟ تمازحنا أيَّة ممرضةٍ نلتقيها في الممر:

- "ماريا"! ألستِ محظوظةً بهذا الشابِّ الذي يصطحبك في تمشية ظريفةٍ اليوم؟ أنتِ تجذبين الرجال الوسيمين دائمًا.

لكنها تواصل السَّير، دون أدنى انتباه لهذه الدعابات اللطيفة؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طمحت الممرضات لأن تجيبهن بمنتهى الفخر بأنني حفيدها، لكنها تلتزم الصمت وتسير بين أكياس قمامةٍ مليئةٍ بالحفاضات.

الكافيتيريا هنا مكانٌ كَنَسيٌ بامتياز. تلتزم بالاحتفال بجميع المناسبات الدينية. هذه المرّة، كانت مُزيّنةً بشرائط صفراء، وتدلّى من السقف بيضٌ ملوّن، للإشارة إلى اقتراب عيد الفِصح. تساءلتُ إن كانت جدَّتي إحدى من يمارسن الفنون اليدوية بمهارةٍ وحرفية في الدار. أشرت إلى بيضةٍ مدهونةٍ باللون الأسود، وسألتها:

- هل أنتِ من لوَّن هذه؟

لم تتذكَّر. ليس شيئًا قد ترغب في تذكُّره. من القسوة أن تُجبَر على المساهمة في صنع زينةٍ ما لمناسبةٍ قد لا يسعفك الوقت لحضورها. أطلب لها بيرة الكرز، وأطلب قهوةً لنفسي. ألفُّ سيجارة، آمِلًا أن تعلِّق على المنظر. لكنني لا أتلقى أيَّ ردٍّ فعل منها. في الماضي، كانت تضحك من قلبها حين تراني أفعل ذلك. تلك سجائر لا يدخنها سوى صيَّادي السمك، كما تقول.

- كيف هو الحال هنا؟

لا ردَّ فعل. تضع الكوب على شفتيها، وتتناول رشفاتٍ كبيرة. قبل أشهر، كانت ستسألني عن مكان إقامتي، وكنتُ سأجيبها بكذبة، لأنني صرتُ أضطر لقطع رحلةٍ مدَّتها ثلاث ساعاتٍ من بيتي إلى دار المُسِنِّين. لن تعرف اسم القرية التي انتقلتُ إليها، ولا اسم المنطقة البعيدة التي تقع فيها القرية. كانت ستسألني عن أحوالي في المدرسة، وكنتُ سأجيبها ببساطة: "رائعةٌ. كل شيءٍ على ما يرام. نلتُ درجاتٍ هائلةً في الامتحانات التي سبقت الكريسماس". بعدها بثلاث دقائق، كانت ستكرر السؤال ذاته، وكنتُ سأعيدُ عليها الإجابة نفسها. لن تلحظ أنني أكبر من أكون تلميذًا، ولا أظن أنها تعتقد بأنني صرتُ مُعَلّمًا. ألاحظُ بين كل سؤال وآخَر أنها تتأملني بتركيزٍ بالغ، وأدرك بأنها تتساءل ما إذا كنتُ ابنها أم حفيدها. ألعب ذلك الدور أحيانًا. أعني دور أبي. يحدث ذلك تلقائيًا، وأسعدُ بفرحتها عندما تدرك خطأها: ابنها لم يمُت كما



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت تعتقد. ها هو يجلس أمامها. لقد حلق شاربه، وهو ما سبَّب هذا الالتباس والارتباك.

مات معظم أبنائها. تسبَّبت باقات الأزهار التي يتركها معارفهم على قبورهم في انتعاشٍ اقتصادي لأصحاب مزارع الأقحوان. أمَّا من بقي من أولادها على قيد الحياة، فقد تعيَّن عليه لعب أكثر من دور. في هذه المرحلة، توقفت جدَّتي عن طرح الأسئلة. وداعًا أيتها الأسئلة. وداعًا أيتها اللغة. وداعًا أيها التواصل. واصلتْ التحديق في الفراغ، وارتشاف بيرة الكرز.

خلال السنوات الأخيرة لجدَّتي، ظهرت في حياتها شخصيةٌ شديدة التعلّق بها، تُدعى "ماريكين". "ماريكين"، المصابة بمتلازمة داون، هي ابنة إحدى النزيلات، التي انتزعت وعدًا من الممرضات - خلال احتضارها - بالعناية بابنتها. كانت قد جلبتها معها للدار، لتتمكن من رعايتها، حتى آخر نفس فيها. رغم تجاوز "ماريكين" الخمسين، إلا أنها أصغر من أن تبقى داخل دار للمُسِنّين. لم ترغب جدّتي في التواصل مع هذه المخلوقة التي ترفض تركها ولو للحظة. تشير إليها بغيظ:

- تلك المجنونة!

يبدو أن المُخَرِّفين يتعاملون مع الاضطرابات العقلية الأخرى، باستعلاءٍ واضح. اعتبرت جدَّتي نسيانها أفضل من التصرفات المضحكة لـ"ماريكين"، التي عانتْ - مثل مُصابي متلازمة داون - من الإحساس بالغيرة والهوَس الجنسي. انزعجتْ من الزيارات التي يحظى بها النزلاء الآخرون، دونها. فرضت نفسها على أيِّ لقاء يجمع بين النزلاء وأقاربهم. تشاركهم الجلوس حول طاولاتهم. حين أصطحب جدَّتي للكافيتيريا، تنضمُّ إلينا "ماريكين"، وينتهي الأمر بأن أتحدث معها، عوضًا عن جدَّتي التي تلتزم الصمت. أرادت "ماريكين" ممارسة الجنس معي. ليس في ذلك ما يدعو للدهشة، فقد أرادت ممارسة الجنس مع كل رجلٍ يأتي زيارة يوم الأحد، حاملًا علبة شوكولاتة، وباقة أزهار.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنني حين أخبر "ماريكين" بأن لي حبيبة بالفعل، فإنها تتفهم رفضي، ولا تأخذ المسألة على محملٍ شخصي. يبدو أن أحدهم قد شرح لها مسبقًا بأن الرجل والمرأة يختاران بعضهما، ثم يرتبط أحدهما بالآخَر للأبد. في بعض الأحيان، أنسى أصلًا أن "ماريكين" ليست من أقربائنا. صارت واحدةً من العائلة. في كل زيارة، أجلب لها الشوكولاتة، والتي تلتهمها بشراهةٍ تليق بخنزير. أدرك أن الناس تربط بين الشوكولاتة والجنس، لكن ذلك لا ينطبق عليَّ. أمَّا "ماريكين"، فكانت مزيجًا من الصفات والتصرفات التي تثير انتباه أيِّ متخصّصٍ في العلوم الإنسانية الشائعة. يمكنها حَشر رطلٍ كاملٍ من الشوكولاتة بالحليب في فمها المعَّوج بمنتهى البساطة. لا شكَّ في أن كبدها قد استحال إلى قطعةٍ رخوة، وبالغة الضخامة، ستلفت انتباه من يشرِّحون جثَّتها، مستقبلًا.

كنتُ قد قرّرتُ أن تكون هذه آخر زيارة لي. سألتني "ماريكين" إن كنتُ انفصلتُ عن حبيبتي. طلبتُ منها أن تصمت. زمَّت شفتيها في استياء، وعقدت ذراعيها، ثم أخرجت لي لسانها. أردتُ البقاء بمفردي مع جدَّتي، للحظة، ولآخر مرَّة، داخل كافيتيريا يجلس فيها مُسِنّون يعانون من سلسٍ بولي، وأطفال يتذمَّرون من السأم، أحضرهم الزائرون معهم كنوعٍ من التعويض، أو لإثبات أن حياة العجائز بمثابة العصا الخشبية في سباقات التتابع. لم أعد متأكدًا إن كانت صحبتي تسرُّها. إنها صامتةٌ مع الجميع. أظن أن زياراتي ترهقها أكثر ممَّا تسعدها. ما الذي يدور في رأسها؟ بمَ تفكّر؟ ما أبشع أن يقدِّم لك شخصٌ غريبٌ عنك تمامًا كوبًا من بيرة الكرز. على كل حال، سأتكلم أنا، حتى لو لم ترغب هي في ذلك. حتى لو لم تستوعب شيئًا ممّا أقوله. أعبّر لها عن مدى امتناني لأنها أجرت اتصالًا سِرّيًا بموظفة وحدة رعاية الشباب، "نيللي فوكيدي"، تطلب منها البحث عن أسْرَةٍ بديلة تتولى رعاية صبي يعيش مع أربعة سِكِّيرين. ولدٌ ينام أثناء حصص المدرسة، لأنه عاد فجرًا من الحانة، التي ذهب إليها مع أبيه. يمسح قيء والده، ويساعده على خلع ثيابه. أخبرها عن حبيبتي التي أعشقها بجنون، وعن ندمي على إنجاب طفلٍ من فتاة أخرى قبل أن ألتقيها. لكن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجودها في حياتي، نعمةٌ تجعلني أتوقف عن الشكوى. أحكي لها عن الغزلان في الغابة المحيطة بالقرية حيث أقيم، وعن الغيوم التي تعبر خارج نافذتي، حيث أكتب مؤلفاتي. أصف لها ألمانيا، التي عدتُ منها منذ أيام، والأغنيات التي استمعتُ إليها مع حبيبتي عبر إذاعة "غرب ألمانيا 5"، وغنّيناها معًا. أقول لها بأنني سعيد، ولم أعد أصيح بغضب، كثيرًا؛ وأنني لا أشرب، ولا أضرب صديقتي.

كان بإمكاني أن أحدِّثها عن أيِّ شيء، كأن أصف لها مباراة كُرةٍ طائرة، وكنتُ سأتلقَّى ردّ الفعل ذاته: برود وعدم اهتمام. ربّما بسبب أقراص الدواء التي يحملونها على صواني، ويوزعونها على كل النزلاء، كما لو كانت قطع حلوى، لتسهيل مهمات هيئة التمريض. لم يكن بإمكاني التأكُّد من السبب الحقيقي لحالتها. واصلت النظر إليَّ بشرودٍ كما لو كنتُ شاشة تليفزيون.

"مساء الخير، أعزّائي المشاهدين".

استقمتُ في جلستي، وقلتُ لها:

- سأنصرف إذًا.

في تلك اللحظة، بادلتني النظر. لا بدَّ أنها شعرت إنها المرّة الأخيرة. تذكّرتُ الشاعر "هانز آندريوس"، حين طلب من زوجته مغادرة الحجرة، وهو يُحتَضَر: "اذهبي! عليَّ أن أفعل هذا بمفردي". أراحتني هذه الذكرى. ستموت في غيابي. أدركتُ ذلك. سوف تأتي تلك اللحظة، وسأتلقّى اتصالًا، مساءً، من أحد أعمامي، أو من عمّتي. سيقولون لي بأنها النهاية حقًّا. هذا هو الوصف الذي نستخدمه، عادةً. "إنها النهاية حقًّا". يقصدون أن الغرغرة في حلقها صارت كهدير محرِّك قارِب. سيسألونني إن كان بإمكاني الحضور بسرعة. لكنني سأنظر خارج نافذتي متأملًا، وأخبرهم بأن رحلتي إليهم طويلة، وحين أصل، ستكون قد غادرتْ إلى وجهتها بالفِعل. أفكِّر حينها: "جدّتي تُحْتَضَر هناك". أفكّر، وأنا في شدة غضبي، بإلغاء الكلمات من القاموس. حين أراها، بعدها، ستكون بشرتها مشدودةً، من جديد. ولونها جميل. ستمتصُّ قطع



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القطن في منخريها أول أعراض التحلّل. ستضع إحدى الممرضات مسبحة صلاةٍ بين أصابع جدّتي المتخشّبة. هكذا سيكون الوضع قريبًا. غادرتُ متمنيًا أن ترحل بيُسرٍ وسلام.

كان الوقت ليلًا حين تلقيت الاتصال التليفوني. تحدَّث إليَّ "جيردر". لم يبدُ كشخصٍ تخوض أمّه لحظات احتضار.

- هيه يا ولد! ما الأخبار؟ أرجو ألاّ أكون قد قاطعتُ شيئًا تفعله. لا تضاجع فتاتك في هذه اللحظة، أليس كذلك؟ في هذه الحالة، سأتصل بك في أيِّ وقتٍ آخر. كلا؟ متأكّد؟ أعني أنه الوقت المناسب من الليل للمضاجعة! هل اتصلت في وقتٍ متأخّر؟ كلا؟ على كل حال، أردتُ إخبارك بـ...

اتضح أن "جيردر" نفسه تلقَّى اتصالًا من شخصٍ لا يعرفه، ولا يتذكّر اسمه، يعمل باحثًا في الفلكلور. سألني إن كنتُ أعرف أحدًا من المتخصصّين أكاديميًا في هذا المجال.

كلّا، لا أعرف أحدًا. أسأله:

- ما سبب اتصالك، تحديدًا؟

- حسنًا، سأخبرك. انظر.. لديهم مشروعٌ حول الأغنيات المُرافِقة للشُرب. أدركوا أخيرًا أن أغاني الشُرب جزءٌ من تراثنا الثقافي. أو هي "موروثنا الثقافي" ربّما؟ لا أدري أيهما أصح. على كل حال، يريدون الآن جَمع الأغنيات الخاصّة بكل منطقةٍ بلهجتها الخاصّة. بدؤوا الدراسة، بالفِعل. غالبًا، في الأماكن التي يلتقي فيها السِّكّيرين المعروفين. باختصار، وصلوا إلى عائلة "فيرهولست". هاهاها. سؤالي هو: هل تتذكَّر شيئًا من تلك الأغاني؟

- ليس بالضبط.

- ماذا تعني "ليس بالضبط"؟ كان أبوك يغنيها طوال اليوم. ما هي كلمات تلك الأغنية الخاصّة بالكرز؟ ساعدني قليلًا..

- عصر المعجزات لم ينتهِ بعد. الجوُّ جافٌّ والكرز لديَّ رطبٌ ونديّ.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعم! هذه هي! عليك أن تساعدنا يا أخي! يجب أن ندوِّن الأبيات كاملة.

- لكنني لا أتذكّر سوى هذا المقطع.

- ماذا عن تلك الأغنية حول الماخور؟

- العشيقة البيضاء المخملية؟

- بالضبط! العشيقة البيضاء المخملية. ذاكرتك رهيبة! مخيفة! هل تدرك ذلك؟ عليك أن تساعدنا.

- "جيردر"، لم أعد أتذكَّر تلك الأغاني. آخر مرّةٍ سمعتها، كانت في جنازة أبي. وحتى حينها، كان هناك مقاطع كاملة، لا أتذكَّرها. وكان ذلك منذ سنواتٍ طويلةٍ، وملعونة.

- سوف تتذكّرها. ركّز فقط، وسوف تعود إليك الكلمات. أنا متأكّد من ذلك. ما الذي يقلقك؟ هل أنت مستعدّ؟

- ماذا تعني؟ مستعدٌّ لأي شيء؟

- الغناء. اللعنة! هؤلاء الأشخاص سيضعون الأغاني على أسطوانات "سي دي". سنكون فرقة "الأخوة آرسينديجيم" هاهاها.

هناك شيءٌ غريب في المسألة بأكملها. أن يهتمَّ أحدٌ بأشخاصٍ عاديين، إنها خدعة. مجرّد الاستناد إلى عِلمٍ زائفٍ، كحجّةٍ لهذه المسألة، يشي بحالة الاستعلاء التي يتعامل بها الباحثون معنا. الباحثُ واحدٌ من الغرباء. هل سبق لأحدٍ من أساتذة الفلكلور تناول الشاي أو العشاء معنا؟ هل غرزوا أصابعهم في اللحوم اللزجة، وأكلوها - كما كنا نفعل - بأيدينا؟ هل كشفوا عن مؤخراتهم، حين فرض إيقاع الموسيقى الصاخب، ودرجة السُّكْر الفظيعة، ذلك؟ هل كانوا على استعدادٍ للاشتراك في مشاجرةٍ نكسر فيها أسنان أحدهم، لتنحشر في حلقه، داخل إحدى حانات الطبقة العاملة؟ هل امتلكوا شجاعة إلقاء طفَّاية سجائر على وجه أحدٍ؟ هل كان هناك شخصٌ أكاديميٌ واحدٌ على استعدادٍ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في أبحاثه ودراساته وملاحظاته؟ اختياره لنا ولأساليبنا خيارٌ سَهلٌ لتسلية البورجوازية الفنّية، التي هي الجماهير. الأصالة التي يسعون جاهدين لتحقيقها. البدائية التي تمتّع بها آباؤهم، قبل عصر الصناعة. لو أتيحت لهم الفرصة، لسارعوا بأخذ حبال غسيل البسطاء، ووضعوها في المتاحف، ليعرضوا ملابسهم الداخلية، ومناظر من مساكنهم سيئة التهوية. يمكنك أن تراهن بحياتك على ذلك. نظِّم معرضًا عن حبال الغسيل، ولاحظ الهوس الكبير به الذي سيجتاح المدينة. يا لها من فكرة مبتكرة! ذلك أنه يسهل إرضاء النخبة المثقفة، ويسهل أيضًا سَحب الإلهام والإبداع من داخلهم. ولكن حين ينتهي هذا المعرض، ستظل الطبقات الدُنيا، في موقعها المعتاد، حيث تنتمي حقًّا. في ثمانينيات القرن العشرين، اتجه أساتذة الفلكلور إلى الأدغال، حاملين أجهزة تسجيل. توسلوا إلى سكَّان الأدغال أن يغنُّوا لهم. أرادوا تسجيل العالَم بأكمله في أرشيفهم. رؤوا شخصًا بشفةٍ طويلة، ممتدّة، فطلبوا منه تحريكها أمام عدسات الكاميرا. مدُّوا ميكروفوناتهم لتلتصق بحناجر أشخاصٍ من التِبِت، ليتمكنوا من تسجيل أصواتهم العميقة أثناء غنائهم. والآن، حان دورنا! سيركِّبون أجهزة التسجيل في البيوت التي عشتُ فيها. أغاني الشُرب! يا إلهي! لا مشكلة لديَّ في اعتبارها جزءًا من التراث الثقافي، ولكن في حالةٍ واحدةٍ فقط؛ وهي تداخلها مع أغنيات أخرى، وكلمات مختلفة. تَشيع في فترة معيّنة، وتختفي في أخرى، كما يحدث عادةً؛ ولكن تسجيلها على هذا النحو، والاكتفاء بها، لن يكون سوى كذبة. الأصدق أن تختفي بموت أبي. ينساها الجميع، شيئًا فشيئًا، ومقطعًا تلو آخر. كيف لخبراء الفن هؤلاء أن يتجاهلوا دائمًا فكرة موت الجمال، وهو قول به إطناب لو صح لي استعمال المصطلح.

- كيف تقول ذلك يا فتى؟ ترى أنها "انحراف"؟ أنت تتعامل مع كل شيءٍ بجدّيةٍ شديدة. سيكون التسجيل مُسَلّيًا. سنسجِّل الأسطوانة ونحن في أقصى حالات السُكْر!

وعدته بأن أفكِّر في المسألة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعـم، هـذا أفضـل. تنـاول بـيرة بـاردةً مـن الثلاجـة، وفـكّر فـي المسألة. سأعاود الاتصال بك.

لم أفكّر في المسألة، نهائيًا. كنتُ متيقنًا بأنهم سينسون الحكاية خـلال يـومٍ أو اثنـين علـى الأكثـر. سـينسون اهتمامـهم الزائـد بـالفلكلور، ويعـودون إلـى الحانـة للمسـاهمة فـي إثـراء التـراث الثقـافي. لكننـي تلقـيت اتصـالًا جـديدًا، فـي اليـوم الثـالث، مـن "هيرمان". قد تمرُّ عدّة أعوام، دون أن أسمع شيئًا من أحدٍ من عائلتي، كما أغيبُ أنا أيضًا عنهم، وفجأةً يتصل بي عمّاي، مرّتين، خلال أسبوع واحد.

- هـذا عـمُّك "هيرمـان" يـا ولـد. أنـت تعـرف المسـألة. اتصـل بـك "جيردر" منذ أيّام. اسمع، لقد توصلنا إلى حَلٍّ يلائم الجميع. سوف نذهب لزيارة أمّنا. جدَّتك.

لم أفهم.

- صارت نانا مجنونة. إنها تعيش في الماضي فقط. لا تزال تفكّر بأنه آن الأوان لاختراع مكنسةٍ كهربائية تريح ربّات البيوت! هل تفهمني؟ أقصد أنه لو كان هناك مَن يتذكّر كلمات أغنياتنا جيّدًا، فهو نانا، ولا أحد غيرها. ليس عليها أن تتذكر أصلًا، هل تفهم ما أعني؟ لا تزال الكلمات حيّةً داخل رأسها. تتكوّن ذاكرتها من هذه الأمور.

- هل ستأخذون باحث الفلكلور إلى دار المُسنّين اللعينة؟

- آه! بدأتَ تفهم!

- لا أرغب في أن أكون معكم، عمّي "هيرمان". المسألة مقززة.

- ما المقزز بالضبط؟ سنطلب منها أن تغنّي بضعة أغاني قذرة. على الأغلب، سوف تستمتع بذلك. لا يمكنك الاعتراض على أن تتسلى نانا قليلًا! هل تدرك مدى بؤسها، وهي وحيدة، داخل تلك الدار؟ بهذه الطريقة، نعينها على التغلّب على وحدتها. كل ذلك باسم العِلم.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنتُ منفتحًا على الكثير من الأمور، في الحياة، وأتقبّل كل شيء، لكن أن يتحدَّث أعمامي عن العِلم، فذلك أكثر ممَّا أحتمل! أضف إلى ذلك، لم أستطع تخيُّل جدَّتي وهي تؤدِّي تلك الأغاني. تلك هي الفكرة: كانت مضطرةً للاستماع إليها، ضدَّ رغبتها، عندما كان أبي مُسَلّيًا. بالنسبة لشخصٍ مُخَرِّف، هناك فرقٌ هائلٌ بين المعرفة الإيجابية والمعرفة السلبية.

- افعل ذلك من أجل أبيك يا بُنيّ. هيَّا.

- أبي ميِّت. لا علاقة له بهذه المسألة بتاتًا.

- أحمق! لو كنَّا سنطلب هذا من أبيك، لما تردَّد إطلاقًا. إنه يفهم معنى المرح والتسلية!

- لا علاقة للمسألة بالمرح ولا بالتسلية. كما أن ما تفعله هو ابتزاز عاطفي، بالمناسبة، ولن أكون طرفًا في هذه المسألة. انتهى الموضوع.

- تعني أنك ستخذلنا؟

- إن كنتَ ترى المسألة على هذا النحو.

- نعم. أراها كذلك. أنت خبير العائلة في الأمور الثقافية. أنت تعتمد في دَخلك على الثقافة. قراءات هنا وهناك. عندما نرغب في الاطمئنان عليك، ومعرفة أخبارك، فإننا نلجأ للصحف. والآن، نطلب منك، نحن عائلتك، لحمك ودمك، أن تقدِّم لنا خدمة، فترفض، وتعبِّر عن ازدرائك لهذه الثقافة التي تراها "منحرفة"! عليك أن تشرح لي هذا الأمر، في يومٍ من الأيام.

- لا أدري إن كانت رؤيتي لنانا من جديد تعدُّ منطقية. لقد ودَّعتها بالفِعل.

- ودّعتها؟ إنها لا تزال على قيد الحياة! قد تعيش عشر سنواتٍ أخرى. من يدري؟

- لقد باتت في عداد الموتى، عمِّي "هيرمان"! حين ودّعتها، كان



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جانبٌ من شخصيتها القديمة لا يزال موجودًا. أمَّا الآن، فقد صارت أقربُ للموتى. بالغة الضعف.

كان كل شيءٍ جاهزًا، حين وصلتُ دار المُسِنّين، متأخرًا عن موعدي بنحو ساعة. حوَّلوا الكافيتيريا إلى نوعٍ من أستوديوهات التسجيل. وضعوا جدَّتي، بكرسيها المتحرِّك، أمام طاولةٍ صغيرةٍ في منتصف المكان، وقد أحاطت بها الميكروفونات من جميع الجهات. أجلسوا في المكان بقية المُسِنِّين والعجائز، ممّن يحيكون المشغولات الصوفية، والحالمين، ومَن يلعبون بأصابعهم في أنوفهم، ومدخني الغليون، وماضغي التبغ، ومَن يسيل لعابهم على ذقونهم وصدورهم، ومَن يتغوطون على أنفسهم، ومن يواصلون إطلاق الريح طوال الوقت. لم يكن بعضهم في كامل وعيه. راحوا يراقبون المهزلة. يومها، أرحنا الممرضات والعاملين من عبء التفكير في برنامج ترفيهي للنزلاء. لم تؤثِّر آلات التسجيل على جدَّتي، ولم يصدر عنها أيُّ ردّ فعل مختلف. واصلتْ الجلوس في صمتٍ وشرود، كما يحدث حين يصطحبونها لإجراء أشعةٍ على جسمها؛ وبالاستسلام نفسه الذي تعاملت به مع كافة الأدوات الطبية التي يدخلونها في جسدها؛ تنفست، ودقَّ قلبها. هذا كل شيء. لا حركة أخرى. كنتُ أدرك بأن هذه الجلسة لن تنتهي إلى شيء.

- آه! هذا أنت! ما الذي أخّرك يا ولد؟ نحن بانتظارك.

- ذهبتُ لأشتري رطلين من الشوكولاتة لـ"ماريكين".

كانت "ماريكين" قد ماتت. صارت الأوضاع أسهل بغيابها، وإلّا لكانت قد أثارت جنون الجميع بغيرتها من جدَّتي، وغضبها من الاهتمام المنصبّ عليها، دونها. لو كانت زياراتي أكثر انتظامًا، لعرفتُ نبأ وفاتها. ها قد عرفت. وزَّعت قطع الشوكولاتة على المُسِنّين، المنتظرين - كما لو كانوا "زومبي" - حدوث أي شيء. قام أحدٌ من يعرفون الكثير عن الأجهزة والأزرار، ويجهلون أيَّ شيءٍ عن الحياة، بوضع سمّاعات فوق رأس جدَّتي غطَّت أذنيها بالكامل. بقيت ساكنةً تمامًا. لو أننا وضعنا إصيص زَرعٍ فوق



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأسها، لما أبدت انفعالًا مختلفًا. كانت دُميةً تسعد أي طفلةٍ باللعب بها. صحيح أنها لا تملك شَعرًا طويلًا وكثيفًا لتسريحه، لكنها دميةٌ يمكن تغيير حفاضاتها طوال اليوم.

ناولنا السيّد الذي أراد تحويل الفلكلور الشفهي إلى مادةٍ مدوّنة، ورقةً، وطلب منّا توقيعها. مجرّد إجراءٍ رسمي. تنصّ الورقة على تنازلنا عن أي حقوقٍ تتعلق بهذا التسجيل. وقّعها "جيردر" على الفور. لم يهتم أبدًا بمحتوى أي وثيقة. قال:

- لم يكن لديَّ أي حقوق في هذا البلد، أبدًا. وأنا سعيد بالتنازل عن أيّة حقوقٍ يفترض بي الحصول عليها. بهذه الطريقة، لن يزعجني أحد.

اتّبع "هيرمان" خطاه، وأضاف لمسته الخاصّة، بأن وضع توقيعه تحت إحدى الفقرات القانونية المُبهَمة، مباشرةً. كان بمقدوري أن أدقِّق في قراءة العقد، وأصعِّب المسألة على الباحثين، لكنني لم أكن مهتمًا بمصير هذه التسجيلات، في الواقع؛ حتى لو حوّلوها إلى أغانٍ ناجحة، وحققوا من ورائها أرباحًا عظيمة. لا بأس.

- هل نبدأ إذًا؟

نبّهتْ إحدى الممرضات المُسِنّين، المتابعين للتسجيل، لضرورة التزام الهدوء. صدّق بعض أولئك الجالسين على الكراسي المتحركة أن هناك حدثًا عظيمًا ومتميزًا على وشك الحدوث.

قال أحد أفراد الفريق لجدَّتي:

- سوف نسجّل أسطوانةً "سي دي"، سيدة "فيرهولست". "سي دي" بصوتك! أليس ذلك رائعًا؟

لا تعرف جدَّتي أسطوانات الـ"سي دي". لم تمسك بيدها واحدةً أبدًا. ربَّما سمعت أحدًا يذكر الاسم أمامها، مثلًا. تمامًا كما يتحدثون عن الإنترنت.

- كل ما عليكِ فعله هو أداء أغانٍ إباحية. الأغاني القديمة التي كانوا يرددونها عند الشُرب. اختاري ما شئتِ.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بطبيعة الحال، لم تمزِّق جدَّتي شرنقة فقدان الذاكرة المحيطة بها. لم تتغير تعبيرات وجهها، ولم يظهر عليها ما يُنبىء أنها على اتصال بعالمنا. اقترح "هيرمان" أن نبدأ بالمقاطع التي نعرفها، فقد يحفِّز ذلك ذاكرة نانا، وتشاركنا الغناء، مستعيدةً كلمات الأغاني القديمة. ولأنه لا يملك خطّةً بديلةً، وافق المُخرِج على الفور.

- هل أنت مستعد يا بُني؟ ابدأ بأغنية الكرز، أولًا. كانت المفضّلة لأبيك.

لم أتمكّن من أدائها. ربَّما استطعت لو أنني تناولتُ بعض البيرة أولًا. حين قلتُ ذلك، علّقوا بأنه لا يمكنك أداء هذه الأغنيات بعقلٍ متيقظ. أغاني الشُرب تتطلب تناول الكحوليات، ببساطة. كان علينا أن نفكّر بذلك قبل أن نبدأ. اقتنع الباحثون، بدورهم، وأبدوا استعدادهم لتحمِّل فاتورة المشروبات. بدأنا نتكلَّم بالمنطق. بعد تناولي لأربع زجاجات بيرة، تشوقت للبدء، بصبرٍ نافد. قرّبتُ الميكروفون من فمي، وغنّيت: "عصر المعجزات لم ينتهِ بعد. الجوّ جافّ، والكرز لديّ رطب ونَديّ".

هكذا، بدأنا.

الآن، بات علينا تذكّر المقطع التالي. استعدنا اللحن، دون الكلمات. أخذنا نردّده، على أمل فتح أبواب ذاكرتنا، نحن والجدَّة، واستعادة الكلمات المفقودة.

أعلن "جيردر":

- لم نشرب ما يكفي لنسكر. نحتاج إلى ثلاثين.. خمسة وثلاثين بيرة أخرى. بعدها، سنغني دون تفكير.

أختلس النظر إلى جدَّتي، بين الحين والآخر. إنها تجسيدٌ لوقاحة الزمن. أفكّر بأنه من الوارد أن تكون ميتةً على كرسيها المتحرّك الآن، والسمّاعات الكبيرة فوق رأسها المغطّى ببقع الشيخوخة، بُنّية اللون. ماتت بهدوء، محاطةً بأبنائها السكارى، خلال استغراقهم في محاولات تذكّر كلمات أغانٍ قديمة. لكن الحقيقة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنها لا تزال على قيد الحياة.

مـرّت السـاعات. فقـد المُسِنّون اهتمامـهم بالتسـجيل المـوعود. دفعهم العاملون على كراسيهم المتحرِّكة، باتجاه قاعة الطعام، ليتناولوا طعامهم المهروس، وقطع الخبز المغموسة في الشوربة. سيأخذون أدويتهم بعدها. وضعوا لجدَّتي دواءها داخل فمها. ابتلعته بطاعةٍ عمياء، وثقةٍ كاملة.

ألمـح فـي قاعـة الاسـتقبال أسرةً ترتـدي ملابس سوداء. سـوف يبدؤون مفاوضات تقسيم التركة والممتلكات، عن قريب، بينما لا نزال نحن هنا نحاول تذكّر كلماتٍ بذيئة، ووضعها داخل أغنية. نظر المخرج إلى ساعته. بدا قلقًا من أن يكون العُمر قد تقدَّم به، وهـو لا يزال يجلـس بيننـا فـي انتظار أغنيـاتنا. في نهاية الأمر، بدؤوا في جَمع حاجياتهم ومعدَّاتهم وميكروفوناتهم. لم يضع أيٌّ منَّا بصمته في عالم التراث الثقافي.

قال "جيردر":

- يا خسارة! كنتُ أودُّ تسجيل أصواتنا على "سي دي"!

أجاب المخرج:

- خسارة فعلًا! ولكن نشكركم على المحاولة، وعلى هذا المجهود.

بدا واضحًا أنه قال ذلك كنوعٍ من المجاملة فقط. لقد أضاع وقته معنا.

- العفـو. حظينـا بمشـروباتٍ مجّانيـة، علـى الأقـل. ولـم نبـذل أيَّ مجهود يُذكَر. خرجنا، من باب التغيير، وزُرنا أمَّنا العجوز، بالمرّة!

صـافح أحـدهما الآخَر، وتبـادلا عبـاراتٍ جوفاء. غـادر الباحثون، أصدقاء الناس العاديين، دار المُسِنّين، متّجهين لتأدية مهمّتهم التالية؛ تصوير رقصاتٍ فلكلورية، ربَّما. قابلت الممرضات طلبنا بشـرب المزيـد من البيرة برفضٍ قاطع. سوف تغلق الكافيتيريا أبوابـها الآن. سـيقمن بتحميم النزلاء، الـذين يشـعرون ببعـض الارتباك، بسبب تغيير برنامجهم اليومي المعتاد. سيصطحبون



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جدَّتي، خلال دقائق، إلى قاعة الطعام. إنها تشعر بالاضطراب، وفقًا للممرضة. نظرتُ إلى عينيها، بحثًا عن شيءٍ أتشبّثُ به، لكنهما ظلّتا خاويتين. لقد سبق لنا توديع بعضنا. حين جاؤوا لأخذها، لوّحتُ لها، كما لو كانت طفلًا رضيعًا. ابتسمت لي. ابتسمتُ، فجأةً، وقالت بصوتٍ مسموع:

- صاح الديك مرَّة. صاح الديك مرَّتين. كانت سعادتي.. سعادتين!

بالضبط! نعم! هذا هو المقطع التالي في أغنية "الكرز"! كيف نسيناه؟

علّق "هيرمان":

- هذا سببٌ كافٍ لكي نسكر تمامًا!



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 12- عَمٌّ للصبي

من الواضح أنه يشعر بمَلَلٍ شديد. يمزِّق القواعد الورقية لأكواب البيرة، ويصنع حيواناتٍ من الورق المُفَضّض الذي يغلّف قطع الشوكولاتة التي أكلها. أُريه كيف يبني بيتًا من قواعد الأكواب. أدرك أني لم أعلّمه شيئًا مفيدًا. الإنسانية نفسها لم تعلِّمنا شيئًا مفيدًا. لو لم يبدأ جيله عملية الهَدم اللازمة، فسوف نواجه مشكلةً صعبة. يفقد تركيزه وصبره بعد انهيار المنازل التي يبنيها. يسحب ذراع لعبة القُمار، الـ"سلوت"، الكبيرة، فتسحره بأصواتها وأضوائها. يبدو قانعًا بسحب ذراعها، حتى اللحظة، ومعتقدًا بأن أنوارها الكثيرة هي ردُّ فعلٍ لحركاته. هو ربُّ هذا الجهاز، وسيّده. سيظل مقتنعًا بذلك إلى أن يضع أحدهم عُملةً معدنيةً في فتحة اللعبة. بعدها، سيفهم أن من يدفع ويؤدّي ما عليه، هو الربُّ الحقيقي.


دقيقة متبقية من «التعساء» 93%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولو لبعض الوقت. يحاول عقله الصغير ملاحقة الأرقام وهي تدور على الشاشة، مُصدِرةً أنغامًا مختلفة. يُبعِده أحدهم، كي يتمكن من تجربة حظِّه. لا أندهش حين يأتيني ويسألني:

- بابا، هل يمكنني اللعب بذلك الجهاز؟

جهاز القُمار مصدر راحة للبالغين، الذين يتسلَّون بإفقار أنفسهم، لكنه غير ملائمٍ للأطفال. أبحث عن سببٍ يفهمه. كنتُ أنزعج في صغري حين يقال لي أن هذا الشيء أو ذاك مخصّصٌ للكبار فقط. أضطر لقول ذلك، في النهاية:

- إنه جهازٌ للكبار، يا صغيري.

يضـع الشـقَّاطة فـي فمـه، وينفـث فيـها، صـانعًا فقـاعات فـي الكوكاكولا، إلى أن يشعر بالضجر.

- كم بقي من الوقت، بابا؟

- وقتُ لأي شيء يا بُنيّ؟

- لماما.

خمس ساعاتٍ إضافية. أمامه ساعاتٌ طويلة، أكثر من أن يعدَّها. لـم يتعـلَّم حسـاب الـوقت والسـاعات بعد. الثوانـي والأسـابيع والساعات والأمتار واللترات، جميعها لا تعني له شيئًا، حتى لو تظاهر بالعكس. لا توجد مقاييس وأوزانٌ في عالمه الخيالي. إنه يحـبُّ أمَّه. لاحـقًا، سـأوصله إلـى بابـها، وسـيرتمي بين ذراعيـها، فَرِحًا. ذراعاها اللذان كنتُ أختنق بينهما. سيسمح لها باحتضانه بقـوَّة، وبتغطيـة وجـهه بـالقبلات. هـذه المـرة، فـي إجـازة نـهاية الأسبوع التي أمضاها معي، سألني.. كلّا لم يكن سؤالًا، بل قال لي بهدوء:

- أنتَ لا تحبُّ ماما.

قلتُ له:

كلّا، لا أحبُّ أمك



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا بدَّ أنه وجد ذلك أمرًا غير معقول. شخصٌ لا يحبُّ ماما! غمرته دهشةٌ عظيمة. هل يمكن ذلك؟

أتساءل عمَّا سيعتقده المختّصون، حين يأتي دور علاجه النفسي. أضفتُ قائلًا:

- لكنني أحبُّك.

أردتُ بذلك عدم إثارة قلقه ومخاوفه. ما لا يعرفه، هو أنني - مثله تمامًا - سأشعر بالارتياح، ما إن أسلِّمه إلى أمِّه. أنا أبوه، ولذلك عليَّ أن أشعر كأب. لكن رؤيته مرّةً كل أسبوعين، فقط، لا تزعجني بتاتًا. لا أفتقده أو أشتاق إليه في غيابه؛ ولو حُرِمتُ رؤيته لسنةٍ كاملةٍ، لما شعرتُ بأن ذلك عقاب. الآباء يوجدون في حياة أبنائهم يوميًا. لا يأخذون يومًا إجازة. حين يكون طفلي موجودًا، يكون الوضع مبهجًا لحدٍّ ما، عادةً. أفعل ما بوسعي، كي يقضي وقتًا ممتعًا. نوفّر له، أنا وحبيبتي، حياةً يمكنه قبولها أو رفضها، كما يحلو له. ألاحظ أنه لا يتلقى نمط التربية التي أفضِّلها له. لكنني لا أستطيع الاعتراض. الكلام سَهل، لكنني فِعليًا لا أبذل أدنى مجهود لتنشئته. بالنسبة له، أنا أقربُ لِعَم. أكون ممتلئًا بالطاقة حين يصل لزيارتي. لكنه يستنفدها تمامًا، خلال يومين. لذلك أسعد بوضعه في حضن أمِّه مرّةً أخرى، وأتهاوى على أريكتي مُتعبًا بعدها. أفضّل تبنِّيَ كلبٍ ضال!

هل أُحِبّ هذا الطفل؟ يجب أن يكون للطرفين حُرّية اختيار بعضهما، قبل أن يتحدَّثا عن الحُب. وبالتالي، فإنَّ الإجابة هي لا. أنا أعرف ما هو الحُبّ. أنا وفتاتي نُحِبُّ بعضنا، بجنونٍ، كأحمقين. لا نقارن أنفسنا بغيرنا من المُحِبّين والعشّاق، رغم سهولة ذلك. بِتُّ أدرك ذلك الآن. الحُبُّ سَهل. أمَّا بخصوص الصبي.. يا إلهي! كل ما يمكنني قوله هو أنني أتمنى له الخير. أريد أن أكون الخريطة التي يتّبعها، عند السير في دروبٍ معيّنة. هل هذا مثيرٌ للشفقة؟ فليَكُن! هناك شيءٌ جميلٌ يولد بداخلي، كلّما رأيته يضحك من قلبه عند ركوبه لعبة الخيول في مدينة الملاهي. يعتصر الألم قلبي حين يستيقظ من نومه مفزوعًا وباكيًا، لأن الأشباح أتت



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لغرفته في غيابنا. إذا كانت هذه الأمور نوعًا من الحُب، فلا بأس إذًا.

ذهبت حبيبتي إلى العمل، وأفتقدها جدًّا. أشعر بأنه مرتبطٌ بها أكثر من ارتباطه بي. لا يمكنني لومه.

- أفضِّل حين تكون "ناتالي" موجودة.

- وأنا أيضًا يا بُني. أنا أيضًا.

حين تكون موجودة، نلعب جميعًا الغُمِّيضة، ونستدل على أماكن الخنازير البرِّية عبر تتبُّع مخلَّفاتها، ونتفحَّص السدود المائية التي تبنيها القنادس، ونقف على حوافِّ الجبال لنعرف ما إذا بَنَت الصقور أعشاشها السنوية أم لا. لكنني، في غيابها، لا أمتلك الطاقة المطلوبة لكل هذا المرح. أضعه في السيارة، وأنطلق به إلى "آرسينديجيم". ما الذي جعلني أفكّر في ذلك؟ أشغِّل له أسطوانة أغاني الأطفال التي يحبُّها، مرّتين متتاليتين، قبل وصولنا إلى المقابر. هناك، أقول له:

- جدُّك مدفونٌ هنا يا صغيري.

أقول لأبي، بصوتٍ غير مسموع:

- انظر يا بابا. هذا حفيدك.

كان لديه جدٌّ واحد. فوجيء الآن بأن له جدّاً آخر، موضوعًا تحت شاهدٍ رخامي. تسلل مفهوم الموت إلى عقله، تدريجيًا، وقد ساهمت الأرانب التي دهستها السيارات على الطريق في إدراكه لمفهوم الموت. هو نفسه يمثِّل أنه ميتٌ أحيانًا، وبخاصّةٍ عند حلول موعد الطعام. صار لديه الآن منافِسٌ في هذه اللعبة، جدُّه الذي لم تسبق له رؤيته. والأخير يتفوق عليه، لأنه ميتٌ بالفعل!

إنه يشبه أبي جدًّا. أفكّر في ذلك وأنا أسير معه في جنبات المقبرة، لأرى إن كانت أمِّي صارت أحد ساكنيها، أم ليس بعد. لا أكتفي برؤية صُوَر المتوفين، إذ لا أعتقد بأنني سأتعرف على شكلها؛ وإنما أقرأ الأسماء على الشواهد أيضًا، لأتأكَّد. لا أجدها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصطحبه بعد ذلك إلى الحانة، لأعرِّفه بأعمامي، متأكدًا مِن أنني سأجدهم هناك.

نجلس معًا في انتظارهم، ويغلبه الضجر.

- اللعنة عليَّ! انظروا مَن جاءنا!

وصل "هيرمان" و"جيردر"، أخيرًا.

- ما الذي جاء بك؟ ومَن هذا؟ ابنك؟ إنه نسخةٌ طِبق الأصل من "بي"! يا إلهي! ما هذا الشبه الرهيب؟

يتأملهما طفلي بعينين واسعتين، وقد أدهشته لهجتهما غير المألوفة لأذنيه.

- ما اسمه؟

- "يوري".

إنه اسم قبيحٌ جدًا. أمُّه هي التي اختارت "يوري". يبدو اسمًا لائقًا بسيَّارة.. "أوبِل يوري".

- "يوري"! اسمٌ جميل. أهلًا "يوري"! صافِحني.. أنا عمُّك "جيردر". حسنًا، هيَّا لنتناول بعض المشروبات.

أخبره بأنني لا أستطيع، لأنه ينبغي عليَّ قيادة السيارة.

- عليك أن تفكّر في عُذرٍ أفضل يا صاحبي! ها نحن نراك أخيرًا بعد غيبةٍ طويلة.

قال ذلك، ووضع أمامي بعض البيرة. قبل أن أتناول منها رشفةً واحدة، وضع بيرة ثانية بجوارها. لو شمَّت والدة الطفل رائحة الكحول في أنفاسي، فسوف يتعيَّن عليَّ البحث عن محامٍ يدافع عنِّي.

- فلنتمهل قليلًا. عليَّ أن أعيد الطفل لأمِّه خلال ساعتين. يجب أن أبدو متماسكًا!



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانوا قد وضعوا البيرة الرابعة على سطح الطاولة.

- بابا، هل يمكنني اللعب بذلك الجهاز؟

إنه يعرف رأيي جيدًا، لكنه يحاول انتزاع موافقتي، لوجود أشخاصٍ آخرين معنا. أكرر رفضي بوضوح.

- أليس لديك بضع عملاتٌ معدنية من أجل الطفل؟ ما الأمر؟ خذ يا صغيري.. عمُّك "هيرمان" سيجعلك تلعب الـ"سلوت".

أكره نظرة الانتصار في عينيّ الصبي. إنها نظرةٌ حقيرة، شخصٌ على أتمِّ استعدادٍ لمنح عواطفه لِمَن يدفع أكثر.

أقول لـ"هيرمان"، معترضًا:

- ما الذي تفعله؟ طالما أنني رفضت طلبه، فليس بإمكانك الموافقة عليه.

- ما هذا الغباء؟ ماذا لو أنه تسلَّى قليلًا على ذلك الجهاز؟ هل استيقظت اليوم بمزاجٍ متعكِّر؟

- كلّا. مزاجي ليس متعكّرًا، كل ما في الأمر أنني لا أريد لطفلي أن يلعب بأجهزة القُمار، وخصوصًا في عُمره المُبَكِّر هذا. بشكلٍ عام، هي ألعاب ضارّةٌ لأيِّ عُمر. أنت، تحديدًا، تعرف ذلك جيدًا.

- هل أتيتَ لتُسمِعنا اعتراضاتك أم ماذا؟

- أتيتُ لأنني اشتقتُ إليكم.

- لم ألحظ ذلك.

لم أعد واحدًا منهم، منذ زمنٍ طويل، والدليل هو أنني - مثل طفلي بالضبط - واجهتُ صعوبةً في فهم اللغة التي يظنُّونها هولنديةً تقليدية. لا شكَّ لديَّ في اعتقادهم أنني صرتُ مغرورًا ومتعاليًا. لم أعد أتحدَّث بلهجتي القديمة. تخرج منِّي تلقائيًا، في بعض الأحيان، عندما أكون غاضبًا أو سكرانًا؛ أيْ نادرًا، بمعنىً أصحّ. شديد الندرة، للدقّة. لستُ منهم، لكنني أودُّ ذلك. أتمنى أن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعبّر لهم عن إخلاصي وحُبّي، أو أيًّا ما كانت مشاعري تجاههم.

- أخبرنا عن أحوالك.

أنا سعيد. لكن هذه الإجابة تبدو فظيعة. كأنني أخجل من سعادتي. أرتزق من ممارسة شيءٍ أحبُّه، وأستمتع بأدائه. لدي منزل، لا أقبل بالتنازل عنه أبدًا، مهما كان الثمن. لديَّ حبيبةٌ سَوِيّةٌ ومُتَّزِنة، وتحبُّني حقًّا، ولا ترغب في إنجاب طفلٍ منّي، وهي مسألةٌ يصعب تصديقها. حبيبةٌ، لا أضطر لتوجيه السباب لها، أو ضربها. أمتلك تأميناتٍ ضدّ الحريق، وللسيارة. لديَّ منشارٌ كهربائي، وأوانٍ مطبخية، كما يليق بشخصٍ ناضج. أدفع تأميناتي الحكومية، عن اقتناع وبرضًا تامّ. بقيامي بكل هذه الأمور، يعتبرني أعمامي خائنًا، فما الذي يمكنني قوله لهم؟

أجيب:

- جيدة. أحوالي بخير. شكرًا. وكيف الأمور هنا؟

أضيف:

- كلّه تمام؟

أردتُ استخدام عبارةٍ تعجبهم. لكن بدون أن يعلقوا على قولي لها. أشعر بأنني دُمية الساحر الذي يتحدَّث من بطنه.

- "كله تمام"؟ "كُل" أيُّ شيء؟ هل تقولون ذلك في المكان الذي تعيش فيه الآن؟ سؤالٌ غبي!

- ألا تقولون ذلك هنا؟ إنه سؤالٌ عادي!

لقد كَبُرا. أكبر ممَّا تخيّلتهما عليه. أكبر ممَّا أرادا.

- سيجارة؟

عليّ أن أعترف بأنني في إحدى محاولاتي العديدة، التي لا تتوقف، للامتناع عن التدخين.

- مستصاب بالسرطان، في كل الأحوال.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنه مُحِقّ. أدخّن أربع سجائر متتابعة، وأفكّر في أن الطفل سيكون مُشبَعًا برائحة الدخان، حين أعيده لأمّه. هل أخبرها: "سيصاب بالسرطان، في كل الأحوال".

يقف أمام لعبة الـ"سلوت". يحرّك ذراعها بسعادة. إنها الحلم الذي أحرمه منه.

أسأل "جيردر":

- ما الذي بجوار الصغير؟

- ماذا تعني؟

- أنت تعرف ما أعني! ذلك الكوب! ما الذي بداخله؟

- "ديزل". قل لي إنك لا تعرف الديزل! كنتَ تعرفه قديمًا.

- هل تقصد أن ابني يشرب الديزل الآن؟

- لقد أحبَّه!

- "جيردر"! الولد في الخامسة!

- وما الخطأ في ذلك؟ بدأ أبوك بإعطائك الديزل وأنت في الخامسة.

- هذا ما أقصده بالضبط، يا "جيردر".

- لا تتوتر على هذا النحو، يا أخي! المشروب يحتوي على كميةٍ لا تُذكَر من البيرة. ثلاثة أرباع الكوب كوكاكولا، أساسًا! بصراحة، لو كان هناك شيءٌ سيئٌ في هذا المشروب، فهو الكوكاكولا، بتلك الكمية الهائلة من السُكَّر!

أزيح الكوب بعيدًا عن الطفل، ما يثير انزعاجه على الفور. أجلب له عصير فراولة، بدلًا منه. سوف يرفض تناوله، بكل تأكيد. هذا الحقير الذي يرفض تناول الخضراوات، ونضطر لدسّ الطعام في فمه - كما في مزارع تسمين الإوز التي تنتج الـ"فوا جرا" - يرحِّب



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بتناول كوب "ديزل"!

- هذه الأيام، يبدأ الأطفال في تناول المخدرات، وهم في الثانية عشر؛ وأنت تختلق مشكلةً لأن الولد تناول القليل من الديزل!

- لا أرغب في معرفة هذه الأمور يا "جيردر".

- حسنًا، أخبرني يا عزيزي ما الذي فعلوه بك في دُور الرعاية، ومنازل العائلات البديلة؟

كثيرًا ما طرحتُ على نفسي هذا السؤال.

يستطرد "جيردر":

- لم أعد أعرفك.

هل أصارحه بأنني لم أعد أعرف نفسي؟ هل سيريحه ذلك؟

أذكِّر نفسي بأن هذه هي طريقتهم. كلماتهم لا تعبِّر بالضرورة عن قُربهم أو ابتعادهم. الأحضان ليست شيئًا نفعله في أسرتنا، مثلًا. الأغراب الذين لا يعرفوننا جيدًا، لا يدركون مدى حبِّنا لبعضنا في هذه العائلة.

كان علينا أن ندرك مهارة الطفل المستقبلية. لقد مرَّت نصف ساعةٍ كاملة، ولا يزال يلعب بذلك الجهاز بنصف يورو فقط. حين يذهب "هيرمان" لاستطلاع الأمر، يجد ألفًا وخمسمائة يورو في الصينية المُلحقة باللعبة. كلَّما جذب "يوري" الذراع، أخرج الجهاز المزيد من النقود. ترتطم العملات ببعضها، مسبِّبةً له سعادةً بالغة. الغريب أننا لم نسمع شيئًا عند تساقطها في الصينية.

- يا إلهي! ألفٌ وخمسمائة يورو! لم أربح هذا المبلغ، من هذا الجهاز، ولو مَرّة! ممتازٌ يا "يوري"! أعطنا بعضًا من هذا المال. علينا أن نحتفل بهذه المناسبة.

لا أريد شيئًا من هذا المال، ولا أرغب في عودة الطفل لبيته بهذا المبلغ. يمكن لـ"هيرمان" الاحتفاظ به. إنه صاحب العُملة المعدنية التي لعب بها "يوري" أصلًا. فلأدعه يشتري لنفسه بعض البيرة 96%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل جننت؟ إنه مبلغٌ خيالي! يمكنك شراء تلال من الألعاب والدمى للصغير، بهذه النقود.

- مستحيل. سوف يعتقد بأن هذه الأجهزة وسيلةً لكسب المال.

- لكنها الحقيقة! لقد كانت وسيلته لكسب مبلغٍ كبير. هل أنت غبي؟

- إنها نقودك. هذا كل ما في الأمر.

- لا بأس. حسنًا.

يأخذ المبلغ، ويناول الصغير ورقة بخمسين يورو، قائلًا:

- مصروف جيب بسيط من عمِّك "هيرمان".

يصيح "جيردر" فجأة:

- "هارار"!

- ماذا؟

- "هارار"، صدِّقوني!

- أين "هارار"؟

- على الراديو يا غبي! حَلّ المسابقة.

قديمًا، كنّا نضع عملاتٍ معدنيةٍ في جهاز الـ"جيوك بوكس" لنستمع إلى الموسيقى والأغاني، ونحن في الحانة. هذه الأيام، يكتفون بتشغيل أجهزة الراديو في كافَّة الأماكن.

- هل لديك تليفون يا ولد؟ يجب أن أتصل بمحطّة الراديو بسُرعة.

أناوله تليفوني. يصمت كل مَن في الحانة. يسير "جيردر"، ذهابًا وإيابًا، محاولًا إعادة الاتصال بالرقم المشغول، مرةً تلو أخرى. يعَلِّي الناس في الحانة صوت الراديو. يصيح "جيردر" في غيظٍ عندما ينجح مستمعٌ آخر في الوصول لمذيع البرنامج، مجيبًا عن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سؤال الحلقة. يثرثر معه المذيع، فنعرف أن للمستمع أربعة أطفال، وأنه سعيد في زواجه، ويعمل في مجال الزراعة والبَستنة، ويهوى المَشي. يقول إجابته، أخيرًا: "جوبلز".

يعتذر المذيع، لأن الإجابة خاطئة، ويحوِّل الخط للمستمع التالي. يظهر صوت "جيردر" على الراديو، فجأة. يبادره المذيع:

- مساء الخير. مَن معنا؟

يجيبه "جيردر" باسمه الحقيقي:

- "كاريل". "كاريل فيرهولست"، المعروف بـ"جيردر".

- مساء الخير، "كاريل". أخبر المستمعين شيئًا عن نفسك.

- آه.. لديّ الكثير من الأبناء، من نساءٍ مختلفات، هجرنني جميعًا. أنا لا أعمل. الخمور هي قَدَري ومتعتي. لا هواية لديّ. الهوايات للحمقى فقط.

- أنت شخصيةٌ فريدة يا "كاريل"! فريدةٌ حقًا! وهل تعرف الإجابة على سؤال اليوم؟ دعني أولًا أذكِّر مستمعينا به. المعروف أن"بلوندي"هو اسم كلبة "آدولف هتلر"؛ وقد ورد ذلك في الفيلم أيضًا. سؤال الحلقة هو: ما اسم الكلب الـ"جيرمان شيبيرد" الذي اختاره الفوهرر لمعاشرة "بلوندي"؟الإجابة صعبة. أعلم ذلك.

يصيح "جيردر"، بصوتٍ أقرب للنُباح، وقد استبدَّ به الحماس:

- "هارار"!

- الإجابة صحيحة. "هارار" هو اسم الكلب، فعلًا. يمكن لفائزنا أن يختار أسطوانة "دي في دي" أو فيلم فيديو، بما يساوي 25 يورو، من متجر الفيديو الراعي للبرنامج.

يسأله المذيع:

- "كاريل"، ما الفيلم الذي ستختاره، إذًا؟

- شيء به الكثير من الجميلات العاريات. فيلمٌ إباحي، على



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأغلب؛ أو ربّما كارتون عن الحيوانات، مثل "بامبي".

- حسنًا، أتمنى لك مشاهدةً ممتعة. شكرًا لاتصالك، وأهنّئك مرّةً أخرى على الإجابة الصحيحة.

يعلّق "هيرمان":

- يا إلهي! هل هذه حلقةٌ مُعادة؟

- كيف عرفت؟

عليّ أن أنطلق. يجب إعادة "يوري" إلى أمّه، في الموعد المحدّد، دون أيّ تأخير.

- ماذا؟ بهذه السُرعة؟ لقد وصلتَ للتو!

لا يهمُّ مَن فينا جاء متأخرًا. يجب أن أغادر الآن.

- هل بإمكانك توصيلي، في طريقك؟ أنزلني عند متجر الفيديو، إن كنتَ لا تمانع. سأذهب لاستلام جائزتي.

لا بأس طبعًا. سأوصله في طريقي.

سيارتي ليست من النوع الذي يقوده الرجال الحقيقيون. لكنها تؤدّي الغرض، وقد سدّدتُ ثمنها بالكامل.

- هل هذه سيارتك؟

- إنها عملية.

- سيارةٌ لطيفة. يبدو أن أحوالك المالية جيّدة.

- لا بأس بها. لماذا ليس لديك سيارة؟

- لأنني لو اشتريتُ واحدة، فسوف يصادرها المُحضِرون خلال أسبوع، على الأكثر! لذلك، لا أفكّر حتى بالحصول على وظيفة. إنهم يخصمون ديوني من أجري، أولًا بأول.

- فهمت. لذلك لديك متّسعٌ من الوقت لدراسة ما يتعلّق بالكلاب



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الـ"جيرمان شيبيرد"!

- تشعر بالغيرة لأنني فزت في المسابقة، أليس كذلك؟ لأنني أعرف معلومةً عظيمةً كهذه! عمومًا، لقد أخذوا مني كل شيء، بما في ذلك حقوقي المدنية. لم يعد لديَّ حقُّ الانتخاب.

أودّ أن أقول له بأنه ليس له الحق في التدخين داخل سيارتي أيضًا. الطفل ليس مُجبَرًا على استنشاق كل هذا الدخان القذر؛ لكنني أمنع نفسي عن التفوّه بذلك. لقد فات الوقت، على كل حال. ربَّما عليّ انتهاز الفرصة، ومشاركته التدخين! أضع أسطوانة "سي دي".

- ما هذا الذي تستمع إليه؟ إنها أغاني عجائز، يا بُنيّ!

- "روي أوربيسون".

- أعرف أنه "روي أوربيسون". لا تقل لي بأنك لا تزال تستمع إليه!

- "روي" مُغنٍ فريدٍ من نوعه. لديه طاقةٌ صوتيةٌ عظيمةٌ وقوية، تمكّنه من إنهاء أغنيته بنفسه، دون الحاجة إلى "كُورَال" يردّد وراءه المقاطع المختلفة، عدَّة مرَّات.

- غباء!

يفتح صندوق الـ"تابلوه"، ويفتّش فيه عن أسطواناتٍ مُسَلِّية، ولا يجد شيئًا يعجبه. يلفت غلاف إحدى الأسطوانات نظره. يرفعها نحوي:

- ما هذه؟

- فريق "آنتوني آند جونسونز".

- بنتٌ حلوة!

- ليست بنتًا، يا "جيردر".

يقول ساخرًا:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- آه.. طبعًا، طبعًا!

يضيف:

- ماذا تكون إذًا؟ انظر إليها وهي مستلقية على الفراش! انظر لعينيها! وكأنها تغازلني وتدعوني إليها، عبر الصورة. كأنها تقول لي: "تعال إليَّ يا جيردر، اعطني ما أشتاق إليه منك". هذه الحلوة تنتظرني منذ زمنٍ طويل!

- ربَّما، لكن الحقيقة أنه رجلٌ يرتدي ملابس نسائية!

- هل هو من ذلك النوع؟

- شغِّل الأسطوانة. الأغاني تستحق الاستماع إليها.

- ما الذي تظنه بي؟ هل تعتقد أني سأجلس هنا وأستمع لموسيقى المثليين القذرة؟ أفضِّل أن أتغوَّط في ملابسي! كلّا. سنواصل القيادة دون موسيقى.

حين نصل إلى متجر الفيديو، يطلب منِّي انتظاره للحظة. يقول بأنه سيعود على الفور.

أنتظره، وأنا أطرق المقود بأطراف أصابعي، وأفكِّر في أن الأمور لم تسر كما توقعت. كان عليَّ المجيء دون الصبي، لأتمكن من مشاركة عمَّاي الشُرب، دون توقف، إلى أن نبدأ في الغناء والبكاء وإعلان محبّتنا لبعضنا. لقد تصرَّفتُ كشخصٍ غريبٍ عنهم. لقد صرتُ غريبًا عنهم، بالفعل. كنتُ مغرورًا حين رفضت التحدَّث عن سعادتي، خوفًا من ألاَّ يكونا مُهتمَّين. واقع الأمر أنهما كانا سيفرحان حقًّا لسعادتي ونجاحي.

يخرج من متجر الفيديو، ويشير إليَّ لفتح نافذة السيارة.

يناولني شيئًا:

- هاك! هذا للصغير.

إنه فيلم الكارتون "بامبي".



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول لي:

- اذهـب الآن. سـأتصرَّف للوصـول إلـى وجـهتي. انتبـه لنفسـك، واستمتع بأوقاتك.

- أنت أيضًا يا "جيردر". انت أيضًا. مع السلامة.

يلوّح ابني لـ"جيردر" طويلًا. علينا الآن أن نجلس معًا في السيارة لساعةٍ كاملة. لا أدري ما الذي سأقوله له، خلالها. ستكون الأمور أسـهل، لو أنه نام. لكنه ليس من النوع الذي ينام في السيارة. أسأله إن كان قد استمتع في إجازة نهاية الأسبوع التي أمضاها معي. أرى إيماءته، في مقعده الخلفي، عبر المرآة الأمامية. إنه يومىء، لأن ذلك أسهل، ولأنه يعتقد أنها الإجابة التي أتوقعها منه.

- هل لا يزال الطريق بعيدًا؟

- سوف نصل إلى ماما قريبًا. ساعةٌ واحدةٌ فقط.

- هل يمكن أن نغني؟

- هل تعلمتَ أغنيةً جديدةً في المدرسة؟

- لا. عمِّي "جيردر" علَّمني إيَّاها.

- كلّا. لا أودُّ سماع تلك الأغاني يا "يوري". أنا أعرف عمَّك "جيردر" وأغانيه! جميعها سيئةٌ جدًّا. فكِّر في شيءٍ آخر.

- لكنها أغنيةٌ عن العصافير!

- ربما يـا بُنـيّ، لكنني لا أودُّ غنائها. على كل حال، الغناء داخل السيارات أمرٌ خطير. يجب أن أركِّز في القيادة.

ساعة أخرى. أذكِّر نفسي بأنها مجرّد ساعةٍ واحدة.

- بابا..

- نعم يا صغيري؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أبول.

- ماذا؟

- أبول.

- قُل "أريد أن أتبوَّل"، أو "بي"، أو "أودّ استخدام الحمَّام".

- حسنًا، بابا.

- ما قلته للتوّ كلمةٌ غير لطيفة، يستخدمها الناس القذرين.

محـطّة البنزيـن مليئـةٌ بـآباء وأمّهـات يصـطحبون أطفالـهم للحمّامـات. الأبـواب مفتوحـة. يمكنـك أن تلمـح الصـغار وهـم يحاولون أداء مهمتهم على الوجه الأكمل، وقد أنزلوا ملابسهم الـداخلية حتـى كواحـل سـيقانهم. يتابعـهم الكبـار بـاهتمام، ويتدخلون عندما تخرج الأمور عن السيطرة. ما الذي أفعله هنا؟ في طفولتي، كانت هذه الحمَّامات تحمل أجواء الإجازات، على الأقل. أفكِّر في أنها ساعةٌ واحدةٌ فقط، بينما يثير ابني انتباه وإعجـاب الجميع، وهـو يسـتخدم المبولـة بمفرده، معتمدًا على نفسه تمامًا، وهو يترنَّم بأغنيةٍ عن العصافير.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner